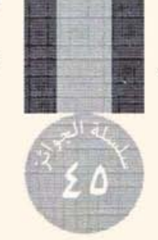
الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز





رواية

دوريس ليسنج

الطفل الخامس

ترجمة: مدحت طه

مراجعة وتقديم: طاهر البربري

دوريس ليسنج

- كاتبة إنجليزية ولدت فى إيران ٢٢ أكتوبر ١٩١٩. حيث كان والدها يعمل ضابطا فى الجيش البريطانى. واتخذت لقبها "ليسنج" من زوجها الثانى.
- لم تكمل دراستها النظامية وعكفت منذ سن مبكرة على دراسة الأدب منذ القرن التاسع عشر.
- تميزت أعمالها الأدبية بالنضال ضد المظالم والإستعمار والتمييز العنصرى وبالتأييد لحقوق المرأة.
- لفتت إليها الأنظار بقوة عند صدور روايتها الأولى "العشب يغنى" عام ١٩٥٠ ثم توالت أعمالها ومع صدور روايتها "المفكرة الذهبية" تحولت "دوريس ليسنج" إلى أيقونة للحركات النسائية على الرغم من أنها لم تنضم يوماً إلى إحداها.
- من أهم أعمالها "الإرهابية الطيبة"، "تحت جلدى"، "الشق"، "ماراو دان"، "تعليمات الهبوط إلى الجحيم"، "الطفل الخامس"، "بن يجوب العالم".

حصلت على العديد من الجوائز منها جائزة الدولة النمساوية للأدب الأوروبى، وجائزة أمير آستورياس فى الأدب، وجائزة لوس أنجلوس تايمز للكتاب. وحصلت على لقب وصيفة شرف من الجمعية الملكية للآداب. ونالت شهادة فخرية من جامعة هارفارد. وذلك قبل أن تتوج مسيرتها الإبداعية بالحصول على جائزة نوبل فى الآداب لعام ٢٠٠٧.

الجائزة: جائزة نوبل فى الآداب

أكبر جائزة فى العالم. وأعلى مرتبة من جميع التقديرات. تمنح فى فروعها المختلفة كل عام فى العاشر من ديسمبر. وهو تاريخ وفاة صاحبها الصناعى السويدى ومخترع الديناميت "ألفريد نوبل" الذى أسسها عام ١٨٩٥. كدعوة لتحقيق السلام فى العالم.
ومنذ عام ١٩٠١ أصبح العالم كله ينتظر توزيع الجائزة على الأدباء والعلماء ودعاة السلام. الذين يقومون بإنجازات أدبية وعلمية وخدمات اجتماعية نبيلة تهدف إلى رقى الإنسانية وتطورها.
وجائزة نوبل فى الآداب هى أرفع جائزة أدبية فى العالم. وهى تمنح لقمم الإبداع فى فروعه المختلفة: رواية.. شعر.. مسرح.
وأول من حصل عليها من العالم العربى الكاتب المصرى "نجيب محفوظ" عام

الطفل الخامس

ليسنج، دوريس.
الطفل الخامس/ رواية درويس ليسنج؛ ترجمة:
مدحت طه؛ ترجمة وتقديم: طاهر البربرى. ـ
القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩
٢٤٠ ص ؛ ٢٢ سم. ـ (سلسلة جوائز)
تدمك ٦ ٧٨٨ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القصص .
أ ـ طه، مدحت (مترجم)
ب ـ البربرى، طاهر (مترجم ومقدم)
جـ ـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٧٨٣٤/ ٢٠٠٩

I.S.B.N- 978 - 977 - 420 - 788 - 6

ديوى٨٢٣, ٨٠٨

الطفل الخامس

رواية

دوريس ليسنج

ترجمة: مدحت طه

ترجمة وتقديم: طاهر البربري



٢٠٠٩

• الكتاب: **الطفل الخامس** The Fifth child.

• تأليف" **درويس ليسنج** Doris Lessing.

• ترجمة: مدحت طه.

مراجعة وتقديم: طاهر البربرى.

• يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من المؤلفة للهيئة المصرية العامة للكتاب.

• الطبعة الأولى ٢٠٠٩.

• طبع فى مطابع الهيئة المصرية للعامة للكتاب.

«سلسلة الجوائز»

مازال أمام سلسلة الجوائز الكثير من الأحلام **الكبرى**، التى تعمل بدأب على تحقيقها، فلقد شهدت **السنوات** الأخيرة احتفاءً غير مسبوق بالأعمال الأدبية **فى شتى** أنحاء العالم، وزادت أعداد الجوائز المهمة **وأشكال** تكريم المبدعين، فازدادت بالتالى الروائع **الأدبية**، التى تنتظر الترجمة والنشر فى سلسلة **الجوائز**.

ولأننا نضع نصب أعيننا قطع المسافة بين الواقع **والمأمول**.. بين الممكن والمستحيل فقد قطعنا خطوات **كبيرة** وجادة للتغلب على التحديات التى تواجه عملية **الترجمة** بداية من احترام حقوق الملكية الفكرية **للمؤلف** ومرورًا بتطوير شكل الكتاب، ووصولاً إلى **قناعة** بأن النصوص الأدبية لها وضعها الخاص **باعتبارها** مؤلفات جمالية متفردة ومن ثم تكون **ترجمتها** إبداعًا موازيًا يتحمل المترجم وحده عبء **النهوض** به. كما أننا استحدثنا «ذاكرة الجوائز» كرافد **للسلسلة** لتقديم الآثار الأدبية، التى شكلت ذروة خالدة

فى مسيرة الإبداع العالمى ولم تترجم بعد، أو أنها ترجمت ونفدت طبعاتها، إيمانًا من السلسلة بأن الأعمال الأدبية يكون لها دائمًا تأثير لا يمحى بمرور زمنها وحتى يتسنى للأجيال الجديدة قراءتها.

لقد انطلقنا من نجاحات تحققت فى مجال ترجمة الأدب فى مصر والعالم العربى، ولذا شرعنا فى تأسيس بنك معلومات رأينا أن الترجمة بحاجة إليه، ويشمل هذا البنك كل الأعمال الأدبية التى حازت جوائز دولية أو محلية فى كل أنحاء العالم، أو حققت أصداء قوية، وأثرت فى وجدان مجتمعاتها بشكل يؤهلها للحصول على جوائز أكبر، كما أنه يوفر قاعدة بيانات كبيرة عن كل المترجمين من كل اللغات، لكى يتابع القارئ العربى ما تم إنجازه والمهمات التى تنتظر السلسلة.

إن الترجمة كانت وستظل هى الحل السحرى للعديد من مشكلات الاختلاف بين الشرق والغرب، وهى وسيلة التواصل والحوار، وترجمة الأدب بالذات هى الجسر، الذى تعبر عليه أفكار الشعوب وعاداتها ومعارفها بدون قيود، فالأدب كان وسيظل أساس التقدم والخير والحق والحرية والجمال.

ولذا ستسابق سلسلة الجوائز الزمن لتحتفى بأكبر قدر ممكن من حائزى الجوائز فى العالم، تلك الجوائز التى حققت مصداقية كبيرة وسمعة حسنة حتى يتوفر للقارئ المصرى والعربى عمل اتفقت على جودته لجان

متخصصة، مهمتها التحكيم لمنح جوائز دولية ومحلية لأهم الكتب وأكبر الكُتّاب.

ولسوف تتنوع اللغات المُتَرجم عنها فى أعداد السلسلة القادمة، ولسوف تقتحم سلسلة الجوائز جوائز جديدة. وأصواتًا لم يتعرف إليها بعد القارئ العربى، وذلك بفضل زخم الأعمال الإبداعية فى العالم وبفضل تنوع الجوائز المستحدثة، التى لاقت اختياراتها ترحيبًا واحترامًا من النقاد والمتابعين للمشهد الإبداعى.

د. ناصر الأنصارى

مقدمة

نوبل تنتظر على عتبة البيت

دوريس ليسنج روائية استطاعت بكتاباتها - المتمركزة حول سيرتها الذاتية، غالبًا - أن تندفع عابرةً قارات العالم كى تعكس انخراطها النسوى فى القضايا السياسية والاجتماعية لعصرها. حصلت دوريس ليسنج على جائزة نوبل فى الآداب عن العام٢٠٠٧ وفى حيثيات حصولها على الجائزة، صرحت الأكاديمية السويدية فى سياق إعلانها نبأ فوز دوريس ليسنج بجائزة نوبل أن الكاتبة قد رصدت ببراعة ملحمية تجربة نسوية؛ استطاعت بتبنيها لقوة الحلم والغضب والحماس إضافةً إلى الشك فى يقينية المعرفة بالعالم أن تعرض الحضارة الإنسانية المنقسمة على نفسها لإعادة النظر. من المعروف أن دوريس ليسنج قد أتمت عامها الثامن والثمانين فى شهر أغسطس ٢٠٠٧ . وقد نشأت دوريس ليسنج فى روديسيا الجنوبية المعروفة الآن باسم زيمبابوى، لأب وأم بريطانيين. وهى الآن تعيش فى لندن.

كتبت دوريس ليسنج عشرات الأعمال الروائية والقصصية وكذا المسرحية إضافةً إلى كتاب في السيرة الذاتية. وبذلك تصبح ليسنج هي المرأة الحادية عشرة التي تحصل على جائزة نوبل في الأدب. علمت ليسنج بالنبأ من مجموعة من المراسلين الصحفيين الذين عسكروا على عتبة بيتها أثناء عودتها إلى البيت من زيارة لابنها في إحدى المستشفيات. أعلنت أنها في غاية الاندهاش، قائلة: "لقد نسيت هذا الموضوع تمامًا؛ إذ أن اسمي ظل في القائمة المصغرة للترشيحات لفترة طويلة للغاية." ثم بعد فترة من إمعان التفكير أعلنت - وربما كانت فورة الاندهاش قد خبت - "لقد استمر هذا لفترة تقترب من الأربعين عامًا،" في إشارة لسنوات عديدة كان اسمها يتصدر قائمة التكهنات بالتكريم. "لا يمكنك الاستمرار كثيرًا تحت وطأة الاندهاش كل عام لنفس السبب، وعلى أية حال فهناك دائمًا حدود للذهول." هكذا بصوت خفيض وتعقيبات واضحة محددة الدلالة عبرت دوريس ليسنج عن مشاعرها فور استقبالها لنبأ فوزها. "الآن أعتذر لكم لأنني أود الدخول إلى منزلي للرد على الهاتف،" قالت. "وأقسم لكم بأنني سأصعد إلى غرفتي لأدرب ذهني على بعض جمل مناسبة كي أستخدمها من الآن فصاعدًا."

على الرغم من أن دوريس ليسنج تتبنى بقوة عددًا من وجهات النظر السياسية، إلا أنها ليس من المحتمل أن تكون على النقيض تمامًا من الفائزين

السابقين بجائزة نوبل فى الآداب، أورهان باموق Orhan Pamuk وهارلود بينتر Harlod Pinter بموقفهما العقلى من الأحداث السياسية الراهنة، الذى أدى بالمعلقين إلى الشك فى أن الأكاديمية السياسية تمنح الجائزة لأسباب غير أدبية.

ربما يكون أقوى ما أبدعته ليسنج هو أنها ألهبت حماس جيل من الناشطات النسويات بروايتها (المفكرة الذهبية (The Golden Notebook التى اعتبرت مدفعية ثقيلة مدمرة لحصون العدو. وفى استشهادها بتفوق ليسنج، أعلنت الأكاديمية السويدية أن: "الحركة النسوية المزدهرة رأت فى هذه الرواية العمل الرائد بين مجموعة من الأعمال التى صاغت رؤى القرن العشرين فيما يخص علاقة الرجل بالمرأة."

كتبت دوريس ليسنج بصدق تسمه النزاهة ولا يصمه الانحياز مطلقًا، عن أعمق ما فى حياة المرأة من تفاصيل ورفضت تمامًا فرضية أنه يتحتم على النساء ترك حيواتهن الخاصة من أجل الزواج والأطفال. لقد صدرت (المفكرة الذهبية) فى عام ١٩٦٢ . رواية تسرد حياة آنا وولف Anna Wulf وهى امرأة أرادت أن تعيش الحياة بحرية تامة. فيما يذكر أن شخصية آنا وولف تمثل تجسيدًا حيًا لدوريس ليسنج ذاتها آنذاك. ولأن ليسنج استطاعت بقوة تصوير الغضب الأنثوى، وهول الافتئات على حقوق المرأة فكثيرًا ما هوجمت بأنها "ليست أنثوية أو مناوئة للأنثوية." وردًا على هذه الاتهامات قالت ليسنج: "من

الواضح أن ما تفكر فيه وتشعر به وتعيشه نساء كثيرات يبدو مثارًا للدهشة والذهول." فى روايتها (العشب يُغَنِّى The Grass is Singing) التى صدرت العام ١٩٤٢ تناولت دوريس ليسنج للمرة الأولى تاريخ العلاقة بين زوجة المزارع الأبيض وخادمها الأسود. فى أعمالها الأولى، كانت كتابات دوريس ليسنج تنطلق من تجارب طفولتها فى مستعمرة روديسيا الجنوبية (زيمبابوى الحالية) لترصد الصدام القائم بين البيض والثقافات الإفريقية والتى كانت تستهدف طرد الأفارقة من مواطنهم. وبسبب وجهات نظرها المُعلنة، فقد أعلنت حكومتا روديسيا الجنوبية وجنوب إفريقيا أنها أجنبية محظور إقامتها فى العام ١٩٥٦.

ومن بين رواياتها الأخرى روايات مثل "الإرهابية الطيبة" The Good Terrorist" و "الحب مرةً أخرى Love Again" وأحدث أعمالها الروائية التى صدرت فى يوليو ٢٠٠٧ تحت عنوان "الصدع .The Cleft" على مدار نصف قرن، تكتب دوريس ليسنج عن العالم، عن الكون، وأنماط التهديدات والصراعات التى تديرها المجتمعات والمؤسسات والأمم والتى ليس من شأنها تهديد المجتمع فحسب بل وكوكب الأرض برمته.

فى الثانى عشر من أكتوبر ١٩١٩ وُلِدت الكاتبة دوريس ليسنج Doris May Tayler فى إيران لوالدين بريطانيين: فى الحرب العالمية الأولى أصبح والدها قعيدًا، وقد كان موظفًا فى بنك فارس الإمبريالى. كانت أمها ممرضة. فى العام ١٩٢٥ أغواها وعد

بالثراء من زراعة الذرة، فانتقلت الأسرة إلى روديسيا الشمالية (زيمبابوى الحالية). تكيفت أم دوريس مع حياة المستعمرة بخشونتها وفظاظتها، وحاولت بكل طاقتها أن تستعيد الحياة التى كانت، من وجهة نظرها، متحضرة بين أولئك البدائيين. لكن تجربتها باءت بالفشل، وفشلت أيضًا آلاف الأفدنة المنعزلة فى أن تمنحها الثروة الموعودة.

لقد وصفت دوريس ليسنج طفولتها بأنها مزيج عشوائى من المتعة والألم. فالعالم الوارف بالطبيعة الذى استكشفته وهى بصحبة أخيها، هارى Harry لم يكن يمثل سوى مأوى وملاذ من وجودٍ آخر تصمه التعاسة. فأمها، وقد استحوذت عليها الرغبة فى تربية فتاة متميزة، وضعتها تحت وطأة منظومة منزلية صارمة من القواعد والعادات الصحية. بعدئذ ألحقتها أمها بمدرسة للراهبات، وكانت الراهبات يشبعن تعليماتهن بقصص عن الجحيم والعقاب السرمدى. بعد ذلك أُلحقت دوريس ليسنج بمدرسة ثانوية للبنات فى عاصمة ساليسبرى، فُصِلَت منها بعد فترة قصيرة. وقتئذ كانت دوريس ليسنج فى الثالثة عشرة من عمرها، وكانت هذه هى نهاية تعليمها الرسمى.

لكن دوريس ليسنج، مثل نادين جوردمير، وكل قريناتها من كاتبات جنوب إفريقيا، اتجهت إلى التعليم الذاتى لتصبح واحدة من القامات الإبداعية العظيمة. وتعلن دوريس ليسنج مؤخرًا أن الطفولة البائسة يبدو أنها السبيل الأعظم إلى خلق الكاتب الروائى. "نعم، أعتقد أن هذا حقيقى. رغم أن هذا لم يكن واضحًا

بالنسبة لى. بالطبع، لم أكن أفكر، وقتئذٍ، بمنطق الكاتبة - لقد كنت أفكر فقط فى الهروب، طيلة الوقت. لقد كانت مجموعات الكتب التى تأتيها من لندن تشحذ مخيلتها، وتمنحها فرصة تشكيل عوالم أخرى مكتملة القسمات. وتقول ليسنج: "فيما بعد اكتشفت الطريق إلى ديفيد هربرت لورانس، وستاندال، وديستوفيسكى. وكذا كانت حواديت قبل النوم تغذى فترة صباها: كانت أمها تحكيها للأطفال، وكانت دوريس تجبر أخاها على أن يظل يقظًا، ينسج الحكايا. لقد أمضت دوريس ليسنج سنواتها الأولى فى امتصاص الذكريات المريرة الكامنة فى ذاكرة أبيها عن الحرب العالمية الأولى، وكانت تتجرعها وكأنها نوع من السموم المهلكة. لقد صنعنا جميعًا فى طاحونة الحرب، وكتبت ليسنج، لقد جدلتنا الحرب، هرستنا وشكلتنا وغلفتنا، لكن يبدو أننا نسيناها.

لقد غادرت ليسنج حضن أمها وهى فى سن الخامسة عشرة، وعملت كحاضنة للأطفال. أعطاها رب عملها كتبًا فى السياسة وعلم الاجتماع كى تقرأها، فى الوقت الذى كان أخو زوجته يتسلل إلى سريرها ويداهمها بقبلات عشوائية سخيفة. وقتئذٍ كانت دوريس، كما كتبت، "فى حالة هياج شهوانى." وحينما أصابها الإحباط من جراء خطيبها المتراجع الخجول، استغرقت فى أوهام رومانتيكية شديدة. فى ذلك الوقت أيضًا كانت قد بدأت فى كتابة القصص القصيرة، وباعت اثنتين منها إلى دوريات أدبية جنوب إفريقية.

لقد كانت حياة دوريس تمثل نوعًا من التحدى لإيمانها بأن الناس لا تستطيع مجابهة تيارات زمنها، لأنها ناضلت ضد الحاجات البيولوجية والثقافية التى اضطرتها للغرق دون تذمر فى عالم الزواج والأمومة. وقالت دوريس متحدثةً عن الحقبة التى عاشتها أمها: "هناك جيل كامل من النساء بدت حياتهن وكأنها توقفت تمامًا مع إنجابهن للأطفال. معظمهن قد صرن مصابات بحالات عُصابية، وذلك بسبب - كما أعتقد - التناقض التام بين ما تلقينه فى التعليم المدرسى حول قدراتهن وما صارت عليه حياتهن فعليًا." إن ليسنج لتعتقد أنها أكثر حرية من معظم الدوائر الآدمية المحيطة بها؛ ذلك لأنها أصبحت كاتبة. بالنسبة لها تعتبر الكتابة نوعًا من، "الجلوس على مبعدة،" لالتقاط "كل ما هو فردانى، وغير ناضج، كل ما لم يقع تحت طائلة النقد والاختبار والدفع به إلى مملكة المعيش والحياتى والعام."

فى العام ١٩٢٧ انتقلت دوريس ليسنج إلى ساليسبرى Salisbury حيث عملت كموظفة تليفونات لمدة عام. فى سن التاسعة عشرة تزوجت من فرانك ويدسون Frank Widson وأنجبت منه طفلين. بعد بضع سنوات، ومع شعورها بالوقوع فى فخ شخصية ستشرع فى تدميرها، تركت أسرتها، وبقيت فى ساليسبرى. وعلى الفور انجذبت لأعضاء نادى الكتاب اليسارى، حيث وجدت عددًا من العقليات التى شاركتها الأفكار والطموحات. كان أعضاء هذا النادى

عبارة عن مجموعة من الشيوعيين "كانوا يقرءون كل شيء، ولا ينظرون إلى القراءة على أنها ممارسة استثنائية." كان جوتفرايد ليسنج أحد أبرز شخصيات المجموعة؛ تزوجته بعد فترة قصيرة، وأنجبت منه طفلا.

خلال سنوات ما بعد الحرب تحررت دوريس ليسنج من أغلال الحركة الشيوعية، التى تركتها تمامًا فى عام ١٩٥٤ . سنة ١٩٤٩ كانت دوريس ليسنج قد انتقلت للعيش فى لندن مع ابنها الصغير. فى العام نفسه، كانت قد أصدرت أيضًا أولى أعمالها الروائية، (العشب يغنى The Grass Is Singing) وبدأت مسيرتها الإبداعية ككاتبة محترفة. ثمة إجماع نقدى يؤكد على أن نقطة انطلاق دوريس ليسنج فى كتابتها الروائية هى سيرتها الذاتية، وكذا معظم أعمالها تتكئ بصورة ملحوظة على ذكريات طفولتها وتجاربها الحياتية فى إفريقيا. فمن خلال مواقفها السياسية والاجتماعية - وكما أشرنا آنفًا - وذكريات طفولتها، كتبت دوريس عن صراع أو صدام الثقافات (أو كيفما اصطلح مؤخرًا "صدام الحضارات")، وأنماط الظلم الفادحة المنبثقة من التمييز الاجتماعى. لقد قادت ليسنج حركة تعبير روائى وقصصى قوامها صراع العناصر المتناقضة داخل شخصية الفرد؛ ومن ثم فقد فضحت عقم ثقافة البيض فى جنوب إفريقيا.

طاهر البربرى

الطفل الخامس

التقى كلٌ من هارييت وداڤيد فى حفل مكتبى؛ لم يكن لدى أيهما الرغبة فى حضوره، وأدرك كلاهما على الفور أن هذا ما كان بانتظاره. شخص متحفظ، دقة قديمة "كما يقولون"، لكنه ليس موشكًا على الزوال، جبان، صعب المراس: هكذا وصفهما الآخرون. لم تكن هناك نهاية للصفات الفظة التى نُعِتوا بها. دافعًا عن وجهة نظرهما فى نفسهما تبنياها بعناد. وجهة نظر مفادها أنهما كانا اثنين من البشر العاديين، ومن العدل ألا يُنْتَقدوا بسبب شدة حساسيتهما العاطفية، والاعتدال، فقط لأن هذه الصفات ليست من السمات العصرية.

فى هذا الحفل المكتبى الشهير انحشر حوالى مائتا شخص فى حجرة طويلة، منمقة، ومهيبة، تظل على مدى ثلاثمائة وأربعة وثلاثين يومًا من العام حجرة مجلس الإدارة. كانت ثلاث شركات متحدة، كلها معنية بالإنشاءات العقارية تقيم حفلها السنوى

لنهاية العام. كان الإيقاع العنيف لفرقة موسيقية صغيرة يرج الجدران والأرضية. كان معظم الناس يرقصون متراصين ومتلاصقين نظرًا لضيق المساحة؛ يتمايلون لأعلى ولأسفل أو يدورون حول محور فى بقعة واحدة، كما لو كانوا يدورون حول مائدة دوارة غير مرئية. النساء كن يرتدين ثيابًا درامية غريبة، مليئة بالألوان ولسان حالهن يقول: انظر إلىّ! انظر إلىّ! التمس بعض الرجال مزيدًا من الانتباه لوجودهم. حول الجدران كانت تقف قلة متلاصقة من الناس **ممن لا يرقصون**، وكان ضمن هذه القلة هاربيت وإلى **جوارها دافيد يقفان بمعزل** عن الناس وهما يمسكان **بالكئوس. يراقبان ما** يجرى. كلاهما أعرب عن أن **وجوه الراقصين، النساء أكثر** من الرجال، ولكن وجوه **الرجال أيضًا، كانت تعتريها** حالة من التشوه جراء **الصراخ والالتواء المتألم فى** قسمات الوجوه وكأنه من **فرط المتعة. كانت هناك حالة** من الحمى الاضطرارية فى ذلك المشهد... غير **أن** هذه الأفكار، مثل الكثيرات غيرها، لم يتوقعوا أن يشاركهما فيها أى شخص آخر من الحضور.

من أبعد نقطة فى الغرفة، إذا ما رآها أحد بالمرة بين العديد من البشر ذوى العيون النهمة، كانت هاربيت عبارة عن صورة ضبابية مرسومة بلون فاتح؛ إذا ما رأتها أىٌ من العيون النهمة المترقبة، بدت وكأنها فتاة مندمجة فى الوسط المحيط بها، كما فى لوحة انطباعية، أو صورة فوتوغرافية خادعة. وقفت إلى

جوار مزهرية هائلة الحجم بها أعشاب وأوراق مجففة، مرتدية فستانًا منقوشًا بالأزهار. والعين المدققة ترى، حينئذ، شعرًا داكنًا مجعدًا على غير الموضة... وعينين زرقاوين مفعمتين بالرقة وغارقتين فى التأمل... والشفتين مطبقتين بحدة إلى حد ما. فى الحقيقة، كانت ملامحها كلها جميلة وقوية، كانت قوية البنيان. شابة وارفة بالصحة لكنها أقرب إلى امرأة فى حديقة منزل؟

كان دافيد يقف بالضبط فى المكان الذى ظل يحتسى فيه الخمر بترو على مدى ساعة، واستغرقت عيناه الثاقبتان بزرقتهما الداكنة وقتهما فى تأمل هذه الشخصية؛ هذان الزوجان، تترقبان كيف يتلاقى الناس ويفترقون، يتصادمون ويرتدون. لم يكن دافيد بالنسبة لهارييت يملك مظهرًا لأحد ما راسخًا بصلابة: بدا أنه كان يحوم متوازنًا على أطراف قدميه. رجل شاب نحيل، بدا أصغر من سنه الحقيقية - لديه وجه أبيض مستدير وشعر بنى ناعم تتمنى الفتيات أن تمررن أصابعهن فى خصلاته، غير أن نظرته المتأملة المحدقة أفصحت عن نفسها وفرضت الإحساس بها فأقلعن عن هذه الرغبة. لقد جعلهن يشعرن بعدم الراحة. لكن الأمر كان مختلفًا مع هارييت. فقد أدركت أن نظراته وعزلته المترقبة تعكس نظرتها. وحكمت على محيطه الهزلى بأنه محاولة منه. كان يطرح نفس الملاحظات الذهنية عنها: فقد بدا أنها لا تحب تلك المناسبات مثله تمامًا. اكتشف

كلاهما الآخر. كانت هارييت تعمل فى قسم المبيعات لشركة تصمم وتورد مواد البناء وتمد بها السوق، أما دافيد فقد كان مهندسًا معماريًا.

إذًا ما الذى جعل هاتين الشخصيتين تتمتعان بكل هذه الاستثنائية وغرابة الأطوار؟ الأمر له علاقة بنظرتهما للجنس! تلك كانت فترة الستينيات! كان دافيد على علاقة طويلة وصعبة بفتاة تورط فى غرامها: فقد كانت تمثل ما لم يكن يوده فى فتاته. كانا يتبادلان المزاح على تجاذب الأضداد. بالنسبة لها، كانت محاولته لإعادة إصلاحها ليست سوى نكتة: "أعتقد أنك تتخيل أنك سوف تعيد الأمور إلى نصابها، بادئًا بى أنا!" ومنذ انفصالهما، بشكل بائس جدًا، ضاجعت - وفقًا لما اعتقده - كل رجل فى شركة سيسونس بلند وشركاه، والنساء أيضًا، ولم يكن ذلك مثيرًا لدهشته. كانت بين الحضور فى هذه الليلة، وكانت ترتدى فستانًا قرمزيًا له حزام أسود، فى محاكاة مضحكة لأزياء الفلامنكو. وقد برز رأسها من هذا التلفيق. تلك كانت موضة القرن التاسع عشر والقرن العشرين، حيث كان شعرها الأسود ينساب فى عنقود طويل فوق رقبتها للخلف مع ربطة سوداء على جبهتها. كانت ترسل موجات من الهياج والقبلات إلى دافيد عبر الحجرة حيث كانت تدور مع رفيقها. كان يرد بابتسامة فاترة مفادها: لا ضغائن. بالنسبة لهارييت، كانت عذراء. "عذراء الآن"، صديقاتها كن يصرخن؛ "هل جننتِ؟" الحقيقة أنها لم تعتقد فى

نفسها أنها عذراء، إذا كان هذا يعنى حالة فسيولوجية يجب الدفاع عنها، لكنها بالأحرى مثل هدية ملفوفة فى طبقات من الورق الجميل الفاخر على أن تُمنح بتحفظ للشخص المناسب. أخواتها كن تسخرن منها. وكانت الفتيات اللائى يعملن معها فى المكتب ينظرن إليها نظرة ساخرة متعمدة عندما ألحت على القول، "آسفة إننى لا أحب كل هذه المضاجعات هنا وهناك، هذا لا يليق بى." كانت هارييت تعرف أنها تُطرح للنقاش دائمًا كموضوع مثير، بلا تعاطف عادةً. بنفس الازدراء البارد الذى ربما استخدمته النسوة الطيبات ممن هن فى عمر جدتها بالقول، "إنها لا أخلاقية بالمرة كما تعلم،" أو "إنها ليست أفضل مما يجب أن تكون عليه،" أو "ليس لديها منطق أخلاقى يرتبط باسمها"؛ ثم النساء من جيل أمها كن يرددن، "لديها ذلك الجنون بالرجل،" أو "لديها هياج عاطفى شديد. وهو ما كانت الفتيات المستنيرات يقلنه الآن لبعضهن البعض، "لابد أن السبب فى هذا شىء ما فى طفولتها، أمر بائس ما، هو ما جعلها على هذا النحو."

الحقيقة أنها شعرت فى بعض الأحيان أنها غير محظوظة أو أنها تفتقر إلى شىء ما، بشكل أو بآخر، لأن الرجال الذين واعدتهم لتناول وجبة أو للذهاب إلى السينما كانوا يأخذون رفضها على أنه دليل قاطع على نظرة مرضية، نظرة لا كرم فيها. لفترة، اتخذت من فتاة، أصغر من الأخريات، صديقة لها، لكن فيما بعد صارت الفتاة "مثل كل الأخريات،" كما وصفتها

هاربيت بيأس، وهى تعرف نفسها بأنها غير لائقة. قضت ليالى عديدات وحيدة، وغالبًا ما كانت تذهب إلى بيت أمها فى عطلات نهاية الأسبوع، التى قالت، "حسنًا، أنت دقة قديمة، هذا كل ما فى الأمر، والكثير من الفتيات يرغبن فى أن يكن كذلك، إذا ما سنحت لهن الفرصة."

هذان الشخصان غريبا الأطوار؛ هاربيت ودافيد، انطلقا من ركنهما صوب بعضهما البعض فى نفس اللحظة: لحظة ستكون مهمة لهما حيث صار حفل المكتب الشهير جزءًا من قصتهما." نعم فى الوقت نفسه بالضبط..." كان عليهما أن يمرا بالناس الذين كانوا بالفعل يستندون الجدران؛ وهم يحملون كئوسهم لأعلى فوق رءوسهم ليبعدوها عن طريق الراقصين. هكذا وصلا معًا أخيرًا وعلى وجه كل منهما ابتسامة للآخر - لكنها ابتسامة مشوبة بقليل من القلق - وأمسك يديها وشقا طريقهما بصعوبة خارج الغرفة إلى الغرفة المجاورة التى بها البوفيه؛ كانت ممتلئة بأناس مزعجين، ومنها إلى كوريدور - مسكون بشكل متفرق بأزواج يتعانقون. ثم فتحا الباب الذى لان مقبضه لهما. كان مكتبًا به مكتب وكراسى خشنة، وأريكة كذلك. صمت... حسنًا، يطبق على المكان. تنهدا. وضعا كأسيهما. جلسا وجهًا لوجه، حتى يتمكن كلٌّ منهما من النظر إلى الآخر كما يحلو له، ثم شرعا فى الحديث. تحدثا كما لو كان الحديث هو ما حُرما منه، كما لو كانا يتشهيان للكلام. واصلا الجلوس فى

مكانهما، متقاربين، يتحدثان حتى بدأ الصخب يخفت في الحجرات عبر الممشى، ثم خرجا بهدوء، واتجها إلى شقته التى كانت تقع بالقرب من المكتب. هناك ناما معًا على سريره وقد تشابكت أياديهما وتحدثا أحيانًا، وأحيانًا وتبادلا القبلات، ثم غطا فى النوم. على الفور تقريبًا تحركت بحرية داخل شقته، لأنها كانت قادرة على تقبل حجرة واحدة فى شقة كبيرة فى مجمع سكنى. لقد قررا الزواج فعليًا فى الربيع. ولما الانتظار؟ وقد خُلق كلٌّ منهما للآخر.

هاربيت كانت الكبرى بين ثلاث بنات. حتى سن الثامنة عشرة، حينما غادرت المنزل، لم تكن تدرك إلى أى مدى كانت مدينة لطفولتها؛ فقد كان الطلاق بين الآباء والأمهات واقعًا فى حياة الكثيرات من صديقاتها، مما جعلهن يتخبطن فى حياة طائشة وفوضوية. كان لديهن ميل، كيفما اتفق، للوقوع فى أسر الاضطراب. لم تكن هاربيت مضطربة، ودائمًا كانت تعرف هدفها. فقد أبلت بلاء حسنًا فى المدرسة، ثم دخلت كلية للفنون؛ حيث تخرجت مصممة جرافيك، وهو ما بدا لها أسلوبًا مقبولاً لقضاء وقتها حتى تتزوج. لم تقع أبدًا فريسة القلق جراء قضية أكون أو لا أكون؛ ما إذا كانت امرأة لها مستقبل مهنى أم لا، رغم أنها كانت مؤهلة لمناقشته: لم تكن تحب أن تظهر أكثر تطرفًا مما يجب أن تكون عليه بالفعل. كانت أمها امرأة راضية امتلكت كل شىء أمكنها بشكل منطقى أن تتمناه؛ هكذا بدا لها ولبناتها. والدا

هاربيت كانا على يقين من أن الحياة العائلية هى الأساس لحياة سعيدة.

أما خلفية دافيد فقد كانت مختلفة تمامًا. فقد طلق والداه عندما كان فى السابعة من عمره. كثيرًا ما كان يسخر من أن له طاقمين من الآباء: كان من أولئك الأطفال الذين يملكون غرفة فى منزلين، كل شخص يراعى مشاعره ومشاكله النفسية. لم يكن لدى أولئك الأطفال طباع رديئة أو ضغينة، وإن كان هناك الكثير من عدم الراحة، وعدم السعادة حتى، بمعنى ما، بالنسبة للأطفال. كان زوج أمه، والد دافيد الآخر أكاديميًا ومؤرخًا له منزل كبير رث فى أكسفورد. أحب دافيد هذا الرجل؛ فريدريك بورك، الذى كان طيبًا رغم عزلته. كانت حجرته فى هذا المنزل فى خياله هى بيته الآن، رغم أنه تقريبًا مع هارييت سوف يُقيم بيتًا آخر، هو امتداد وتوسيع لبيته هذا. كان بيته عبارة عن حجرة نوم كبيرة فى خلفية المنزل تطل على حديقة مهملة؛ حجرة رثة مليئة بذكريات صباه، أو بالأحرى حجرة باردة على الطريقة الإنجليزية. تزوج أبوه الحقيقى من واحدة على نفس شاكلته: امرأة مزعجة، عطوفة، وكفء. كانت ساخرة، بروح دعابة يتمتع بها الأثرياء. كان جيمس لوفات صانع قوارب، وعندما وافق دافيد على زيارته، كان مكانه يمكن أن يكون ببساطة سرير مبيت على يخت، أو حجرة، "هذه حجرتك يا دافيد!"، فى فيللا بجنوب فرنسا أو جزر

الهند الغربية(*). لكنه كان يفضل حجرته القديمة فى اكسفورد. كبر ولديه إلحاحٌ حاد على مستقبله: بالنسبة لأطفاله سوف يكون الأمر مختلفًا تمامًا. كان يعرف ما يريد، وطبيعة المرأة التى يحتاج إليها. إذا كانت هارييت قد نظرت إلى مستقبلها بالطريقة القديمة، أن رجلاً سيسلمها مفاتيح مملكتها، وستجد كل شىء تتطلبه طبيعتها باعتباره حقها مثل حق الميلاد، الذى ظلت فى البداية بشكل غير معروف، لكن فيما بعد بشكل محدد جدًا. ترحل فى اتجاهه رافضة كل تشويش أو دراما حوله؛ فإن دافيد قد رأى مستقبله شيئًا عليه أن يعمل على تحقيقه، وحمايته. يجب أن تكون زوجته مثله: امرأة أدركت أين توجد السعادة، وكيف يمكن الحفاظ عليها. كان فى الثلاثين من عمره عندما التقى هارييت، يعمل بالطريقة المنتظمة العنيدة لرجل طموح: لكن ما كان يعمل من أجله بالفعل هو إقامة بيت.

ولعدم إمكانية حصولهما على بيت يرضى المواصفات التى أراداها، ولأن الحياة التى أراداها كانت فى لندن، على أية حال، لم يكونا على يقين أن لندن كانت ما أراداه. كلا، لم تكن، فقد فضلا مدينة صغيرة ذات مناخ خاص بها. قضيا عطلات نهاية الأسبوع فى البحث حول المدن فى حدود مسافة يسهل قطعها يوميًا للقيام بالرحلة من وإلى مكان العمل

(*) جزر الهند الغربية هى مجموعة من الجزر بين الكاريبى والأطلنطى، وتضم جزر الأطلنطى والباهاما (المراجع).

بالقطار فى لندن. وخلال فترة قصيرة وجدا منزلاً كبيرًا على الطراز الفيكتورى وسط حديقة وارفة. رائع! لكنه كان منزلاً شاذًا لزوجين شابين، ذا ثلاثة طوابق، له علية تحت سطح المنزل مباشرة، ملىء بالحجرات والردهات ومهابط للدرج... ملىء بالفراغ الذى سيشغله الأطفال فى الحقيقة.

لكنهما عمدا إلى إنجاب العديد من الأطفال. كلٌ منهما بجرأة، إلى حد ما ونظرًا لكثرة تطلعاتهما فى المستقبل، أعلن أنه "لن يمانع فى إنجاب العديد من الأطفال." قال دافيد، "حتى أربعة، أو خمسة... أو ستة أطفال." وقالت هارييت، "أو ستة،" قالتها وهى تضحك حتى دمعت عيناها. ضحكا معًا، وتقلبا فى السرير، وقبلا بعضهما البعض. كانا مفعمين بالحيوية والحماس والمرح لأن هذا المكان، كما توقعا ورتبا حتى لقبول الرفض أو الوصول لحل وسط، تبين أنه لا خطر منه على الإطلاق. لكن بينما أمكن لهارييت أن تقول لدافيد، وأمكن له أن يقول لها، "ستة أطفال على الأقل،" لم يتمكنا من قول الشىء نفسه لأى شخص آخر. حتى بالرغم من مرتب دافيد المعقول جدًا ومرتب هارييت، فإن قسط شراء هذا المنزل سيفوق إمكاناتهم. لكنهما سيدبران أحوالهما بطريقة ما. ستعمل هى لمدة عامين، وتركب القطار يوميًا مع دافيد إلى لندن، ومن ثم...

عند العصر صار المنزل لهما، ووقفا وأياديهما متشابكة فى الردهة، والطيور تغنى من حولهما فى

الحديقة حيث كانت الأغصان لا تزال سوداء تتلألأ بحبات المطر البارد لبدايات الربيع المبكر. فتحا بوابة منزلهما الأمامية وقلب كل منهما ينبض بالسعادة. وقفا فى حجرة كبيرة جداً فى مواجهة السلالم الرحبة. هناك مالك سابق رأى المنزل تماماً كما رآه كل منهما. هدموا حوائط لتجعل منها حجرة تتسع تقريباً لكل مساحة الدور الأرضى؛ كان نصفها مطبخاً معزولاً عن باقى المساحة بجدار خفيض فقط وضع عليه كتب، والنصف الآخر بمساحة كبيرة للأرائك والمقاعد وامتداد بدون نظام يسمح بالراحة لحجرة عائلية. مرا بلطف ونعومة يتنفسان بصعوبة، ويتضاحكان، ينظر كلاهما للآخر ويضحكان أكثر، ربما لأن عيونهما دمعت من الضحك. وسارا عبر الجنبات العاريات التى ستغطيها السجاجيد عما قريب، ثم ببطء أعلى الدرج حيث قضبان نحاسية قديمة الطراز فى انتظار البسط لتوضع عليه. انحرفا عند مهبط الدرج ملؤهما الإعجاب من اتساع الحجرة الكبيرة، التى ستصبح قلب مملكتهما. صعدا لأعلى. الطابق الأول به حجرة نوم كبيرة واحدة. حجرتهما؛ تنفتح على حجرة أصغر، ستكون مكاناً لكل طفل جديد. فى نفس الطابق أربع حجرات أخريات معقولات. لأعلى هناك درجات سلم واسعة لكن أضيق من سابقاتها، حيث توجد أربع حجرات أخريات، نوافذها مثل غرف الطابق الأول تُظهر أشجاراً وحدائق ومروجاً، وكل ما يتوقع فى ضاحية مبهجة.

فوق هذا الطابق كانت العلية تحت سطح المنزل مباشرة، مكانًا مناسبًا تمامًا للأطفال عندما يبلغون سن الألعاب السحرية السرية. هبطا أسفل الدرج ببطء، مجموعة متصلة من السلالم، مرورًا بحجرات وحجرات، يتخيلانها مليئة بالأطفال، والأقارب، والضيوف، ثم عادوا ثانية إلى حجرة نومهما وقد تُرك بها سرير كبير؛ صنع خصيصًا للزوجين الذين اشتريا منهما المنزل. قال لهما الوكيل العقارى إنهما لكى يخرجوه من الحجرة سوف يعنى تجريد المكان كله من الأثاث، وأن الملاك السابقين، على أية حال، سيذهبون للإقامة خارج البلاد. رقد دافيد وهارييت جنبًا إلى جنب، ونظرا لحجرتهما. كانا هادئين وشعرا برهبة مما سيقدمان عليه. تبدت ظلال من شجرة الليلك وشمس مبللة من ورائها ترتسم على امتداد السقف السنوات التى سيعيشانها فى هذا المنزل. أدارا وجهيهما ناحية النوافذ حيث أظهرت قمة شجرة الليلك براعمها القوية التى ستظهر منها الزهور قريبًا. ثم نظرا لبعضهما البعض وسالت الدموع على خديهما. ومارسا الجنس هناك، على سريرهما. وتقريبًا صرخت هارييت احتجاجًا، "لا، توقف! ماذا نفعل؟ ذلك لأنهما قد اتخذا قررًا بالتخلى عن فكرة إنجاب الأطفال لمدة عامين؟ لكنها كانت مغمورة برغبته. نعم، كان هذا هو الأمر، كان يمارس معها الجنس بقوة عامدًا وبتركيز ناظرًا فى عينيها، وهو ما جعلها تقبل بترو استيلاءه على المستقبل فيها. لم يكن

معها أية موانع للحمل (لم يثق أى منهما بالطبع فى الأقراص) وكانت هى فى ذروة فترة خصوبتها. مارسا الجنس بوقار واتزان مرة، مرتين. ثم فيما بعد عندما صارت الغرفة مظلمة تمامًا مارسا الجنس مرة أخرى.

قالت هارييت، "حسنًا، بصوت خفيض لأنها كانت خائفة وتعمدت عدم إظهار خوفها، "حسنًا، هذا يفى بالغرض، أنا متأكدة."

ضحك، ضحكة صاخبة، طائشة، لم تكن بالضبط ضحكته المتواضعة المرحة والمتسمة بحسن التمييز. الآن، صارت الحجرة مظلمة تمامًا وبدت فسيحة مثل كهف أسود لا نهاية له. خشخش فرع شجرة محدثًا صوتًا مكتومًا عبر جدار فى مكان قريب. كانت هناك رائحة أرض ممطرة باردة مختلطة برائحة الجنس. رقد دافيد مبتسمًا لنفسه، وعندما شعر بنظرتها إليه، أمال رأسه قليلاً ناحيتها واحتوتها ابتسامته. لكن بشروطه؛ كانت عيناه تومضان بأفكار لم تستطع أن تخمنها، وشعرت أنها لم تتعرف عليه... وقالت سريعًا لتكسر السلطان الطاغى له، دافيد، لكنه احكم طوق ذراعيه حولها، وأمسك ذراعها من أعلى بيد لم تكن تصدق أنها قوية لهذا الحد وشديدة بدرجة لافتة، كانت يداه تقولان، "ابقى هادئة."

ناما معًا هناك، بينما عاودهما الشعور بالألفة، وصارا قادرين على أن يتحولا لبعضهما البعض، ويتبادلا بعض قبلات نهارية سريعة تبعث على

الطمأنينة. استيقظا وارتديا ثيابهما فى الظلام البارد: لم تكن الكهرباء قد تم توصيلها بعد. وبهدوء نزلا أسفل درج منزلهما حيث أشبعا رغباتهما تمامًا، ودخلا حجرة العائلة الكبيرة وتركا أنفسهما ينطلقان إلى الحديقة التى كانت غامضة ومختبئة منهما، ولم تصبح بعد لهما.

قالت هارييت بمرح، بمجرد أن دخلا سيارته للعودة إلى لندن، "حسنًا، كيف سنتمكن من دفع إيجار كل هذا إذا ما صرت حاملاً؟ وبشكل أكثر دقة: كيف كنا سندفع الإيجار؟"

صارت هارييت فى الواقع حاملاً فى تلك الليلة الممطرة فى حجرة نومهما. شعرا بالعديد من اللحظات السيئة بالتفكير فى ضآلة مواردهما وفى ضعفهما الإنسانى الذاتى، لأنه فى مثل هذه الأوقات، عندما لا يكون الدعم المالى كافيًا، يصير الأمر كما لو كنا نحاكم: وبدت هارييت وبدا دافيد من الضآلة أمام نفسهما، بحيث لا يملكان شيئًا يمكنهما التشبث به، سوى معتقدات عنيدة عادة ما حكم عليها الآخرون بأنها خطأ عقلى.

لم يأخذ دافيد مالاً أبدًا من أبيه وزوجة أبيه الميسورين، اللذين تحملا تكلفة تعليمه؛ لكن هذا كان كل شىء. كما تحملا تكلفة تعليم أخته "ديبورا"؛ لكنها فضلت أسلوب أبيها فى الحياة، كما فضل هو أسلوب حياة أمها، ولهذا فإنهما لم ينعما عادةً بأى مستوى من

التوافق، وبدت الاختلافات بين الأخ وأخته عنده مختزلة فى ذلك - أنها اختارت الحياة الأكثر ثراء. لم يكن لديه رغبة فى طلب مال الآن؛ فأبواه الإنجليزيان، كما كان يعتقد فى أمه وزوجها، لديهما القليل من المال لكونهما زوجًا من الأكاديميين غير الطموحيّن.

فى عصر ذات يوم جلس هؤلاء الأربعة - دافيد وهارييت، ومولى، أم دافيد مع فريدريك - فى حجرة العائلة بالقرب من الدرج، وقاموا بتفقد المملكة الجديدة.

كان هناك حتى الآن مائدة كبيرة جدًا فى آخر المطبخ يمكنها استيعاب من ١٥ إلى ٢٠ فردًا بسهولة، وزوجين من الأرائك الفسيحة، وبعض مقاعد لها أذرع واسعة اشتريت من مزاد محلى. وقف دافيد وهارييت معًا يشعران بأنفسهما وقد أمعنا فى التطرف بصورة منافية للعقل، وضئيلين للغاية فى مواجهة هذين العجوزين، اللذين حكما عليهما. كانت مولى وفريدريك ضخمى الجسم غير ممتلئين، لديهما الكثير من الشعر الرمادى، يرتديان ملابس مريحة لا تعبأ بالموضة. بدا كلاهما مثل كومة من القش جبلا على حب الخير، لكنهم لم يكونا ينظران لبعضهما البعض بالطريقة التى يعرفها دافيد جيدًا.

"حسنًا، إذًا،" قالها دافيد بمرح وهو عاجز عن تحمل التيار، يمكنكم قولها! وأحاط هارييت بذراعيه، التى كانت شاحبة واقعة تحت ضغط بسبب شعور

الغثيان الصباحى، وأنها قضت أسبوعًا بأكمله تنظف الأرضيات وتغسل النوافذ.

استفسر فريدريك بشكل منطقى عازفًا عن أن يصدر حكمًا ما، "هل تنويان إدارة فندق؟"

وسألت مولى مع ضحكة قصيرة تعنى أنه لا معنى للاعتراض، "كم عدد الأطفال الذين تنويان إنجابهم؟"

قال دافيد بنعومة، "الكثير."

وقالت هارييت، "نعم.". "نعم." لم تدرك كما لم يدرك دافيد إلى أى مدى كان هذان الأبوان متضايقين. مثل كل من على شاكلتهما، فى مظهر من عدم الانسجام، كانا هادفين، وفى الحقيقة يمثلان جوهر العرف، ولم يحبا أى مظهر من مظاهر روح المبالغة والإفراط. كان هذا المنزل كذلك.

وقالت والدة دافيد: "بالله عليكم، سنقدم لكم العشاء إذا كان هناك فندق لائق فى الجوار."

أثناء العشاء نوقش أشخاص آخرون حتى طرحت مولى أثناء تناول القهوة ملاحظة، "أنتم مدركون أنه سيتوجب عليكم طلب المساعدة من أبيكم؟"

بدا أن دافيد يجفل ويعانى، لكن كان عليه أن يواجه الأمر: كان المهم فى المسألة المنزل، والحياة التى ستعاش فيه. حياة ـ أدرك الأبوان ذلك بسبب هيئته التى تفصح عن نية مبيتة، والتى حكما عليها أنها

مفعمة باعتداد الشباب بنفسه ـ سوف تمحو، وتغفر، وتلغى كل النقائص فى حياتهما، حياة مولى وفريدريك؛ وفى حياة جيمس وجيسيكا كذلك.

ما إن ابتعدا عن بعضهما فى مرأب السيارات المظلم للفندق حتى قال فريدريك: فيما يخصنى انا، ـ أنتما الأثنين ـ بالأحرى مجنونان، حسنًا، أنتما تخطئان التفكير.

وقالت مولى: "نعم، إنكما لم تفكرا فى الأمر لاحقًا. الأطفال... لا يوجد أحد لم يكن لديه أطفال يدرك ما يقوم به من أفعال."

عندئذ ضحك دافيد وأوضح نقطة، قديمة، أدركتها مولى وواجهتها بضحكة واعية.

قال دافيد، "أنت لا علاقة لك بالأمومة، فهو أمر ليس فى طبيعتك، لكن هارييت لها طبيعة أم."

قالت مولى: "حسنًا جدًا، إنها حياتكما." واتصلت تليفونيًا بجيمس، زوجها الأول الذى كان على متن يخت بالقرب من "أيزل" فى "وايت"، وانتهت المحادثة بالقول،"اعتقد أنكم يجب أن تحضروا وتشاهدوا بانفسكم."

فقال جيمس، "حسنًا سوف أفعل، موافقًا بنفس القدر على ما لم يقال بأكثر مما قيل: صعوبة أن يحافظ على العلاقة مع زوجته، وينسجم مع لغتها غير المنطوقة، التى كانت السبب الرئيسى فى سعادته بتركها.

توًا بعد هذا الحوار وقف دافيد وهاربيت مر أخرى مع والدى دافيد ـ الزوج الثانى منهم ـ يتأملار المنزل، هذه المرة من الخارج. وقفت جيسيكا وسط المرج الأخضر وهو لا يزال مغطى بالأطلال الخشبية للشتاء، والربيع المحمل بالرياح، وتفحصوا المنزل بعناية. بالنسبة لها كان منزلاً كئيبًا بلا ذوق مثل إنجلترا. كانت جيسيكا فى نفس عمر مولى، وإن بدت أصغر بعشرين عامًا، كونها بنية البشرة نحيفة، تكاد تتلألأ بزيت الشمس حتى عندما لا يكون جلدها مدهونًا به، وبشعرها الأصفر القصير اللامع، وثيابها الزاهية، وقد دفعت بكعبيها فى حذائها الأخضر المتآكل فى المرج، ونظرت إلى زوجها جيمس.

كان قد تفحص المنزل بالفعل، والآن قال، كما توقع دافيد " إنه استثمار جيد."

وأجاب دافيد، "نعم."

إنه ليس مبالغًا فى سعره. افترض أن ذلك لأنه أكبر من اللازم بالنسبة لمعظم الناس. إننى أقر بأن تقرير مساح العقارات كان ملائمًا؟"

أجاب دافيد، "نعم."

"فى هذه الحالة، سوف أتحمل مسئولية قيمة الرهن العقارى. كم يتطلب من الوقت لدفع ثمنه؟

قال دافيد، "ثلاثون عامًا."

أتوقع أن أكون ميتًا عندها. حسنًا لم أعطك الكثير كهدية زفاف.

قالت جيسيكا، عليك أن تفعل الشئ ذاته مع ديبورا."

قال جيمس، لقد قمنا بما هو أكثر بكثير لديبورا عما قمنا به من أجل دافيد. على أية حال يمكننا تحمل تكلفة المنزل.

ضحكت وهزت كتفيها استهجانًا: كان أغلب هذا من مالها هى، وقد ميزت هذه السهولة فى الإنفاق حياتهم معًا، التى خبرها ورفضها دافيد بحماس مفضلاً البخل الشديد فى منزل أكسفورد. رغم أنه لم ينطق بهذه الكلمة بصوت مسموع أبدًا. كانت حياة الأغنياء حياة مبهرجة شديدة السهولة؛ لكنه الآن سيصبح مدينًا بالفضل لتلك الحياة.

واستفسرت جيسيكا، كم من الأطفال تخططان لإنجابهم؟ إذا جاز لى أن أسأل، وهى تنظر مثل ببغاء صغير هزيل حط على العشب الرطب.

قال دافيد، "الكثير."

وقالت هارييت، "الكثير."

فقالت جيسيكا، أنتما اللذان تفضلان ذلك، لا انا،" وبهذا ترك آباء دافيد الآخرون الحديقة، ثم غادروا إنجلترا مع شعور بالارتياح.

الآن دخلت "دوروثى" والدة هارييت هذا المشهد، ولم يخطر ببال هارييت ولا دافيد مجرد القول، "يا إلهى، كم هو بشع أن يجد المرء أمه حوله طوال

الوقت، " وتلا ذلك أن كان على دوروثى الحضور على نحو غير محدد لمساعدة هارييت، فى الوقت الذى تلح فيه على أن لها حياة خاصة عليها العودة إليها. كانت دوروثى أرملة، كانت حياتها الخاصة تلك فى معظمها مكرسة لزيارة بناتها. وقد بيع بيت العائلة، وصار لديها شقة صغيرة ليست باللطيفة، لكن دوروثى لم تكن من النوع الذى يشتكى. وعندما انبهرت بحجم وإمكانات المنزل الجديد كانت أكثر صمتًا من المألوف عنها لعدة أيام. فهى لم تجد من السهل أن تنجب ثلاث بنات، وكان زوجها رجل صناعة كيميائى يتقاضى أجرًا لا بأس به، ومع ذلك لم يكن لديهما أبدًا وفرة فى المال. كانت تعلم تكلفة عائلة، حتى ولو كانت صغيرة من جميع النواحى.

حاولت أن تبدى بعض الملاحظات حول هذه الأمور ذات مساء أثناء تناولهم العشاء؛ دافيد وهارييت ودوروثى. كان دافيد قد عاد لتوه من العمل متأخرًا: فقد تأخر القطار... لم تكن الرحلات اليومية بالقطار ممتعة إلى حد كبير، لكنها كانت ستصير أسوأ ما فى الأمر فيما بعد لكل الناس، لكن بشكل خاص، بالطبع، بالنسبة لدافيد لأنها تستغرق تقريبًا ساعتين، مرتين يوميًا للذهاب للعمل والعودة منه. ولسوف يكون هذا إحدى مساهماته فى تحقيق الحلم.

كان المطبخ بالقرب مما يجب أن يكون قريبًا منه بالفعل: المائدة الكبيرة بمقاعد خشبية ثقيلة حولها.

أربعة فقط الآن، لكن هناك المزيد منها مرصوصون في صف واحد على امتداد الحائط، في انتظار الضيوف والأشخاص الذين لم يولدوا بعد. كان هناك فرن ريفي كبير، ودولاب عتيق الطراز به أكواب، وأكواب لها يد معلقة على خطافات، وكانت الزهريات مليئة بالزهور من الحديقة، حيث أثمر الصيف وفرة من الورود وزهور الليلك. كانوا يأكلون السجق الإنجليزى التقليدى الذى أعدته دوروثى؛ وفى الخارج كان الخريف يمهد لنفسه فى صورة أوراق الأشجار الطائرة التى ترتطم أحيانًا بزجاج النوافذ محدثة أصوات مكتومة وضجة مدوية، وفى صورة الرياح المتصاعدة بينما كانت الستائر الدافئة ذات الزهور السميكة مسدلة.

قالت دوروثى، "أتدرون، كنت أفكر فيكم أنتما - الاثنين - "وضع دافيد ملعقته على المائدة لينصت كما لم يفعل أبدًا مع أمه الروحية - الساذجة أو أبيه المادى الحريص.

"لا أعتقد أنكما مجبران على الاندفاع فى كل شىء - لا، دعونى أقول كلمتى، هاربيت عمرها أربعة وعشرين عامًا فقط - لم تبلغ بعد الخامسة والعشرين؛ وأنت يا دافيد عمرك ثلاثون عامًا بالتمام فقط. أنتما أسيران وكأنكما تؤمنان بأنكم لو لم تقبضا على كل شىء فسوف تفقدانه. حسنًا، هذا هو الانطباع الذى وصلنى بالاستماع إلى حديثكما."

كان دافيد وهارييت يُنصتان: والتقت عيونهما مشاكسة متأملة لما يقال. دوروثى، هذه المرأة ضخمة الجسد الذى يشى بالصحة، الحكيمة منزلية الطابع بأسلوبها القاطع البات، وطرقها المعتبرة، لم يكن ممكنًا تجاهلها؛ فهما يدركان الواجب عليهما تجاهها.

قالت هارييت، "إننى أشعر بذلك فعلاً."

"نعم، يا فتاة أعرف، كنتما تتحدثان بالأمس عن إنجاب طفل آخر على الفور. فى رأيى سوف تندمان على ذلك.

قال دافيد العنيد، "كل شىء عرضة للزوال التام."

بشاعة هذا أنه قد جاء من أعماقه، كما أدركت السيدتان، لم تخفف من أثره الأخبار التى تتفجر من الراديو؛ أخبار سيئة من كل مكان: لا شىء عما ستصير إليه الأحوال، لكنها أخبار منذرة بالشر بشكل كاف.

قالت دوروثى، "فكر فى الأمر، أتمنى لو أنك فعلت، أحيانًا يصيبنى الرعب منكما ـ أنتما الاثنين ـ ولا أعرف على وجه الدقة لماذا."

قالت هارييت بعنف، "ربما كان علينا أن نولد فى بلد آخر. هل تعلمين أن إنجاب ستة أطفال فى جزء آخر من العالم، يعد شيئًا عاديًا، ليس فيه ما يصدم الآخرين؛ فأولئك الناس هناك لا يُفرض عليهم الشعور بأنهم مذنبون."

وقال دافيد، "إنما نحن الشواذ هنا فى أوروبا."

قالت دوروثى، "أنا لا أعرف شيئًا عن ذلك،" بنفس عناد أى منهما. لكن إذا كان لديكما ستة ـ أو ثمانية أو عشرة أطفال ـ لا، أنا أعرف فيما تفكران؛ أنا أعرفك يا هارييت، أليس كذلك؟ ـ وإذا كنتما فى مكان آخر مثل مصر أو الهند أو فى مكان آخر ما، عندئذ فإن نصف هؤلاء الأطفال سيموتون، وحتى لن يتعلموا. أنتما تريدان الأشياء فى اتجاهين؛ الأرستقراطية ـ نعم يمكنهم أن ينجبوا كالأرانب، ويمكن توقع هذا منهما، لكن أولئك لديهم المال لذلك... ويمكن للفقراء أن ينجبوا أطفالاً يموت نصفهم، وهو ما يتوقع حدوثه... لكن الناس أمثالنا، فى الوسط بين هذا وذاك، يجب أن نكون حذرين بخصوص الأطفال الذين ننجبهم حتى يمكننا الاعتناء بهم. يبدو لى أنكما لم تقبلا الأمر من جميع وجوهه، ولم تمعنا التفكير جيدًا... لا، سوف أذهب لأعد القهوة، وأنتما اذهبا واجلسا معًا.

ذهب دافيد وهارييت عبر الكوة الواسعة فى الحائط التى تميز المطبخ إلى الأريكة فى حجرة المعيشة، حيث جلسا وأياديهما متشابكة؛ رجل نحيف، وعنيد، ومشوش بعض الشىء، وامرأة ضخمة، مليئة بالحيوية والنشاط، وتتحرك بطريقة خرقاء. كانت هارييت حاملاً فى شهرها الثامن، لم تمرض كثيراً حتى الآن، وتنام نومًا غير مريح بسبب سوء الهضم،

وقالت يائسة من نفسها، "سوف أقوم بالتنظيف . لا، اجلس أنت هناك فقط،" وعادت إلى المغسلة.

ثم أردفت هارييت مستاءة، "لكن هذا هو ما أشعر به."

"نعم."

"يجب أن ننجب أطفالاً عندما نستطيع ذلك."

قالت دوروثى التى كانت واقفة بجوار المغسلة، فو بداية الحرب العالمية الأخيرة كان الناس يقولون إنه من قبيل عدم الشعور بالمسئولية أن ينجبوا أطفالاً، لكننا أنجبنا أطفالاً، ألم نفعل؟ " وضحكت.

قال دافيد، "ها أنت تقرين بالأمر." فقالت دوروثى، "واحتفظنا بهم."

قالت هارييت، "حسنًا، ها أنا هنا يقينًا."

ولد الطفل الأول "لوك" فى السرير الكبير، تحت رعاية القابلة، فى معظم الأحيان فى وجود د. "بريت". أمسك دافيد ودوروثى بيدى هارييت وهى راقدة فى سريرها. مر الأمر دون القول بأن الطبيب أراد أن تلد هارييت فى المستشفى، فقد كانت عنيدة، ولم يوافق على عنادها.

كان ميلاد "لوك" فى مساء بارد عاصف الريح، بعد الكريسماس بالضبط، وكانت الحجرة دافئة رائعة. وبكى دافيد. وبكت دوروثى. وضحكت هارييت ثم بكت. وتنسمت القابلة والطبيب القليل من نسائم

الاحتفال والنصر، وشربوا جميعًا الشمبانيا؛ وسكبوا بعضًا منها على رأس لوك الصغير. كان ذلك عام ١٩٦٦.

كان لوك طفلاً سلسلاً ينام بهدوء تام فى الغرفة الصغيرة الملحقة بغرفة النوم الرئيسية، ورضع رضاعة طبيعية برضا. وسعادة! فى الصباح عندما انطلق دافيد ليلحق بقطاره إلى لندن، بينما هارييت جالسة فى السرير تُرضع وليدها، وتشرب الشاى الذى جلبه لها دافيد، وعندما انحنى ليقبلها مودعًا، ويمسد على رأس لوك، تملكه شعور قوى بالاستحواذ لأن هارييت احبته وفهمته، ذلك أنها لم يكن بها مس من الشيطان ولا الطفل، لكنها السعادة... سعادتها وسعادته.

كان عيد الفصح فى ذلك العام أول الحفلات العائلية. كانت الغرف قد فرشت بالأثاث على نحو ملائم وإن كان مرسومًا، وازدحم المنزل بأخوات هارييت؛ سارة وأنجيلا، وزوجيهما وأطفالهما، ودوروثى فى محيطها المناسب، وبشكل مختصر كان هناك مولى وفريدريك، اللذان قررا أنهما يستمتعان بانفسهما لكن الحياة العائلية على هذا المستوى لم تكن ملائمة لهما.

كان خبراء المسرح الإنجليزى يدركون الآن أن النظام الطبقى الإنجليزى كان على المحك القياسى بقوة فى هذا المشهد، وإن لم يكن مسجلاً فى أى مكان، أن هارييت كانت طبقيًا أدنى من دافيد. خلال

خمس ثوان إذا التقى أى من عائلة "لوفات" أو عائلة "بوركى" مع عائلة "والكر" يمكنك أن تلاحظ هذه الحقيقة دون تعليق عليها - حرفيًا على الأقل. لم يندهش آل "والكر" من أن فريدريك ومولى قالا إنهما سيكونا هناك ليومين فقط؛ لا لأنهما غيرا رأيهما عندما حضر جيمس لوفات؛ فمثل العديد من الأزواج والزوجات الذين اضطروا للانفصال نتيجة عدم التوافق، تمتع مولى وجيمس باللقاء عندما أدركا أنهما يجب أن ينفصلا قريبًا. فى الحقيقة استمتع الجميع وهم متفقون على أن المنزل أعد لذلك. جلس الناس حول مائدة العائلة الكبيرة، حيث يمكن استيعاب العديد والعديد من المقاعد بشكل مريح، وهم يتناولون وجبات لذيذة طويلة، أو وجدوا سبيلهم بين الوجبات لشرب الشاى والقهوة، والحديث. والضحك..مستمعين للضحكات، والأصوات، والأحاديث، وأصوات الأطفال يلعبون، بينما هارييت ودافيد فى حجرتهم، وربما نزلا أسفل الدرج وأياديهما تتواصل مع بعضهما البعض، يبتسمان ويتنفسان السعادة. ولم يعلم أحد ولا حتى دوروثى - بالتأكيد لم تعلم دوروثى - أن هارييت حامل مرة أخرى. كان عمر لوك ثلاثة شهور، ولم يتعمدا أن تحمل - ليس قبل عام آخر، لكن هذا ما كان. قال دافيد ضاحكًا، "هناك شىء ما يحث على الإنجاب فى هذه الحجرة، أقسم على ذلك." واتفقا على الشعور بالذنب. رقدا فى سريرهم، منصتين إلى لوك يصدر أصواته الطفولية

فى الحجرة المجاورة، وقررا ألا ينطقا بكلمة واحدة حتى يغادر كل فرد من العائلة.

وعندما أخبروا دوروثى، كانت مرة أخرى أكثر صمتًا ثم قالت، "حسنًا، ستحتاجان إلىّ، أليس كذلك؟" كانا يحتاجانها بالفعل. كان هذا الحمل، مثل الآخر، طبيعيًا، لكن هارييت كانت متعبة ومريضة، وفكرت بينها وبين نفسها أنها بينما لم تغير رأيها إطلاقًا حول إنجاب ستة (أو ثمانية أو عشرة) أطفال، لسوف تتأكد تمامًا من أن هناك فترة معقولة بين هذا الطفل والطفل القادم.

ولبقية العام كانت دوروثى موجودة بالمنزل تغمرها السعادة، وساعدت فى رعاية لوك، وفى إعداد الستائر للحجرات فى الطابق الثالث.

كانت هارييت، فى ذلك الكريسماس ممتلئة مرة أخرى؛ فى شهرها الثامن، وسخرت من نفسها لحجمها، وعدم قدرتها على التحكم فى نفسها. كان المنزل ممتلئًا، فقد أتى كل من كانوا هنا فى عيد الفصح ثانية. وأعلن أن هارييت ودافيد لديهما هدية لمثل هذه المناسبات. فقد حضرت ابنة عم لها مع أطفالها الثلاثة؛ لأنها سمعت عن حفل عيد الفصح الرائع الذى استمر على مدى أسبوع. وحضر زميل دراسة لدافيد مع زوجته. احتفلوا بهذا الكريسماس على مدى عشرة أيام كاملة، وتبع العيد عيد آخر. كان لوك فى عربة الأطفال الخاصة به أسفل الدرج، وأثار

كل واحد من الحاضرين الجلبة حوله، وحمله الأطفال الأكبر، وداروا به كدمية. باختصار حضرت "ديبورا" أخت دافيد أيضًا، وهى فتاة هادئة وجذابة يمكن بسهولة أن تكون ابنة لجيسيكا لا ابنة لمولى. لم تكن متزوجة، رغم أنها كان لها العديد مما وصفته تقريبًا بالإخفاقات فى العلاقات العاطفية. فى النمط العام كانت مبتعدة عن الناس فى المنزل إلى حد بعيد، فكلهم من الأنماط الإنجليزية الأساسية - كلما قرنوا أنفسهم بأنهم أقرباء لهم - كون تلك الاختلافات صارت نكتة شائعة تدور بين الجميع. عاشت ديبورا دائمًا حياة الأغنياء، ووجدت فى منزل أمها الرث الذى يميل إلى الفقر مبعثًا لسخطها، وكرهت كون الناس محشورين هنا معًا، لكنها سلمت أنها وجدت هذه الحفلة مثيرة فعلاً.

بداية، كان هناك اثنا عشر بالغًا وعشرة أطفال، كما حضر الجيران الذين دعوا، لكن شعور التئام شمل العائلة كان قويًا حتى أنه استبعدهم، وابتهج كل من هارييت ودافيد ابتهاجًا شديدًا، لأن عنادهما، الذى انتقده الجميع وسخروا منه، نجح فى تحقيق المعجزة: استطاعا أن يوحدا هؤلاء الأفراد المختلفين، وأن يمكنوهم من الاستمتاع ببعضهم البعض بحق.

ولدت الطفلة الثانية "هيلين"، مثل لوك، على سرير العائلة، فى وجود كل الناس ذاتهم، ومرة أخرى قاموا بمسح رأس المولود بالشمبانيا، وذرف الجميع

الدمع فرحًا. طُرد لوك من حجرة الأطفال إلى الحجرة التالية أسفل الرواق، واستحوذت هيلين على مكانه.

ورغم أن هارييت كانت متعبة، فى الحقيقة مستهلكة، أقيم حفل عيد الفصح فى المنزل. كانت دوروثى تعارض إقامة الحفل، وقالت، "أنا متعبة يا فتاة، وأنت متعبة الجسد بالية العظام." ثم عندما رأت وجه هارييت: حسنًا، أنا موافقة، لكن عليك ألا تشغلى بالك بأى شىء."

تولت أختاها ودوروثى مسئولية المشتريات والطبخ والعمل الشاق.

كان المخلوقان الصغيران، هيلين ولوك فى الطابق الأرضى بين الناس. لأن المنزل صار ممتلئًا عن آخره مرة أخرى. بكل شعرهم الجميل الناعم والعيون الزرقاء والخدود الوردية. لوك يتهادى هنا وهناك بمساعدة كل واحد من الحاضرين، وهيلين فى عربتها.

فى ذلك الصيف، صيف ١٩٦٨. كان المنزل ممتلئًا حتى العلية أسفل سطح المنزل تقريبًا بكل أفراد العائلة.

كان المنزل مناسبًا تمامًا للندن: حيث يسافر الناس مع دافيد أثناء النهار ويعودون معه. وكانت هناك منطقة ريفية جيدة للتمشية على بعد ٢٠ دقيقة بالسيارة.

حضر الناس وذهبوا، وقالوا إنهم سيأتون ليومين، وبقوا أسبوعًا.

لكن كيف كان يتم دفع ثمن هذا كله؟ حسنًا، بالطبع كل فرد ساهم؛ بالطبع، لم يكن هذا كافيًا، لكن الجميع كان يعرف أن والد دافيد من الأغنياء... فدون دفع تلك الأقساط للمنزل، لم يكن أى من هذا قد حدث، فقد كان هناك عجز دائم فى الأموال، وتم عمل الحسابات الاقتصادية: تم شراء ثلاجة فنادق ضخمة مستعملة، وملئت بفواكه وخضراوات الصيف وخزنت فيها.

وقامت دوروثى وسارة وأنجيلا بوضع عصير الفواكه والمربى وصلصة الثمار والتوابل فى زجاجات، كما خبزوا الخبز، وفاحت رائحة الخبز الطازج فى كل المنزل. كانت هذه هى السعادة على الطراز القديم.

رغم ذلك، كانت هناك غيمة حزن. كانت سارة وزوجها ويليام يعيشان زواجًا تعيسًا، وتشاجرا وقررا الانفصال، لكنها كانت حاملاً فى طفلها الرابع ولم يكن الطلاق ممكنًا.

أتى الكريسماس، كاحتفال رائع كما كان، وذهب. ثم عيد الفصح... أحيانًا كان عليهم جميعًا أن يتساءلوا أين كان كل واحد منهم يجد لنفسه مكانًا فى المنزل.

كانت الغيمة التى ألقت بكآبتها على السعادة المحلقة للعائلة، أن خلاف سارة وويليام اختفى لأنه

استغرق فى الأسوأ. كان طفل سارة الجديد طفلاً منغوليًا يعانى من متلازمة داون(*)؛ ولم يعد هناك شك فى انفصالهما، ولاحظت دوروثى أحيانًا أنه من المثير للشفقة أن ابنتيها لم تكونا حاضرتين، فقد احتاجتها سارة بنفس القدر بل وأكثر من حاجة هارييت إليها. فى الواقع كانت تنطلق لزيارتها، وكانت تجدها حزينة بينما لم تكن هارييت كذلك.

ولدت "جين" عام ١٩٧٠ عندما كانت هيلين فى عامها الثانى، حيث وبختها دوروثى بسرعة شديدة جدًا، ما الداعى للعجلة؟

انتقلت هيلين إلى حجرة لوك، وانتقل لوك إلى حجرة أخرى، وأطلقت جين أصواتها السعيدة فى حجرة الأطفال، بينما الطفلان الصغيران كانا يأتيان إلى سرير العائلة الكبير، يتعانقان ويلعبان ألعابهما أو يزوران دوروثى فى سريرها ويلعبان هناك.

السعادة. عائلة سعيدة. كانت عائلة لوفات عائلة سعيدة. كان هذا ما اختاروه، وهو ما استحقوه.عادة، عندما كان دافيد وهارييت يرقدان وجهًا لوجه يشعران بأن الأبواب قد انفتحت فى صدورهم، وما خرج كان قوة الشعور بالراحة والحمد، الذى كان لا يزال يدهش كليهما: صبرهم على ما بدا الآن وقتًا طويلاً للغاية لم يمض بسهولة فى نهاية المطاف. كان

(*) متلازمة داون عبارة عن خلل جينى يحدث نتيجة اختلال فى أحد الجينات ويؤدى إلى إصابة الأطفال بمشاكل فى القلب وربما فى الجسم كله بدرجات متباينة (المراجع).

صعبًا عليهم الحفاظ على إيمانهما بأنفسهما عندما كانت روح العصر، فى الستينيات الجشعة والأنانية قادرة على إدانتهما وعزلهما، والتقليل من أفضل ما يملكون فى ذاتهما. انظر، كانا على حق فى إصرارهما على حماية فرديتهما العنيدة التى يملكانها، والتى اختارت الأفضل وبعناد شديد؛ هذا.

خارج هذا المكان المحظوظ، كانت عائلتهما تُضرب بقوة واستمرار عواصف العالم . ذهبت الأوقات السهلة الطيبة بكل معنى الكلمة، وأصيبت شركة دافيد، ولم يمنح العلاوة التى توقعها؛ لكن فى ذات الوقت فقد آخرون وظائفهم، وكان محظوظًا ببقائه. طُرد زوج سارة من عمله. وسخرت سارة بكآبة من أنها هى وويليام قد اجتذبا كل هذا الحظ التعس من بين زمرة العائلة.

وقالت هاربيت لدافيد على انفراد أنها لم تكن لتؤمن بأنه كان حظًا سيئًا: فسارة وويليام تعيسان ويتشاجران، ربما هذا ما اجتذب الطفل المنغولى؛ نعم، نعم، بالطبع هى تدرك أنه لا يجب وصف هؤلاء الأطفال بالمنغوليين، لكن البنت الصغيرة بدت بالفعل شبيهة بجانكيز خان، أليس كذلك؟ طفل جانكيز خان بوجهها الصغير المفلطح وعينيها الضيقتين؟ لم يعجب دافيد بعادة هاربيت تلك، وهى الجبرية أو الإيمان بالقضاء والقدر، والتى بدت من الغرائب بالنظر لبقية صفاتها، وقال إنه اعتقد فى أن هذا تفكيرًا هيستيريًا

وسخيفًا: تجهم وجه هاربيت، وكان عليهما أن يتصالحا.

تغيرت البلدة الصغيرة التى عاشا فيها خلال السنوات الخمس التى قضوها هناك، فقد صارت الآن مسرحًا للأحداث الوحشية والجرائم، التى كانت صادمة لكل امرئ إذا ما حدثت، أمورًا شائعة؛ عصابات من الشباب تتسكع حول مقاهى بعينها وحول نواصى الشوارع لا يبدون احترامًا لأحد كان. وتم السطو على المنزل المجاور لمنزلهم ثلاث مرات: لم يحدث هذا لمنزل لوفات بعد لكن صار هناك الآن أناس يتسكعون حوله. فى نهاية الطريق إلى المنزل كان هناك كابينة تليفون، تحطمت مرات ومرات، واستسلمت السلطات للأمر الواقع فظل التليفون معطلاً. ولم تكن هاربيت لتحلم فى هذه الأيام بالتنزه ليلاً وحدها، أو أن تذهب لأى مكان تشعر فيه بالسعادة، ليلاً أو نهارًا لمجرد أن شيئًا لم يحدث لها. كان هناك إطار قبيح للأحداث: فقد بدا أكثر فأكثر أن نوعين من البشر عاشا فى إنجلترا لا نوع واحد، أعداء يكرهون بعضهم البعض، لا يمكن لأحدهم سماع ما يقوله الآخر. وعكف شباب عائلة لوفات على قراءة الجرائد ومشاهدة التليفزيون، رغم أن غريزتهم وطبعهم كانت ضد كلا الأمرين. على الأقل، يجب عليهم معرفة ما يجرى خارج حصنهم: مملكتهم، حيث يقومون برعاية ثلاثة أطفال رائعين لا يقدرون بثمن، وحيث حضر العديد والعديد من أفراد العائلة، ليغمروا أنفسهم بالشعور بالأمان، والراحة، والكرم.

ولد الطفل الرابع "بول" عام ١٩٧٣ فى الفترة الزمنية ما بين حفل للكريسماس وحفل لعيد الفصح. لم تكن هارييت على ما يرام بالضبط: فحملها المتكرر استمر غير مريح ومليء بالمشاكل البسيطة - لم يكن هناك ما هو خطير، لكنها كانت متعبة بحق.

كانت احتفالات عيد الفصح الأفضل على الإطلاق: كان عام ١٩٧٣ أفضل أعوامهما على الإطلاق، وفيما بعد لو نظرنا للماضى قليلاً، بدا أن العام باكمله كان عامًا للاحتفالات المتجددة بربيع الضيافة المحبة التى كان حراسها والقائمون عليها دافيد وهارييت، حيث بدأ العام فى الكريسماس، عندما كانت هارييت فى ذروة حملها، كل واحد من الحاضرين يرعاها، ويشارك فى العمل لابتكار وجبات رائعة، وانخرطوا جميعًا فى الاستعداد لاستقبال الطفل القادم... علمًا بأن عيد الفصح كان على الأبواب، يليه الصيف الطويل، ثم الكريسماس مرة أخرى...

استمر الاحتفال بعيد الفصح لثلاثة أسابيع، طوال فترة إجازات المدارس، وكان المنزل محشورًا بأفراد العائلة.

كان لكل واحد من الأطفال الصغار حجرته الخاصة، لكنهم انتقلوا معًا للإقامة فى حجرة واحدة عندما احتاجوا لأسرة تستوعب الضيوف. وهو أمر أثار بالطبع الإعجاب الشديد. "لماذا لا تجعلونهم

يتلامون معًا بشكل دائم،" هكذا طالبت دوروثى والآخرون. "حجرة لكل واحد من هذه الكائنات الصغيرة!"

قال دافيد بحماس، "هذا مهم. كل واحد منهم يجب أن يكون له حجرته."

تبادل أفراد العائلة الغمز، كما تفعل العائلات عندما يقطع أصل الشجرة بعد قطع جذعها من نتوء داخل أحدهم: وقالت مولى أيضًا، التى شعرت بنفسها أنها محل تقدير منهم لكنها كانت ناقدة بشكل مراوغ، "كل واحد فى العالم! كل واحد!" وكانت تقصد أن تبدو مداعبة.

كان هذا المشهد فى الصباح، أو على وجه الدقة فى منتصف فترة الصباح، فى حجرة العائلة؛ حيث استمر الإفطار إلى ما لا نهاية. ظل كل البالغين حول المائدة، خمسة عشر منهم، بينما ظل الأطفال يلعبون حول الأرائك والمقاعد فى منطقة حجرة المعيشة. جلست مولى وفريدريك جنبًا إلى جنب كالعادة، محافظين على هواء يسمح لهم بالحكم على كل شىء من منظور أهل أكسفورد، الذى من أجله تتم إغاظتهم عادة هنا، لكن لم يبد أنهم يلقون بالا لذلك، وكانوا مرحين فى موقفهم الدفاعى. كتبت مولى مرة أخرى رسالة إلى والد دافيد "جيمس" قالت فيه إنه يجب أن يدفع مالاً أكثر؛ فالزوجان الشابان ببساطة لم يعودا قادرين على إطعام "أنكل تومبلاى" والجميع. وأرسل

شيكًا بمبلغ سخى، ثم حضر بنفسه، وجلس فى مواجهة زوجته السابقة وزوجها؛ وكالعادة لوحظ أن هذين النوعين من البشر يختبران بعضهما البعض، ويتباهيان بأنهما يستطيعان دائمًا أن يلتقيا معًا، وبدا أنه مهيأ تمامًا لمناسبة رياضية ما: انطلق فى الواقع للتزلج لفترة قصيرة، مثل ديبورا التى كانت حاضرة مع طائرها الغريب والمثير الذى يحط فى مكان غريب ما وظل فيه على سبيل الفضول، ولم تكن تنوى الاعتراف بالإعجاب. وكانت دوروثى حاضرة، تعد الشاى والقهوة وتقدمها للجميع. وجلست أنجيلا مع زوجها بينما لعب أطفالها الثلاثة مع الأطفال الأخرى. وسمحت أنجيلا، الكفء النشطة مثل تاجر الخيل غير الأمين كما قالت عنها دوروثى إنها لا تقول كلمة شكر لله، أن يكون معلومًا للجميع أن أختيها استحوذتا على كل اهتمام دوروثى ولم يتركا لها شيئًا. كانت مثل ثعلب صغير، ماهر وجميل. كانت هناك سارة وزوجها، وأبناء العمومة، والأصدقاء. كان بالمنزل أناس مندسون فى كل ركن منه، وحتى فوق الأرائك هنا فى الدور السفلى. وصارت العلية تحت سطح المنزل منذ زمن حجرة نوم تتسع للكثير من الأسرة، مكدسة بالملاءات وأكياس النوم، حيث يستطيع أى عدد من الأطفال أن ينام. وبينما جلسوا هنا فى الحجرة الكبيرة الدافئة المريحة التى بها مدفأة يشتعل بها حطب جمعه كل واحد منهم بالأمس من الأرض التى كانوا يسيرون فيها والمليئة بالحطب، وضجت الغرف فى الأعلى

بالأصوات والموسيقى، وكان بعض الأطفال الأكبر سنًا يتدربون على أغنية ما. كان هذا منزلاً، وهو تعريف آمن به كل فرد من العائلة معجبًا بما يمكنهم تحقيقه لأنفسهم - حيث لا يشاهد التليفزيون عادة.

لم يكن ويليام زوج سارة جالسًا على المائدة، لكنه كان يستند الجدار الفاصل على مسافة من الجالسين عبرت عما شعر به فى علاقته بالعائلة، فقد انفصل عن سارة مرتين، وعاد فى كل مرة للبيت؛ وكان جليًا لكل أفراد العائلة أن هذه العملية ستستمر! حصل ويليام على وظيفة بائسة فى تجارة العقارات: كانت المشكلة أنه يعانى كربًا وضعف القدرة الجسدية، وأصابته ابنته الجديدة، الطفلة المنغولية بالرعب. رغم ذلك كان شديد الارتباط بزوجته سارة، فقد كانا مناسبين لبعضهما البعض: كلاهما طويل وقوى البنيان، مثل زوج من الغجر، دائمًا فى ثياب ملونة، لكن طفلته البائسة كانت على ذراعى سارة، مغطاة حتى لا يتضايق أى أحد برؤيتها؛ وكان ويليام ينظر فى كل اتجاه عدا زوجته.

ونظر بدلاً من ذلك إلى هاربيت التى جلست ترضع طفلها بول، الذى بلغ الشهرين من عمره، فى مقعدها الكبير؛ لأنه مريح للقيام بهذه المهمة. وبدت منهكة، إذ كانت جين مستيقظة طوال الليل بسبب أسنانها، وأرادت الأم أن تكون معها لا الجدة.

لم تتغير هاربيت كثيرًا بإنجابها أربعة كائنات بشرية للعالم، وجلست هناك على رأس المائدة وقد

انزاحت ياقة قميصها الأزرق جانبًا ليظهر جزء من ثديها الأبيض تتخلله أوردة زرقاء، بينما بول يحرك رأسه الصغير بحيوية وقوة. كانت شفتاها مطبقتين تمامًا بحدة مميزة وهى تتابع كل شىء من حولها: امرأة شابة تتمتع بالصحة، جذابة ومفعمة بالحياة. لكنها متعبة... وأتى إليها الأطفال باندفاع من لعبهم طالبين منها الاهتمام، ثم فجأة صارت مهتاجة وردت بحدة، " لما لا تذهبوا وتلعبوا أعلى الدرج فى العلية؟" لم يكن هذا طبعها - مرة أخرى تبادل البالغون الغمز، وتولوا بهمة إبعاد ضجيج الأطفال عنها، كانت أنجيلا فى النهاية هى من ذهبت معهم.

كانت هاربيت تشعر بالكرب؛ لأنها صارت حادة المزاج، وبدأت بالقول، "كنت متيقظة طوال الليل،" فقاطعها ويليام متوليًا قيادة دفة الحديث، معبرًا عما كانوا جميعًا يشعرون به، وأدركت هى ذلك وفهمت لم كان ضروريًا أن يكون هو، ويليام الزوج والأب المقصر أصلاً.

وأعلن، "والآن، يجب أن يكون الأمر على هذا النحو، متكأ أمامه من الحائط الذى يستند إليه رافعًا يديه مثل قائد فرقة، "كم عمرك يا هاربيت؟ لا، لا تقولى لى، أنا أعرف، أنجبت أربعة أطفال فى ستة أعوام..." عندها نظر حوله ليتأكد أنهم جميعًا متابعون، وكانوا كذلك، وأمكن لهاربيت أن تلحظه وابتسمت بسخرية.

قالت، "مذنبة، هذا ما أنا عليه."

"هونى عليك يا هارييت. هذا كل ما نطلبه منك،" واصل متحدثًا بظرف وهستيرية أكثر فأكثر. كما كان أسلوبه عادة.

وقالت سارة، "تكلم يا والد الأطفال الأربعة،" وبحماس معانقًا ابنتها البائسة آمى، متحديًا إياهم أن يقولوا بصوت عال ما كانوا يفكرون فيه يقينًا: إنها كانت تنحرف عن طريقها لتدعمه، زوجها الذى لا يرضى عنه الجميع. ومنها نظرة امتنان بينما تجنبت عيناه حزمة من شعاع حزين برقت فى عينيها.

قال، "نعم، لكن على الأقل نحن نوزع المسألة على عشر سنوات."

وأعلنت هارييت، "نحن ننوى أن نمنح أنفسنا راحة، وأضافت بصوت بدا متحديًا،" على الأقل لثلاثة اعوام."

تبادل الجميع النظرات: واعتقدت أنهم جميعًا يشجبون ما قالته.

قال ويليام، "قلت لكم ذلك، أولئك الرجال المجانين سيستمرون فيما يفعلونه."

قال دافيد، "بالتأكيد أولئك الرجال المجانين سيفعلونها."

قالت دوروثى، "قلت لكم ذلك، عندما تلمع فكرة فى رأس هارييت، عندها عليكم أن تكتموا أنفاسكم."

قالت سارة بطريقة شبه يائسة، "تماماً مثل أمها." كانت تلك إشارة لإقرار دوروثى بأن هارييت تحتاجها أكثر من احتياج سارة لها، بينما طفلها المعوق لا يقاوم، وأعلنت دوروثى هذا بقولها، "أنت أكثر صلابة منها يا سارة، المشكلة مع هارييت أن تطلعاتها كانت دائماً أكبر من طاقتها."

كانت دوروثى بالقرب من هارييت مع جين الصغيرة التى كانت فاترة الهمة من أثر الليلة السابقة السيئة، نائمة نوماً خفيفاً على ذراعيها، بينما جلست دوروثى منتصبة، وصلبة؛ وشفتاها مطبقتان بحدة، وعيناها لا تفوتان شيئًا مما يجرى.

قالت هارييت، "لما لا؟ وابتسمت فى وجه والدتها: "كيف يمكننى أن أفعل أفضل من ذلك؟"

قالت دوروثى مستنجدة بالآخرين، "إنهم سوف ينجبون أربعة أطفال أخرى."

وقال جيمس مُكبراً برهبة من الله، "يا ربى الرحيم، حسنًا إن الأمر يبدو كما لو كنت أجنى الكثير من المال."

لم يعجب دافيد كثيرًا بهذا الكلام: احمر وجهه ولم يعد لينظر لأى أحد من الحاضرين.

قالت سارة، "لا تكن هكذا يا دافيد، محاولاً ألا تبدو أفضل: كانت سارة هى من يحتاج للمال بشدة، لأن دافيد هو من كان فى وظيفة جيدة، وهو الذى يحصل من أبيه على المزيد والمزيد من المال.

وتساءلت سارة متحسرة، "أنت لا تنوى حقًا إنجاب أربعة أطفال أخرى؟". وعلم الجميع أنها كانت تعنى أربعة تحديات أخرى للمصير، ثم وضعت يدها برفق على رأس آمى النائمة، مغطاة بشال، ممسكة بها آمنة من العالم حولها.

قال دافيد، "نعم، هذا فى نيتنا."

وقالت هارييت، "نعم بالتأكيد ننوى ذلك. فى الحقيقة هذا ما يريده كل امرئ، لكننا تعرضنا لعملية غسيل مخ لنبعد عن هذه الطبيعة. يريد الناس فى الواقع أن يعيشوا هكذا."

قالت مولى منتقدة، "أسر سعيدة،" دائمًا ما كانت تؤيد الحياة التى يتم فيها الحفاظ على النسق العائلى والولع به، وتعرف أن فى موقعها من حياة الناس خلفية لكل ما هو مهم."

قال دافيد، "نحن مركز هذه العائلة؛ نحن ـ هارييت وأنا، لا أنت يا أمى."

ردت مولى، "لا سمح الله." وقد صار وجهها الكبير المتلون دائمًا أكثر احمرارًا: كانت مستاءة.

وقال الابن، "آه حسنًا، لم يكن هذا أسلوب حياتك أبدًا!

قال جيمس، " بالتأكيد لم يكن أسلوبى أبدًا، وأنا أعتذر عن ذلك."

ثم قالت ديبورا بصوت مثل نبش الطير أو الحشرات، "لكنك كنت دائمًا أبًا رائعًا ممتازًا، وكانت جيسيكا أمًا ممتازة."

رفعت أمها الأصلية حاجبيها الكثيفين مستنكرة.

قال فريدريك، "لا يبدو أننى أذكر أنك تطوعت بمنح مولى فرصة أبدًا."

همهمت ديبورا، "لكن الأمور باردة جدًا فى إنجلترا."

سمح جيمس، المتألق وملابسه الصيفية الجنوبية الزاهية التى بدا فيها رجلاً وسيمًا متماسكًا، لنفسه بإطلاق صوت ساخر كشخير المسنين وعدم لياقة شبابية، وعبرت نظراته لزوجته السابقة وزوجها عن الاعتذار لديبورا، وأكد قائلاً، "على أية حال، إنه ليس أسلوبى، أنت مخطئة تمامًا يا هارييت، العكس هو الصحيح. الناس يخضعن لغسيل مخ كى يؤمنوا بأن الحياة العائلية هى أفضل حياة. لكن ذلك كان من الماضى."

سألت هارييت بشكل عدائى مبالغ فيه جدًا بالنسبة لهذا المشهد الصباحى السعيد، "إذا لم تكن تحب الحياة العائلية، فلماذا أنت هنا، إذًا؟" واحمر وجهها خجلاً، وهتفت، "لا، لم أقصد هذا المعنى!"

قالت ابنة عم لدافيد فى سن المدرسة، "نحن هنا لأنه جو محبب للنفس!" كانت "بريدجيت" ابنة عم دافيد فتاة تعيسة، أو على الأقل فتاة لها خلفية عائلية

معقدة، وأتت لقضاء إجازتها هنا؛ وأبواها سعداء بأن تتذوق الطعم الحقيقى للحياة العائلية.

كان دافيد وهارييت يتبادلان نظرات طويلة هزيلة يدعمان بها بعضهما البعض، كما فعلا عادة، ولم ينصتا لفتاة المدرسة التى كانت ترسل لهم نظرات سريعة مثيرة للشفقة.

قال ويليام، "تعاليا أنتما الاثنين، وقولا لبريدجيت أنها مرحب بها هنا."

سألت هارييت، "ماذا؟ ماذا فى الأمر؟"

ألح ويليام، "يجب أن يقال لبريدجيت إنها مرحب بها هنا،" وأضاف بطريقته الظريفة، " حسنًا ـ نحن نرحب بها جميعًا، من وقت لآخر،" ولم يستطع أن يمنع نفسه من إرسال نظرة ذات مغزى لزوجته.

قال دافيد، " حسنًا، طبيعى أنك مرحب بك يا بريدجيت،" وغمز لهارييت التى قالت على الفور، "لكن بالطبع،" وقصدت أن هذا أمر مفهوم ضمنًا دون ذكره، وأن ثقل ألف نقاش متعلق بالزواج بعيد عن الترحيب الطبيعى بها، وهو ما حدا ببريدجيت أن ترسل نظرات من دافيد إلى هارييت وبالعكس، ثم على العائلة بأكملها قائلة: "عندما أتزوج، هذا ما أنوى عمله، سأكون مثل هارييت ودافيد، وسيكون لى منزل كبير، والعديد من الأطفال... وسوف تكونون جميعًا مرحبًا بكم فيه." كانت فتاة فى الخامسة عشرة بسيطة، داكنة البشرة، ممتلئة الجسم على نحو جميل، وعلم

الجميع أنها ستتفتح وتصبح شابة جميلة قريبًا. هذ
قالوا لها.

قالت دوروثى مهدئة الأجواء، "إنه أمر طبيعى أنت لم تمتلكى أى نوع من منزل العائلة فى الواقع لهذا فأنت فى تقديرى متيمة بالمنزل."

قالت مولى، "هناك شىء خطأ فى هذا المنطق."

قال دافيد، "أمى تعنى أنك يمكنك فقط أن تقدرى قيمة شىء ما إذا ما وضع فى محل اختبار. لكننى الدليل المادى على أن الأمر ليس كذلك."

ردت مولى، "إذا كنت تقولين إنك لم تملك منزلاً مناسبًا من قبل فهذا كلام فارغ."

قال جيمس، "لقد كان لك منزلان."

فقال دافيد، "كانت لى حجرتى، حجرتى كانت هى المنزل."

قال فريدريك، "حسنًا، أعتقد أننا يجب أن نكون ممتنين لذلك التنازل منك."

"لكننى لم أشعر أبدًا بالحرمان -فقد كانت لى حجرة."

فما كان منهم إلا أن هزوا أكتافهم بلا مبالاة وضحكوا.

ثم قالت مولى، " وأنتم حتى لم تفكروا فى مشاكل تعليمهم جميعًا؛ ليس حتى الآن كما يمكننى أن أرى."

عند هذه النقطة بدأ يظهر أن الخلاف يدور حول أن الحياة فى هذا المنزل تمضى سلسلة بنجاح ساحق. ومر الحديث دون ذكر أن دافيد ذهب إلى مدارس خاصة.

وقالت هارييت، "سوف يبدأ لوك الذهاب إلى المدرسة المحلية هذا العام، وسوف تبدأ هيلين فى العام التالى."

قالت مولى، "حسنًا إذا كان كافيًا لكما."

قالت دوروثى، "لقد تعلمت بناتى الثلاثة فى مدارس عادية." لكن مولى لم تقبل التحدى، لا تدع هذا يفتك، وعلقت، "حسنًا إذا لم يقدم جيمس يد العون..." بذلك أوضحت أنها هى وفريدريك لا يمكنهم أو أنهم لن يساهموا فى تعليم أطفال دافيد.

لم يقل جيمس شيئًا ولم يسمح لنفسه أن يبدو ساخرًا.

مرة أخرى قالت هارييت فى صوت بدا متوترًا جدًا، "إنها خمس سنوات، أو ست سنوات قبل أن يكون علينا أن نقلق بخصوص المرحلة التالية من تعليمهم."

أصرت مولى، "لقد سجلنا دافيد فى مدرسته بمجرد أن ولد. وديبورا أيضًا."

فقالت ديبورا، "حسنًا، لم أكن أنا أفضل، بأى حال، بالمدارس الأنيقة التى تعلمت فيها من هارييت. او أى شخص آخر؟"

وقال جيمس، "هذه نقطة جديرة بالاعتبار، من الذى دفع مصروفات المدارس الأنيقة؟"

قالت مولى، "هذه ليست نقطة ذات بال."

تنهد ويليام، وقد تناول الأمر بتهريج: "جميعنا محرومون.

وقالت سارة، "إنها تعنى أنك سوف تكون أكثر سعادة وأنت عاطل أو فى وظيفة قذرة وأنت متعلم تعليمًا راقيًا عن أن تكون متعلمًا تعليمًا رديئًا."

قالت مولى، "آسفة، فالتعليم العام فظيع، وهو يمضى للأسوأ، لدى هارييت ودافيد اربعة أطفال عليهما تعليمهما، ومع المزيد من الأطفال الذين سينجبونهم، كما هو واضح، يمكنكم أن تتساءلوا إن كان جيمس سيكون قادرًا على مساعدتكم؟ يمكن أن يحدث أى شىء فى الدنيا."

قال ويليام بمرارة، لكنه ضحك ليخفف من الأمر، " أى شىء يحدث بالفعل، طوال الوقت."

تحركت هارييت فى مقعدها متألمة، وأزاحت بول من على ثديها بمهارة أن تحجب نفسها عنه، وهى مهارة لاحظها الجميع وأعجب بها، وقالت، "إننى لا أرغب فى هذا الحديث، فهذا صباح جميل..."

قال جيمس، "بالطبع سأساعدكم، فى حدود."

قالت هارييت، "آه يا جيمس... شكرًا لك... شكرًا لك... آه عزيزى... لماذا لا نذهب إلى الغابات؟... يمكننا أن نأخذ معنا غداء للنزهة."

تلاشى الصباح سريعًا. كان الوقت فى منتصف النهار وقد ضربت الشمس أطراف الستائر الحمراء الجميلة، محولة إياها إلى اللون البرتقالى الداكن، مرسلة أشعة برتقالية تلمع على المائدة بين الأطباق وصحون الفناجين وسلطانية الفاكهة. ونزل الأطفال من العلية إلى الحديقة؛ وذهب الكبار لمراقبتهم من النوافذ. كانت الحديقة لا تزال مهملة، فلم يكن لدى هارييت الوقت اللازم لرعايتها أبدًا. كان العشب مُخضرًا وعطرًا، وقد رقد الأطفال كالدمى عليه، وغنت الطيور فى أعشاشها فى الشجيرات غير عابئة بالأطفال... وجلست جين الصغيرة بجوار دوروثى، وتمايلت فى مشيتها لتلحق بالآخرين، بينما لعبت مجموعة من الأطفال معًا محدثين ضوضاء، لكنها كانت صغيرة للغاية تعيش فى العالم الخاص بأبناء العامين من العمر، لكن الأطفال طوعوا لعبتهم بمهارة لتناسبها. فى أحد أيام عيد الفصح، قبل أسبوع من الآن، كان البيض الملون مخبأ فى كل مكان من الحديقة. كان يومًا رائعًا حيث يقوم الأطفال بجلب البيض السحرى من مخبأه إلى داخل المنزل، وجلست هارييت ودوروثى وبريدجيت، فتاة المدارس، يزينون البيض حتى منتصف الليل.

وكان هارييت ودافيد عند النافذة، وطفلها بين يديها وقد وضع ذراعه حولها، وتبادلا نظرة سريعة يحدوهم نصف شعور بالذنب للابتسامات المشرقة على وجوههم التى لا سبيل للسيطرة عليها، تلك

البسمات التى شعروا أنها ربما سببت إغضاب الآخرين.

قال ويليام، "أنتما غير قابلين للإصلاح." وقال للآخرين، "حسنًا، من الذى يتشكى؟ أنا لا أتشكى! لماذا لا نذهب جميعنا فى تلك النزهة الخلوية؟"

امتلأت خمس سيارات بالجمع فى الحفل المنزلى حيث انحشر الأطفال فى أو على أرجل وأفخاذ وحجور الكبار.

ثم جاء الصيف مماثلاً: شهرين منه، ومرة أخرى حضرت العائلة وذهبت، ثم جاءت ثانية.كانت بريدجيت فتاة المدارس هناك طوال الوقت؛ بريدجيت البائسة، متعلقة بقوة بتلك المعجزة لعائلة، فى الحقيقة كما فعل دافيد وهارييت، فكلاهما فى أكثر من مرة - برؤيتهما لوجه الفتاة الذى يشى بالتوقير والرعب، معلق دائمًا بالساعة، كما لو كانت خائفة من أن يفوتها بعض الإلهام من الكرم والطيبة أو النعمة فى اللحظة التى تسمح فيها أن يتوقف انتباهها عن متابعة ما يجرى - رأوا فيها ذاتهما، بل أنهما رأوا نفسيهما دونها بصعوبة. كان أمرًا زائدًا عن الحد... مبالغًا فيه... بالتأكيد عليهما أن يقولا لها ذلك، "انظرى يا بريدجيت، لا تتوقعى الكثير. الحياة ليست كذلك! لكن الحياة /مثل/ ذلك، إذا ما اخترت اختيارًا سليمًا: لذا لم يجب عليهما الشعور بأنها لا يمكنها أن تمتلك ما امتلكاه وبوفرة؟

صارت هارييت حاملاً مرة أخرى، حتى قبل أن يجتمع شمل العائلة قبل كريسماس عام ١٩٧٣ . هو ما سبب لها ولدافيد رعبًا مطلقًا. كيف حدث هذا؟ لقد كانا حريصين، خاصة حريصين فى عزمهما ألا ينجبا أية أطفال أخرى لفترة. وحاول دافيد أن يسخر، "إنها هذه الحجرة، أقسم إنها صانعة أطفال!"

تراجعا عن إخبار دوروثى. ولم تكن هناك على أية حال؛ لأن سارة قالت لها إنه ليس من العدل أن تحظى هارييت بكل المساعدة منها. ببساطة لم تستطع هارييت أن تدبر أمورها. حضرت ثلاث بنات للمساعدة فى أعمال المنزل، واحدة بعد الأخرى، كن قد تركن المدارس بالفعل، ولا يمكنهن إيجاد عمل بسهولة. الحقيقة أنهن لم يكن عونًا كبيرًا. واعتقدت هارييت أنها كانت تراعهن بأكثر مما قمن به من رعاية لها. حضرن أو لم يحضرن حسبما يتراءى لحالتهن المزاجية، وكانوا يجلسن ويشربن الشاى مع صديقاتهن من الفتيات، بينما هارييت تكدح فى شئون المنزل. كانت هارييت شديدة التوتر والاهتياج، ومنهكة... وتتسم بالنكد والتذمر؛ وفقدت أعصابها؛ وانفجرت فى البكاء كثيرًا... ورآها دافيد تجلس إلى مائدة المطبخ واضعة رأسها بين يديها مغمغمة بالقول إن هذا الجنين الجديد كان يسممها: وقد رقد بول ينشج ويئن مهملاً فى عربته. وأخذ دافيد إجازة من مكتبه ذات ليلة ليعود للمنزل ويقدم يد المساعدة. وأدركوا إلى أى حد يدينون لدوروثى، لكنهم الآن

يدركون ذلك أكثر ـ وذلك عندما سمعت أن هارييت صارت حاملاً مرة أخرى، وأنها بالطبع ستكون غاضبة. غاضبة جداً. ومعها كل الحق.

بكت هارييت قائلةً، "سوف يكون كل شىء أسهل عندما تبدأ أعياد الكريسماس."

قال دافيد غاضبًا، "لا يمكن أن تكونى جادة، بالطبع لا يمكنهم الحضور هذا الكريسماس."

"لكن الأمور تكون سهلة عندما يكون أفراد العائلة هنا، فجميعهم يساعدوننى."

قال دافيد، "فقط لمرة واحدة، لسوف نذهب لأحدهم، لكن هذه الفكرة لم تدم لأكثر من خمس دقائق: لا يوجد أى من البيوت الأخرى يمكنه استقبال ستة أفراد زيادة."

رقدت هارييت على سريرها تبكى. "لكن يجب عليهم أن يحضروا، لا تردهم يا دافيد من فضلك... على الأقل سوف يصرف وجودهم الأمر عن ذهنى."

جلس على جانب من السرير متأملاً لها بصعوبة، منتقداً إياها، محاولاً ألا يبدو كذلك. فى الحقيقة سوف يسعده ألا يكون المنزل مزدحمًا بالناس على مدى ثلاثة أسابيع أو شهر: الأمر يكلف الكثير جدًا، وكانوا جميعًا ينقصهم المال، وقد قبل بوظيفة إضافية، وها هو فى المنزل يقوم بدور الخادمة.

عليك أن تجلبى أحدًا ما ليساعد فى المنزل يا هارييت، يجب أن تحاولى الاحتفاظ بواحدة منهن."

انفجرت فى حالة من السخط لانتقادها بهذا الشكل، "هذا ليس عدلاً! أنت لست عالقًا بهن هنا، إنهن ليس عونًا لى على الإطلاق، لا اعتقد أن أيًا منهن قامت بساعة من العمل الحقيقى فى حياتها كلها."

"لكنهن قدمن بعض المساعدة، حتى لو كان مجرد التنظيف."

ثم اتصلت دوروثى لتقول إن كل من سارة وهارييت يمكنهم أن يدبرن أمرهن: فهى، دوروثى العجوز، تحتاج لاستراحة، وأنها ذاهبة لموطنها، إلى شقتها لتروح عن نفسها لعدة أسابيع... كانت هارييت تبكى و بالكاد يمكنها الكلام. ولم تستطع دوروثى أن تتملص منها، وقالت، "حسنًا جدًا، أعتقد أننى سوف اتى إذًا."

جلست دوروثى إلى المائدة الكبيرة، مع هارييت ودافيد، فى وجود الأطفال الأربعة كذلك، ونظروا بحدة إلى هارييت، وقد فهمت أن ابنتها كانت حاملاً مرة أخرى خلال نصف ساعة من وصولها. وأمكنهم أن يروا فى وجهها الجامد الغاضب أن لديها أشياء فظيعة ترغب فى قولها. "أنا خادمتك؛ إننى أقوم بعمل خادمة فى هذا المنزل. أو أنك أنانية للغاية؛ كلاكما فى الحقيقة، أنتما لا تتحملان المسئولية." كانت هذه الكلمات معبأة فى هواء المكان؛ لكنها لم تقال: أدركوا انها إذا سمحت لنفسها أن تبدأ فى الكلام، فإنها لن توقف عند هذا الحد.

ثم جلست على رأس المائدة - فى الموضع القريب من الموقد- وهى تقلب الشاى تراقب الطفل الذى كان مضطربًا فى مقعده الصغير محتاجًا لمن يداعبه ويحتضنه التماسًا للدفء. بدت دوروثى متعبة هى الأخرى بشعرها الرمادى المهوش: كانت لتصعد لتهندم نفسها لحظة استغرقت فى معانقة لوك وهيلين وجين، الذين افتقدوها وأدركوا أن القسوة وضيق الصدر اللذين حكما المنزل سينتهيان الآن.

تساءلت بعنف دون أن تنظر إليهم، "هل تعلمين أن كل أفراد العائلة من المتوقع حضورهم إلى هنا لقضاء أعياد الكريسماس؟"

هتف لوك وهيلين محدثين جلبة بترديد أغنية والرقص على إيقاعها متدافعين حول المطبخ، " آه، نعم، نعم، نعم." آه، نعم، متى سيحضرون؟ هل سيحضر تونى؟ هل سيحضر روبن؟ هل ستحضر آمى؟"

قال دافيد بحدة وبرود، "اجلسوا." ووجهوا إليه نظرة دهشة جارحة وجلسوا.

ثم قالت دوروثى، "إنه ضرب من الجنون." واحمر وجهها من الشاى الساخن، ومن كل الأشياء التى كانت ترغم نفسها على ألا تقولها.

فقالت هارييت، "بالطبع يجب على كل فرد من العائلة أن يحضر،" وهى تبكى وخرجت مسرعة من الحجرة.

وقال دافيد بصيغة تبرير واعتذار، "إنه أمر مهم جدًا لها، أو ليس مهمًا لك أنت؟ هذا مثير للسخرية بحق."

ثم أضاف، "المسألة أننى لا أعتقد أن هارييت صارت قريبة من نفسها بأى قدر، وثبت عينيه على عينى دوروثى - ليجعلها تواجهه، لكنها لم تفعل.

وتساءل لوك ابن الأعوام الستة وهو يتأهب لمباراة كلامية، "ما معنى ذلك؟ ما معنى أن آمى ليست قريبة من نفسها؟" وربما أنه حتى الأمر بدا ملغزًا، فلقد كان مشوشًا. مدّ دافيد ذراعيه إليه، وذهب لوك لأبيه ووقف بالقرب منه متطلعًا فى وجهه.

قال دافيد، "كل شئ على ما يرام يا لوك."

قالت دوروثى، لا بد أن نجلب شخصًا ما للمساعدة."

"لقد حاولنا." وشرح لها ما حدث مع الفتيات الثلاثة الودودات المستقيلات.

"هذا لا يفاجئنى." من هذا الذى يرغب فى أن يقوم بعمل شريف هذه الأيام؟ لكن يظن أنه يجب عليك أن تجلب أحدًا. ويمكننى أن أقول لك إننى لم أتوقع أن أنهى حياتى كخادمة لك ولسارة."

عندها، وجه لوك وهيلين نظرات إلى جدتهم تعبر عن الشك، وانفجرا فى البكاء. وبعد برهة تحكمت دوروثى فى نفسها وبدأت فى مواساتهما.

قالت، "حسنًا، حسنًا، والآن سأضع بول وجين فى سريرهما، وأنتما أيضًا يا لوك وهيلين يمكنكما الذهاب للنوم. سأصعد لألقى عليكم تحية المساء. ثم ستذهب جدتكم لتنام. أنا متعبة."

صعد الأطفال المقهورون إلى حجرتهم فى الطابق العلوى.

لم تنزل هارييت ثانية فى هذه الليلة؛ وأدرك زوجها وأمها أنها كانت متوعكة. وهو ما اعتادوا عليه... لكنهم لم يعتادوا المزاج المعتل، والدموع، والنكد.

عندما ذهب الأطفال للنوم، قام دافيد بإنهاء بعض المهام الوظيفية التى أحضرها معه للمنزل، وأعد لنفسه ساندويتش، وجلس مع دوروثى التى نزلت لتعد لنفسها الشاى. لم يتبادلا فى هذه المرة الحديث حول الأمور المثيرة للمشاكل: كانا معًا فى صحبة الصمت، مثل عجوزين يديران حملة، ويواجهان التجارب والصعوبات معًا.

ثم صعد دافيد إلى حجرة النوم الكبرى ذات الظلال، حيث أرسلت الأضواء من نافذة أعلى الدرج فى المنزل المجاور، على بعد ٣٠ ياردة ومضات وظلال على السقف. جلس ناظرًا للسرير الكبير حيث رقدت هارييت. هل أنت نائمة؟ وكان الطفل الرضيع بول غارقًا فى النوم بالقرب منها دون غطاء، فمال بحرص تجاهه ولفه فى ملاءته، وأخذه إلى حجرته من الباب المجاور، ولمح عيون هارييت تلمع بينما تتابع تحركاته.

ثم عاد للسرير، وكالعادة فرد ذراعه بحيث يمكنها أن تضع رأسها عليه وتقترب منه، لكنها قالت، "هل تشعر بهذا؟" ووضعت يديه على بطنها.

كانت تقريبًا فى شهرها الثالث.

هذا الجنين الجديد لم يظهر بعد علامات حياة مستقلة، لكن دافيد شعر برجة تحت يديه؛ حركة عنيفة للغاية.

"هل يمكنك أن تتابعى التفكير الذى يراودك؟" ومرة أخرى شعر بالحركة القوية، ولم يستطع تصديق ما شعر به.

شرعت هارييت فى البكاء ثانية، وشعرت، وهى تعلم بالطبع أن هذا ليس عدلاً، إنها تخرق القواعد فى عقد ما بينهم: لما تكن الدموع والبؤس على قائمتهما أبدًا.

وشعرت أنه نفر منها. لقد أحبا دائمًا أن يرقدا هنا يحدوهم الشعور بقرب قدوم حياة جديدة، وهللا لها. انتظرت أربع مرات حدوث الرعشات الأولى الضعيفة التى يسهل عدم الشعور بها، والتى تصبح مؤكدة بعدها، وكان الشعور الذى انتابها كما لو كانت سمكة قد خرجت من فقاعة؛ والاستجابات الصغيرة لحركاتها، ولمسها، حتى أنها كانت مقتنعة بأنها تستجيب لأفكارها أيضًا.

أحست هذا الصباح، وهى راقدة فى الظلام قبل أن يصحو الأطفال، بضربات خفيفة أو نقرات فى

بطنها مما تطلب انتباهها. جلست نصف جلسة غير مصدقة، ناظرة للأسفل، إلى منطقة معدتها التى لا تزال مسطحة دون بروز وإن كانت طرية، وشعرت بالنبضة أو النقرة المُلِحة مثل النقر على طبلة صغيرة. واظبت على الحركة طوال النهار حتى لا تشعر بهذه المتطلبات من الكائن الجديد، الذى هو ليس كأى شىء خبرته من قبل.

قال دافيد، "كان من الأفضل لك أن نذهب أو نحضر د. بريت ليفحصك ويختبر المواعيد."

لم تقل شيئًا، وشعرت بأن هذا كان قريبًا من المطلوب: لم تكن تعرف لماذا تشعر بما تشعر به، لكنها ذهبت بالفعل إلى د. بريت.

قال الطبيب، "حسنًا، ربما كانت حسابات المواعيد متقدمة شهرًا. هكذا كنت مهملة بحق يا هارييت."

كان مثل هذا التوبيخ هو ما تحصل عليه من الجميع، وقالت بشكل خاطف،

"أى شخص يمكن أن يرتكب خطأ ما." قطب جبينه عندما شعر بالحركات المعبرة عن نفسها بشكل أكيد فى بطنها، وعلق، "حسنًا، لا يوجد شىء خطأ لحد بعيد فى ذلك، هل هناك؟" وبدا مريبًا على أية حال. كان الطبيب رجلاً متبرمًا باستمرار، فلم يعد شابًا، وكما سمعت عانى من زواج شاق، وشعرت أنها تتفوق عليه بالتأكيد. الآن شعرت أنها تحت رحمته،

وكانت تنظر لأعلى ناحية ذلك الوجه الصموت مهنيًا بينما ترقد تحت يديه متضرعة إليه كى يقول شيئًا ما آخر." ماذا؟ أتريدين تفسيرًا.

" عليك أن تأخذى الأمور ببساطة،" قالها مبتعدًا.

ودمدمت خلف ظهره متذمرة، "خذ أنت نفسك الأمر ببساطة؛ أنت أيها البقرة حادة المزاج."

وتم إبلاغ كل من حضر لحفل الكريسماس بأن هارييت حامل -كانت غلطة، لكنهم الآن صاروا فرحين بحق... لكن دوروثى علقت، "تكلموا عن أنفسكما." وكان على كل الحاضرين أن يتجمعوا للقيام بالعمل بشكل جماعى، وبأكثر مما فعلوا عادة؛ فلم يكن عليها أن تطبخ، أو تقوم بالأعمال المنزلية، أو عمل أى شىء، فيجب أن يمنحوها وقتًا.

كل وافد جديد نظر محدقًا عند سماع الأخبار، ثم قام بإطلاق النكات. دخلت هارييت إلى الحجرات المحتشدة بأفراد العائلة يتبادلون الأحاديث، لكنهم صمتوا عندما أدركوا وجودها هناك. كانوا يتبادلون فيما بينهم استنكارها وإدانتها، ويمنحون الدور الذى تقوم به دوروثى فى الحفاظ على استمرار تسيير شئون المنزل كل تقدير. وذكروا الضغط المادى الواقع على راتب دافيد، وهو فى النهاية ليس بالراتب الكبير. ثم أطلقت النكات حول استقبال دافيد للأخبار، وبدأت عمليات الإغاظة، وأدينت هارييت ودافيد على خصوبتهما الزائدة، وأطلقت النكات حول

تأثير حجرة نومهما... واستجابوا لها بشعور بالراحة لكن كل هذه الدعابات كانت لها حدود، وكانوا ينظرون إلى آل لوفات الشباب بشكل مختلف عن الطريقة التى اعتادوا عليها من قبل؛ خاصة وأن الصبر والمثابرة الملحة هى التى جمعتهم معًا، وكانت سببًا فى وجود هذا المنزل، وجمع كل هؤلاء الناس غير المتجانسين من أجزاء مختلفة من إنجلترا، والعالم أيضًا -كان جيمس قادمًا من برمودا، وديبورا من الولايات المتحدة الأمريكية، حتى جيسيكا وعدت أن تحضر لفترة قصيرة أيًا كانت. هذه الرغبة الملحة فى الحياة التى قوبلت باحترام فى الماضى تظهر الآن جانبها العكسى فى هارييت الراقدة شاحبة وغير قادرة على التواصل الاجتماعى، ثم نزولها عازمة على أن تصبح جزءًا من هذا الاحتفال، لكنها تفشل وتصعد لحجرتها ثانية؛ كما يبدو الجانب العكسى فى صبر دوروثى الضارى، حيث كانت تعمل من الفجر إلى الغروب، وعادة فى الليل أيضًا، ويبدو كذلك فى تبرم الأطفال ومطالباتهم بأن يحظوا باهتمامها، خصوصًا بول الصغير.

وأتت فتاة أخرى للمساعدة من الريف وجدها د.بريت. كانت مثل الفتيات الثلاثة الأخريات، لطيفة، وكسولة، ولا ترى شيئًا يجب القيام به دون أن يلفت انتباهها لذلك، تواجه تحديًا صعبًا بحجم العمل المطلوب لرعاية أربعة أطفال.

على أية حال، فقد تمتعت بالناس جالسين محلقين معًا يتجاذبون أطراف الحديث، وبهذا المناخ

الاجتماعى، وخلال فترة قصيرة كانت تشاركهم تناول الـوجـبـات والجـلـوس؛ ووجـدت أنه من الملائم أن ينتظروها إن تأخرت. وعلم الجميع أنها سوف تجد عذرًا لتغادر المنزل عندما ينفض هذا الحفل المبهج.

وهو ما فعلته فعلاً، بل ومبكرًا عن المعتاد. ولم تكن جيسيكا فقط، فى ملابسها الصيفية الزاهية التى لم تكن امتيازًا فى الشتاء الإنجليزى عدا سترة من الصوف المحبوك، التى تذكرت أن هناك أناسًا من كل مكان قد وعدوها بالزيارة. وغادرت جيسيكا ومعها ديبورا. ثم تبعهم جيمس. وكان على فريديرك أن ينهى كتابًا عاد ليكمله. ووجدت بريدجيت، فتاة المدارس التى وقعت فى أسر الحياة العائلية، أن هارييت راقدة تضغط بيديها على بطنها والدموع تنساب على وجنتيها وهى تئن من ألم لا تستطيع تحديده. صدمت صدمة كبيرة وبكت هى الأخرى، وقالت إنها عرفت دائمًا أنه من الجيد جدًا أن تبقى معهم، لكنها قفلت عائدة لبيتها، إلى أمها.

هكذا، ذهبت الفتاة التى أتت للمساعدة إلى بيتها، وبحث دافيد عن مربية مدربة فى لندن، ولم يكن ليتحمل دفع أجر واحدة منهن لكن جيمس وعد بأن يدفعه حتى تصبح هارييت أحسن حالاً كما قال: وهو الشخص كثير الشكوى ردىء الطباع، أنه آمن بأن هارييت اختارت هذه الحياة، وعليها الآن ألا تتوقع من كل واحد أن يقوم بدفع الفواتير عنها.

لكنهم لم يتمكنوا من إيجاد مربية: أردن كلهن أن يذهبوا للخارج مع عائلات لديها طفل أو ربما طفلان، أو أن يكون مقر العائلة فى لندن، أما هذه البلدة الصغيرة، والأطفال الأربعة وطفل آخر قادم، جعلهن يتراجعن.

حضرت "أليس"، عوضًا عن ذلك، وهى ابنة عم لفريدريك، أرملة سيئة الحظ، لمساعدة دوروثى. كانت أليس سريعة الحركة، شديدة العناية بالتفاصيل، سريعة التوتر وعصبية مثل كلب صيد من النوع النشيط والذكى رمادى اللون. كان لديها ثلاثة أولاد بالغين وأحفاد، لكنها قالت إنها لا تريد أن تكون سببًا فى إزعاجهم، وهى ملاحظة جعلت دوروثى تبدى عليها ملاحظات متحفظة.لم تكن دوروثى سعيدة بوجود امرأة أخرى فى مثل عمرها تشاركها المسئولية، لكن المسألة كانت خارجة عن حدود إرادتها فقد بدا أن هارييت لم تعد قادرة على عمل أى شىء آخر.

وعادت هارييت إلى د.بريت لأنها لم تعد قادرة الآن على النوم أو الراحة بسبب طاقة الجنين الذى بدا أنه يحاول أن يشق طريقه إلى خارج بطنها.

قالت، "فقط انظر إلى ذلك."وكانت بطنها تنتفخ لأعلى، وتتشنج، ثم تهدأ. "خمسة شهور."

قام الطبيب بعمل الفحوصات المعتادة وقال، "إنه كبير بالنسبة لجنين عمره خمسة شهور، لكن ليس بشكل خارق للعادة."

سألت، "هل كان لديك حالة مثل هذه من قبل ابدًا؟" وبدت حادة، وقاطعة، ونظر إليها نظرة ضيق.

ثم قال باقتضاب، "بالتأكيد رأيت أطفالاً مفعمين بالنشاط والحيوية من قبل." وعندما تساءلت، "فى سن خمسة شهور من الحمل؟ مثل هذا؟" تجنب أن تتلاقى عيونهما وكان غير صادق، كما شعرت بالأمر، وقال، "سوف أعطيك مهدئًا." مهدئًا لها هى، لكنها اعتقدت فى أنه شىء ما ليهدئ الجنين.

الآن، وهى خائفة من أن تطلب من د.بريت تسولت المهدئات من الأصدقاء، ومن أخواتها. ولم تقل لدافيد كم من الأقراص كانت تأخذ؛ وكانت هذه هى المرة التى تخفى فيها شيئًا عنه. ظل الجنين هادئًا حوالى ساعة بعد أن تناولت جرعتها من المهدئ، منحت فيها فترة راحة من الضربات والمجاهدة بقوة. اسوأ ما فى الأمر أنها كانت لتبكى من الألم. فى الليل، سمع دافيد أنينها، لكنه الآن لم يعد يمنحها الراحة؛ لأنه فى تلك الأيام لم يكن فى ذراعيه اللتين يحيطان بها أية مساعدة.

قالت، أو نخرت بصوت مثل صوت الخنزير، أو تأوهت، "يا إلهى،" ثم جلست فجأة أو أنها اندفعت مذعورة من على سريرها وخرجت من الحجرة ملوية على نفسها بسرعة، هاربة من الألم.

وتوقف عن وضع يديه برفق على بطنها بالطريقة القديمة؛ لأن ما شعر به فيها كان أبعد مما يمكنه

التعامل معه، ولم يكن ممكنًا أن يبدى هذا المخلوق الضئيل فى بطن أمه هذه القوة المخيفة، لكنه رغم ذلك فعل. ولم يكن فيما قاله لها ما يبدو أنه يصل لهارييت، التى شعر أنها خاضعة لروح شريرة، وقد ذهبت بعيدًا جدًا عنه فى هذه المعركة مع الجنين، التى لم يتمكن من المشاركة فيها.

ربما استيقظ ليراقبها تجوب الغرفة الحجرة فى ظلام الليل، ساعة بعد ساعة. وعندما ترقد فى النهاية وهى تنظم تنفسها، كانت لتبدأ ثانية بصرخة، ولعلمها أنه يكون متيقظًا كانت تنزل السلالم إلى حجرة العائلة الكبيرة حيث يمكنها أن تذرع المكان لأعلى ولأسفل متأوهة وهى تسب باكية دون أن يلاحظها أحد.

ومع اقتراب عيد الفصح، وإبداء السيدتين العجوزين ملاحظات حول إعداد المنزل لاستقبال الضيوف قالت هارييت، "لا يمكنهم الحضور. ليس من المحتمل أن يتمكنوا من الحضور."

قالت دوروثى، "سوف يتوقعون ذلك."

قالت أليس، "يمكننا تدبر أمورنا."

فقالت هارييت، "لا."

ثم بكاء واحتجاجات من الأطفال؛ ولم تلن هارييت حتى أن هذا جعل دوروثى معترضة أكثر... ها هى، مع أليس، امرأتان قادرتان يقومان بكل العمل، حتى أقل الأعمال التى يمكن لهارييت أن تقوم بها...

وسأل دافيد الذى توسل إليه الأطفال ليجعلها تغير رأيها، "هل أنت متأكدة أنك لا تريدينهم أن يحضروا؟"

قالت هارييت، "أوه، افعل ما تريد."

لكن عندما أتى عيد الفصح ثبت أنها كانت على حق: لم ينجح الاحتفال بالعيد. جلست إلى مائدتها بوجهها الذاهل، منتصبة بتصلب، مهيأة للضربة القادمة من الجنين الذى توقف عن التعبير وأفسد المتعة والأوقات الطيبة. سأل ويليام مازحًا بصعوبة عند رؤيته بطنها يتشنج، "ماذا لديك هنا فى الداخل؟ مصارع؟"

أجابت، "الله وحده يعلم،" وكانت تشعر بمرارة وتساءلت دون مزاح، "لا أدرى كيف سأصمد حتى يوليو." ثم قالت بصوت خفيض مُرَوع، "لا أستطيع! ببساطة لا أستطيع هذا!"

أدرك الجميع - وديفيد أيضًا - أنها كانت منهكة لأن هذا الطفل أوشك أن يولد. وحيدة فى محنتها، كان يجب الترويح عنها، وأدركت ذلك، ولم تلم أفراد عائلتها لعدم قبولهم ما كانت مجبرة على قبوله ببطء صارت صامتة، عكرة المزاج، متشككة فيهم جميعًا وفى أفكارهم عنها. الشىء الوحيد الذى ساعدها هو ان تستمر فى التحرك.

وإذا ما منعت جرعة ما من المهدئ العدو عنها - هكذا اعتقدت الآن فى هذا الشىء الوحشى بداخلها -

لمدة ساعة فقط، وهذا ما فعلته معظم الوقت حتى
تنام، مغتصبة النوم، ممسكة بالدواء لتشربه، قبل أن
تثب من سريرها ما أن تصحو على جيشان داخلى
وتمدد يجعلها تشعر بالغثيان. كانت تقوم بتنظيف
المطبخ، وحجرة المعيشة، والسلالم، وتغسل النوافذ
وتمسح طاولة الأكواب بينما جسمها بأكمله يستنكر
الألم بفعل حيوية الطاقة. وأصرت أن تدعها أمها
وأليس تقوم بالعمل، وعندما قالتا لها إنه لا توجد
حاجة لمسح المطبخ ثانية قالت، "بالنسبة للمطبخ، لا،
بالنسبة لى، نعم." وفى وقت الإفطار ربما كانت عملت
لثلاث أو أربع ساعات، وتبدو منهكة. أقلت دافيد
لمحطة القطار، والطفلين الأكبر للمدرسة، ثم ركنت
السيارة فى مكان ما ومشت... تقريبًا جرت خلال
الشوارع التى كانت تراها بصعوبة، ساعة وراء ساعة
حتى أدركت أنها كانت مثار تعليقات، ثم اتخذت
طريقها بالسيارة لمسافة قصيرة خارج البلدة حيث
مشت بسرعة على أقدامها عبر أزقة الريف، وجرت
أحيانًا. كان الناس فى السيارات المارة لينحرفوا
تملؤهم الدهشة لرؤية هذه السيدة المسرعة التى
تجرى بنشاط، بيضاء الوجه، وشعرها يتطاير، وفمها
مفتوح تلهث وذراعاها مطبقتان فوق صدرها، وكانت
تهز رأسها وتمضى فى عدوها إذا ما وقفوا ليعرضوا
عليها المساعدة.

مر الوقت. مر بالفعل، رغم أنها كانت عالقة فى
ضرب من الوقت مختلف عن ضروب الوقت من

حولها، ليس زمن السيدة الحامل البطئ، إنما هو
للويم خاص بنمو الكائن الخفى داخلها. كان زمنها
يمثل الثبات واحتواء الألم. سكنت عقلها الأشباح
وأوهام الشيميرا(*) كانت تفكر فى أنه عندما يقوم
العلماء بتجاربهم بدمج أو تهجين نوعين من الحيوانات
معًا، من أحجام مختلفة، فهذا الهجين هو ما يفترض
أنه سبب ما تشعر به تلك الأم البائسة. وتخيلت
مخلوقات مرقعة بطريقة غير متقنة ومثيرة للشفقة،
وكأنها كائنات حقيقية تراها برعب، إنتاج دانماركى
عظيم، أو كلب "بورزوى" روسى مع كلب "سبنيلى". كلب
صغير قصير القوائم ذو شعر طويل متموج وأذنين
كبيرتين مسترخيتين؛ أو أسد مع كلب؛ أو حصان
صغير لجر العربات مع جحش؛ أو نمر مع معزة.
وآمنت أحيانًا بأن حوافر هذا الكائن تقطع داخل
اللحم خلال جسدها الواهن، وأحيانًا المخالب.

بعد الظهر، أحضرت الأطفال من المدرسة، ثم
دافيد من محطة القطار، ودارت حول المطبخ بينما
يتناولون العشاء، وحثت الأطفال على مشاهدة
التليفزيون، ثم صعدت للطابق الثالث حيث جرت
مسرعة أعلى وأسفل الكوريدور.

تمكن كل أفراد الأسرة من سماع وقع خطواتها
السريعة الثقيلة فى الأعلى، ولم يسمحوا لعيونهم أن
تتلاقى.

---

(١) كائنات خرافية لها رأس أسد وجسم شاة وذنب ثعبان.

مر الوقت. مر بالفعل. وكان شهرها السابع أفضل بفضل كميات المخدر التى تناولتها. وخططت الآن فى يومها لأمر وحيد، مرعوبة من المسافة التى نمت بينها وبين زوجها وبينها وبين الأطفال: أن تبدو وكأنها طبيعية، فى الساعات الأربع منذ انتهاء لوك وهيلين من المدرسة حتى الثامنة أو التاسعة، وعندما يذهبون إلى النوم. بدا أن المخدرات لم تعد تؤثر فيها كثيرًا: كانت تحثهم على تركها وحدها وألا يقتربوا من الجنين. هذا الكائن الذى احتجزت معه فى صراع من أجل البقاء. بالنسبة لهذه الساعات كانت الأمور هادئة، أو إذا ما أظهر الكائن علامات نوبة تيقظ آتية، وسيصارعها، تناولت جرعة أخرى.

آه، كم كان كل فرد فى الأسرة متشوقًا للترحيب بعودتها إلى الأسرة، طبيعية وعلى سجيتها: وتجاهلوا أمر توترها وإجهادها، لأنها أرادتهم أن يتجاهلوه.

كان دافيد ليحيطها بذراعيه ويقول، "آه، يا هارييت، هل أنت على ما يرام؟"

لم يبق سوى شهرين على موعد الولادة.

"نعم، نعم، إننى بخير حقًا،" ثم أعلنت فى صمت أن المخلوق رابض فى رحمها: "الآن فلتصمت، وإلا سآخذ قرصًا آخر،" وبدا لها أن المخلوق استمع لما قالت وفهم معناه.

مشهد فى المطبخ: عشاء يجمع الأسرة، هارييت على رأس المائدة ودافيد على المؤخرة. وجلس لوك

وهيلين معًا على جانب. وحملت أليس الصغير بول الذى لم يحظ بالمداعبة والتدليل بما يكفى أبدًا: ينال القليل جدًا منه من أمه. وجلست جين إلى جوار مقعد دوروثى التى كانت عند الموقد والمغرفة فى يدها. والقت هاربيت نظرة على أمها؛ امرأة ضخمة الجسم لتمتع بالصحة، فى الخمسينات من عمرها، بتجعيد خصلة شعرها الرمادى بلون الحديد، ووجهها الوردى الطازج، وعينيها الزرقاوين الواسعتين مثل قطع الكراميل "اللولى بوب". وهى دعابة عائلية. ودار بخلدها؛ أنا قوية مثلها تمامًا. سوف أحيا. وابتسمت لأليس؛ رقيقة نحيلة، وقوية مفعمة بالطاقة، وفكرت مرة أخرى، هاتان السيدتان العجائز، أنظر إليهم، لقد عاشوا وبقوا عبر كل الأحوال والظروف.

كانت دوروثى تملأ أطباقهم بحساء الخضر، وجلست متمهلة مع طبقها، ومرر الخبز على الجميع فى سلة كبيرة.

عادت السعادة ترفرف، وجلست على المائدة معهم، بينما يدها غير مرئية أسفل سطح المائدة، مطبقة على العدو، منذرة: ابق هادئًا.

قال لوك: "احك لنا قصة يا أبى".

ففى أيام المدرسة غدًا يتناول الأطفال العشاء مبكرًا، ثم يذهبون للنوم، لكن فى أيام الجمع والسبت كانوا يأكلون مع الكبار، وتُحكى لهم قصة أثناء تناول الطعام.

كان الجو دافئًا، فى إطار المطبخ المضياف، معبأ بالبخار مع رائحة الحساء، وكان الليل عاصفًا فى الخارج، فى شهر مايو، ولم تكن الستائر مسدلة، وجزء منها مفروش عبر النافذة: وهو الجزء الخاص بالربيع، مزهر بزهور أصيلة نابتة ومحتفظة بنقائها، شاحبة فى الشفق، بينما الهواء الذى يضرب زجاج النافذة ذبل جنوبًا أسفل جبل جليدى ما أو حقل ثلجى ما. كانت هارييت تقلب الحساء بالملعقة وتسقط فيه قطعًا من الخبز، وشهيتها هائلة لا يمكن إشباعها - بشكل فظيع حتى أنها كانت خجلة من منه، وكانت تغزو الثلاجة عندما لا يكون هناك من يراها. كانت تقطع رحلاتها الليلية لتتخم نفسها بأى شىء يمكن أن تجده لتأكله، حتى أنها كان لها مخابئ، مثل مخازن مدمنى الخمر، لكنه كان من الطعام، أو الشيكولاتة، أو الخبز، أو الفطائر.

بدأ دافيد يحكى، "ذات يوم، انطلق طفلان ولد وبنت فى مغامرة إلى الغابة. سارا لمسافة طويلة فى الغابة، وكان الجو حارًا فى الخارج؛ لكنه كان باردًا تحت الأشجار. ورأوا غزالة ترقد فى الأسفل - تأخذ قسطًا من الراحة، وحلقت الطيور من حولهم تغنى لهم."

توقف دافيد وتناول بعضًا من الحساء، وجلست هيلين ولوك وعيونهما معلقة بوجهه دون حراك. واستمعت جين أيضًا للحكاية، لكن بشكل مختلف:

حين ذات الأربعة أعوام: تطلعت لترى كيف يتجاوبون مع الحكاية، وقلدتهما مثبتة عينيها على أبيها.

سأل لوك عابسًا متشككًا، "هل تغنى الطيور لنا؟" كان له وجه قوى وعنيف؛ وكالعادة طلب معرفة الحقيقة. قالت هيلين، "بالطبع لا أيها السخيف، إنها غابة سحرية."

قالت دوروثى بصراحة، "بالطبع هى تغنى لكم."

كان الأطفال فى البداية قد شبعوا وجلسوا والملاعق فى أياديهم وعيونهم مفتوحة فى اتجاه أبيهم. غلب على قلب هارييت شعور بالحزن: بسبب ثقتهم بلا حدود، وحالتهم الميئوس منها. وكان التليفزيون مفتوحًا: كان صوت مهنى باردًا يخبر المشاهدين بنبأ حالات القتل فى ضواحى لندن، فتحركت متثاقلة القلقه، ثم تهادت متراجعة وصبت لنفسها المزيد من الحساء مملوء بقطع الخبز... واستمعت لصوت دافيد يقوم الليلة بأداء دور راوى الحكايات التى سبق وقامت به كثيرًا فى المطبخ بصوتها وصوت دوروثى.

"عندما شعر الطفلان بالجوع وجدا دائمًا أجمة مغطاة بحلوى الشيكولاتة. ثم وجدا بركة من عصير البرتقال. كانا شبه نائمين، راقدين أسفل شجيرة بالقرب من الغزالة الصديقة، وعندما استيقظا قالا للغزالة شكرًا، ومضيا فى طريقهما.

"فجأة، وجدت الفتاة الصغيرة نفسها وحيدة. ضلت هى وأخوها الطريق وتاها عن بعضهما البعض:

وأرادت العودة لبيتها. لكنها لم تعرف أى طريق تسلك
وبحثت عن غزالة أخرى، أو عصفور الدورى، أو أى
طائر ليقول لها أين هى، ويرشدها للطريق إلى خارج
الغابة. وهامت على وجهها هنا وهناك لمدة طويلة، ثم
شعرت ثانية بالعطش. انحنت ناحية بركة متسائلة إذا
ما كانت من عصير البرتقال، لكنها كانت بركة مياه
مياه غابة صافية ونقية مذاقها بطعم نباتات وأحجار
وشربت مستخدمة كفها.

عندئذ مد الطفلان الكبار أياديهما لأكوابهم
وشربا. وشبكت جين يديها لتشكل كوبًا.

"جلست الفتاة الصغيرة بجوار البركة. وبسرعة
حل الظلام، ومالت جهة البركة لترى إذا ما كانت
هناك سمكة يمكن أن تخبرها بالطريق للخروج من
الغابة، لكنها رأت شيئًا لم تتوقعه. كان وجه بنت تنظر
إليها مباشرة، كان وجهًا لم تر مثله أبدًا من قبل فى
حياتها كلها. كانت هذه البنت الغريبة تبتسم، لكنها
ابتسامة بغيضة ليست ودودة؛ وهيأ للفتاة الصغيرة أن
هذه البنت كانت على وشك الخروج من الماء لتصل
إليها وتجذبها لأسفل فى البركة..."

وندت عن دوروثى تنهد ثقيل مصدومة ومتحفظة
لأنها شعرت أن هذه الحكاية مرعبة لحد بعيد حتى
تحكى للأطفال وقت النوم.

لكن الأطفال جلسوا فى حالة من التصلب
والانتباه. وصار لون بول الصغير رماديًا شاحبًا وهو

راقد على حجر أليس، وطلب من هيلين بجدية، "كونى هادئة واخرسى."

لم تر "فيليس" - كان هذا اسم الفتاة الصغيرة - مثل هذه العيون المثيرة للرعب.

سألت جين، "هل تلك الفتاة تذهب للحضانة التى أذهب إليها؟"

قال لوك، "لا."

وقالت هيلين، "لا."

توقف دافيد عن الحكاية ووضح أنه كان يلتقط أنفاسه. كان جهمًا ولديه مظهر الذاهل - كما لو كان يعانى من صداع. أما هارييت فقد كانت ترغب فى أن تصرخ فيه، "توقف، أوقف هذه الحكاية! - أنت تتحدث عنى - هذا ما تشعر به نحوى! لم تستطع أن تصدق أن دافيد لا يرى الأمر على هذا النحو.

وسأل لوك، "ماذا حدث بعدها؟ ماذا حدث بالضبط؟"

"انتظر" قال دافيد. "انتظر، حسائى..." أكل.

قالت دوروثى بصرامة، "أنا أعرف ما حدث... قررت فيليس أن تغادر تلك البركة المقززة على الفور، وجرت مسرعة عبر ممر حتى التقت مصادفة بأخيها، وكان يبحث عنها. ثم أمسك كل منهما بيد الآخر وجريا خارج الغابة، وأكملا الطريق بأمان إلى بيتهما."

قال دافيد، "هذا ما حدث بالضبط،" وكان يبتسم
بصورة محزنة، لكنه بدا مرتبكًا.

تساءل لوك متلهفًا، "هل هذا حقًا، حقًا يا أبى؟"

قال دافيد، "بالتأكيد."

ثم سألت هيلين، "من هى تلك الفتاة التى كان
فى البركة، من كانت؟" وهى تنقل عينيها من أبيها إلى
أمها.

قال دافيد بشكل عارض، "مجرد بنت مسحورة
ليست لدى أية فكرة، إنها مجرد تجسيد ما."

فسأل لوك، وهو ينطق الكلمات بصعوبة، "وما
التجسيد؟"

قالت دوروثى، "حان وقت النوم."

وصرخت جين، "لم نحصل على أى من حلوى
البودينج!"

ردت دوروثى، "ليس هناك بودينج. هناك فاكهة."

واصل لوك إلحاحه فى السؤال، "ما التجسيد يا
أبى؟"

"إنه وجود الشىء بغتةً بعد أن كان غير موجود."

انتحبت هيلين بضيق، "لكن لماذا، لماذا هذا؟"

حسمت دوروثى المسألة، "اصعدوا أيها الأطفال."

أخذت هيلين تفاحة، و أخذ لوك أخرى، وحملت
جين بعض الخبز من طبق أمها مع ابتسامة سريعة

واعية بشكل عابث مولعة بما تسببه من إزعاج. فلم تكن منزعجة من الحكاية التى حكاها الأب.

ذهب الأطفال الثلاثة محدثين ضجة أعلى السلالم، ونظر الرضيع بول خلفهم، مستبعدًا عنهم ووجهه يتغضن، متأهبًا للبكاء.

وصعدت أليس معه بسرعة خاطفة خلف الأطفال قائلة، "لم يحك لى أحد أى حكايات عندما كنت صغيرة!" ولم يكن ممكنًا تحديد ما إذا كان هذا التعليق نوعًا من الشكوى أم "أنها كانت أفضل هكذا."

فجأة، عاد لوك أسفل الدرج، "هل سيحضر الجميع لقضاء إجازات الصيف؟"

نظر دافيد نظرة خاطفة بقلق على هارييت. ثم نظر بعيدًا. وثبتت دوروثى نظرها على ابنتها.

ردت هارييت بوهن، "نعم بالطبع!"

وردد لوك كلامها صاعدًا بفرح أعلى الدرج، "قالت بالطبع!"

قالت دوروثى، "لسوف تتجبين هذا الطفل فقط."

أجابت هارييت، "أنه أمر يعود إليك أنت وأليس، إذا كنتما تشعران أنكما لا تستطيعان الاحتمال، عندها عليكما أن تقولا ذلك."

قالت دوروثى بتحفظ، "يبدو لى أننى أتوافق."

وقال دافيد بسرعة، "نعم، أنا أعرف، أنت رائعة حقًا."

"وأنت لا تعرف ماذا اقترفت من خطأ."

رد دافيد، "لا تفعلى." وقال لهاريت: إنه من الأفضل بكثير أن ننحى الأمور جانبًا، وأن نستقبلهم جميعًا فى الكريسماس."

قالت هاريت، "لسوف يشعر الأطفال بإحباط شديد."

وإن لم يبد هذا مثل إصرارها القديم: كان كلامها سطحيًا لا مبالٍ. كان كل من زوجها وأمها يختبرانها بفضول. لذا شعرت بتفحصهم لها دونما ود أو انحياز! ثم قالت بكلاحة، "حسنًا، ربما ولد هذا الطفل مبكرًا، بالتأكيد عليه أن يولد مبكرًا." وضحكت متألمة، وصعدت فجأة معلنة بقوة، يجب أن أتحرك، يجب على ذلك! وبدأت مشيتها العنيدة المؤلمة ساعة بعد ساعة للخلف وللأمام، لأعلى ولأسفل.

ذهبت إلى الطبيب بريت فى الشهر الثامن من حملها وسألته أن يستحث الولادة ويجريها الآن. نظر إليها بانتقاد وقال، "اعتقد أنك لا تؤمنين بما تقولين."

"لا أؤمن به. لكن الوضع مختلف."

"ليس كما يمكننى أن أرى."

"لأنك لا تريد أن تفعلها. ليس أنت من يحمل هذا —وقاطعت حديثًا بالقول، "المسخ"، خائفة من معارضته للوصف. ثم قالت، "أنظر، محاولة أن تبدو هادئة لكن صوتها كان غاضبًا متهمًا إياه، "هل تقول إننى امرأة

غير منطقية؟ امرأة هستيرية؟ امرأة صعبة المراس؟ أو مجرد امرأة هستيرية مثيرة للشفقة؟"

"إننى لأقول إنك منهكة تمامًا. منهكة حتى النخاع. أنت لم تجدى مسألة حملك سهلاً أبدًا، أليس كذلك؟

هل نسيت؟ كنت عندى هنا جالسة خلال أربع مرات حمل، بكل أنواع المشاكل، كلها ترجع إليك؛ لقد خططت لكل شىء بشكل جيد جدًا."

"لكنه ليس نفس الشىء، إنه مختلف بشكل مطلق، أنا لا أفهم لماذا لا يمكنك أن ترى المر على حقيقته؟ هل تراه؟ وكشفت بطنها التى كانت تعلو وتهبط بشكل إيقاعى - كما شعرت بها - ومهتاجة بينما هى جالسة هناك.

نظر الطبيب إلى بطنها ملتبسًا ومترددًا وتنهد ثم كتب لها وصفة بالمزيد من المهدئات.

لا، إنه لم ير الأمر على حقيقته. بالأحرى - لن يفعل - هذه هى المسألة. ليس هو فقط - لكن كلهم، فهم لن يروا إلى أى مدى كان هذا الجنين مختلفًا.

وبينما سارت بخطى واسعة، وجرت فوق الأزقة فى الريف تخيلت أنها أخذت سكين المطبخ الكبيرة وشقت بطنها وأخرجت الجنين —وعندما وضع كل منهم عينيه على الآخر بعد هذا الصراع الطويل الأعمى، فماذا كانت لترى؟

بعدها بشهر تقريبًا بدأ الألم. كانت فى المرا
السابقة مجرد أن تبدأ فى آلام المخاض كانت الولا
تمضى سريعًا. اتصلت دوروثى بدافيد فى لند
وأسرعت بهارييت إلى المستشفى. ولأول مرة ألح
هارييت على الولادة فى المستشفى مفاجأة الجميع.

أثناء ذلك كانت هناك، تتلوى من الألم، ألم أسوا
كما أدركت - مما كان فى الماضى على الإطلاق. بدا ا
الجنين يقاتل فى طريقه للعالم. كانت بها خدوش
علمت أنه لا بد وأن هناك كدمة سوداء هائلة
داخلها... وأنه لن يعلم أحد بذلك أبدًا.

وأخيرًا، عندما حانت اللحظة، وأمكن إعطاؤها
دواء "أوبليفون" لتحفيز الولادة؛ صرخت ممرضة
قائلة، "حمدًا لله، حمدًا لله، لقد انتهى الأمر أخيرًا!
هذا المولود جلف صغير بحق، انظر إليه." ثم سمع
صوت امرأة تقول، "سيدة لوفات، سيدة لوفات، ها
مازلت معنا؟ عودى إلينا! فزوجك العزيز هنا، لقد
رزقت بمولود مكتمل العافية."

وقال د.بريت، "إنه حقًا مصارع صغير، لقد أتى
محاربًا العالم بأسره."

رفعت نفسها بصعوبة لأن النصف السفلى من
جسمها كان معتلاً جدًا حتى يمكنها أن تتحرك
ووضعت الطفل على ذراعيها. الطفل يزن ١١ باوند
لم يكن إخوته الآخرون يزنون أكثر من ٧ باوند. كان
وليدًا قوى البنيان، أصفر وطويل، وبدا أنه يحاول ا
يقف إذ كان يدفع قدميه تجاهها.

قال دافيد، "إنه لغلام صغير غريب." وبدا من صوته أنه مرعوب.

لم يكن طفلاً جميلاً. ولم يبد مثل طفل وليد بالمرة. كانت لديه نظرة ثقيلة ذات حدبة، كما لو كان رابضًا هناك، بينما كان راقدًا. وانزلقت جبهته من عينيه إلى رأسه حيث بدأ إسفين أو مثلث نزل للأسفل على جبهته، وشعره يرقد أمامه على هيئة جذامة (شيء نام على نحو قصير كثيفة صفراء)، بينما شعر الجوانب والقفا قد نما لأسفل.كانت يداه سميكتين وثقيلتين، بلبدات من العضل فى الراحتين. فتح عينيه، ونظر إلى وجه أمه. كانت عينان صفراوين مخضرتين ومتفحصتين، مثل كتل من الحجر الصابونى. كانت تنتظر لتتبادل النظرات مع المخلوق الذى كانت واثقة انه يحاول إيذاءها،لكن لم يكن هناك اعتراف بذلك. وانقبض قلبها بالشفقة عليه: تلك البهيمة أو الشخص البهيم الصغير البائس الذى لا تحبه أمه كثيرًا... لكنها سمعت نفسها تقول بعصبية رغم أنها متعبة لحد الضحك، "إنه مثل قزم أو (جبار خرافى يسكن الكهوف او تحت الأرض فى الميثولوجيا الإسكندنافية) جنى أو غول أو عفريت، أو شىء من هذا القبيل." ثم ربتت عليه لتعوضه أو لتصالحه. لكنه كان صلبًا وثقيلاً.

قال لها د.بريت متضايقًا، "هذا اللعين، أربع مرات تلدين وكان الأمر رائعًا، وها هو ذا الآن مثل ناظر مدرسة.

ثم كشفت ثدييها وألقمت الرضيع حلمتها
ووقفت الممرضات، والطبيب، وأمها، وزوجها يراقبو
وعلى وجوههم الابتسامة التى تقتضيها اللحظة، لكر
لم يكن هناك أى من مظاهر الاحتفال أو الشعور
بالإنجاز، ولا شمبانيا؛ على العكس كان هناك أثر مر
الخوف من شر مرتقب فى داخل كل واحد منهم
حدث رد فعل انعكاسى قوى لفعل الرضاعة (مص
الحلمة)، وقبضت اللثة الخشنة على حلمتها
واضطربت. نظر إليها الرضيع وقضم بعنف.

قالت هارييت، "حسنًا،" محاولة أن تضحا
ومبعدة إياه عنها.

قالت ممرضة، حاولى معه مرة أخرى،"

لم يكن يصرخ - كأى طفل - وحملته بعيدًا متحدي
الممرضة أن تأخذه منها.

أطبقت الممرضة فمها معترضة وأخذت الرضيع
ووضع دون اعتراض منه فى سريره الخاص.

لم يصرخ منذ ولد إلا صرخة واحدة على سبيل
الاعتراض، أو ربما دهشة.

وأتوا بالأطفال الأربعة إخوته ليشاهدوا أخاه
الجديد فى عنبر المستشفى. وقامت السيدتان اللتا
شاركتا هارييت فى العنبر من على سريرهما وأخذا
طفليهما إلى حجرة نهارية. ورفضت هارييت أن تقو
من سريرها. وأخبرت الأطباء والممرضات أنها تحتا

بعض الوقت حتى تشفى الكدمات الداخلية؛ قالت ذلك بتحد تقريبًا، وبلا اهتمام، ولا مبالاة بنظراتهم المنتقدة لها.

وقف دافيد عند طرف السرير حاملاً بول الصغير، الذى فصلت عنه أمه بعد ولادته بسرعة، وكانت قد أحبت مظهره؛ الوجه الناعم الصغير الضاحك، بعينيه الزرقاوين الناعمتين -اعتقدت أنها مثل عشب ذى أزهار زرقاء وأطرافه الصغيرة الفضة... ويديها كما لو كانت تنزلق عبرها ثم تطبق على قدميه فى راحتيها. رضيع حقيقى، طفل صغير حقيقى.

حملق الأطفال الثلاثة الأكبر سنًا إلى الوافد الجديد الذى كان مختلفًا عنهم جميعًا إلى حد بعيد. بدا لهارييت أنه من مادة مختلفة. كان هذا جزئيًا بسبب أنها كانت لا تزال تستجيب لنظرته بذكرياتها عن اختلافه وهو فى رحمها، وجزئيًا بسبب بلادته الثقيلة الضحلة؛ ثم كانت هناك تلك الرأس الغريبة منزلقة للخلف من قمة حاجبى العين أو خط التقاطع الأعلى بين الحاجبين.

قالت هارييت، "سوف نسميه بِن."

قال دافيد، "فعلاً، نعم إنه يناسبه."

أمسك لوك بيديه الصغيرتين من جانب، وهيلين من الجانب الآخر وقالا، "مرحبًا بين. مرحبًا بين." لكن الرضيع لم ينظر إليهما.

ثم أخذت جين، ذات السنوات الأربع، واحدة م
قدميه فى يدها، ثم فى يديها الاثنتين لكنه ضربها
بعنف بعيدًا.

وجدت هارييت نفسها تفكر، أتساءل كيف تبد
الأم، تلك الأم التى عليها أن ترحب بهذا الغريب.

ظلت فى السرير لأسبوع ـ هكذا حتى شعرت أنها
تستطيع إدارة الصراع القادم ـ ثم عادت لمنزلها م
طفلها الجديد.

فى تلك الليلة، فى حجرة النوم الزوجية، جلس
فى مواجهة كوم من المخدات ترضع وليدها بينما
دافيد يراقب المشهد. مصّ بين بعنف حتى أنه فرغ م
الثدى الأول فى أقل من دقيقة، وكان عادة عندما يكو
الثدى على وشك أن يفرغ من اللبن يجرش فكيه معًا
ولهذا كان عليها أن تنتزعه بعيدًا قبل أن يبدأ ف
ذلك، وبدت كما لو أنها تحرمه من ثديها بلا رحمة
وسمعت صوت تسارع أنفاس دافيد من الإحساس
بالرعب.

ثم جأر بن بغضب وأطبق، مثل كائن طفيلى، على
الحلمة الأخرى، ومصّ فيه بعنف شديد حتى أنها
شعرت أن ثديها بأكمله يتلاشى أسفل حلقه. وتركت
فى هذه المرة على الحلمة حتى جرش على فكيه معًا
بعنف، وصرخت دافعة إياه بعيدًا عنها.

قال دافيد، "إنه طفل خارق للعادة " مانحًا إياها
الدعم الذى احتاجته.

"نعم، إنه كذلك، إنه غير عادى بصورة مطلقة."

"لكنه بخير، إنه فقط..."

قالت بمرارة، مستشهدة بما قالوه فى المستشفى، "طفل عادى يتمتع بالصحة، ولا بأس به!"

التزم دافيد الصمت: كان هذا الغضب والإحساس بالمرارة داخلها هو ما لم يستطع التعامل معه.

حملت بن فى الهواء عاليًا. كان بن يصارع، ويحارب، ويقاوم وهو بين يديها، ويصرخ بطريقته الخاصة التى كانت مثل زئير أو خوار؛ بينما يتحول لونه إلى الأبيض المصفر من الغضب. لا إلى الأحمر مثل طفل صليبى عادى.

عندما حملته لتخيفه بدا وكأنه واقف بين ذراعيها، وشعرت بالضعف من خوفها من التفكير أن تلك القوة كانت حتى وقت قريب تعيش داخلها، وأنها تحت رحمتها. ولأشهر ظل يحارب ليخرج، تمامًا مثلما يحاربها الآن، وهى ممسكة به، ليصبح مستقلاً!

وعندما أرقدته فى سريره، الأمر الذى كان يسعدها القيام به نظرًا لأن ذراعيها كانا يؤلمانها كثيرًا، جأر بصوت عال غاضب، لكنه رقد بعد قليل هادئًا، لا نائمًا بل متيقظًا تمامًا وعيناه مثبتتان، وجسمه بأكمله ينثنى وينفرد بحركة دفع قوية للكعبين والرأس كانت مألوفة لها: هذا ما جعلها تشعر أنها تتمزق إربًا وهو جنين فى رحمها.

عادت إلى السرير بجوار دافيد، ففرد ذراعه حتى تتمكن من الرقود داخل ذراعه لكنها شعرت .. غدارًا وغير أهل لثقتها؛ لأنه لم يكن ليعجب بما كان تفكر فيه بالتأكيد.

بعد وقت قصير أنهكت من إرضاع بن؛ لا لأنه ل. ينم: فقد نما، وزاد رطلين عندما أكمل شهرًا عن وز.. ساعة مولده، وهو الوزن الذى كان ليزنه أسبوعًا قـ. هذا التوقيت لو ولد بعد حمل تسعة أشهر كاملة.

كان ثدياها يؤلمانها، ويختزنان لبنًا أكثر مما كا. بهما من قبل على الإطلاق، وانتفخ صدرها إلى كرتـ. كبيرتين بيض يوشكان على الانفجار قبل كل إرضا. جديد، وكان بين يجأر صارخًا عليها بالفعل فترضعه ويحلب كل نقطة من لبنها فى دقيقتين أو ثلاث عا. الأكثر؛ وشعرت كأن اللبن يسحب منها فى تيارات! با الآن شيئًا جديدًا: أخذ يعتاد على وقف عملية الم.. الضارية عدة مرات أثناء إرضاعه، ويجز على فك.. معًا فى حركة طحن عنيفة جعلتها تصرخ من الألم وبدت لها عيناه الباردتان تنضحان بالغل.

وقالت لدوروثى التى كانت تراقب تلك "المعركة بالنظرة التى كانت تبدو لهارييت كلما كان أحدهـ. يراقب بن، "سوف أحوله إلى الرضاعة الصناعـ. بالبزازة." كانت خامدة تمامًا وخاملة، ومذهولة وتقريبًا منومة، لكنها فى ذات الوقت كانت ساكـ. يغمرها شعور بالكراهية. وخوف أيضًا؟

توقعت أن تعترض أمها وتقول، "لكنه فى أسبوعه الخامس فقط!" لكن ما قالته دوروثى كان، "نعم عليك ان تفعلى، و إلا ستمرضين." وعلقت قائلة بعدها بقليل وهى تراقب بن يجأر ويتأوه ويحارب، "لسوف يحضرون جميعهم قريبًا لقضاء الصيف معنا." كانت تتحدث بطريقة جديدة عليها كما لو كانت تستمع لما تقوله وخائفة مما قد تتفوه به، هذا ما أدركته؛ لأنه كان ما شعرت به كلما قالت شيئًا. هكذا يتحدث الناس الذين تتوالى أفكارهم بسرية فى مسارات يفضلون لو أن الآخرين لا يعلمون شيئًا عنها.

أتت دوروثى فى ذات اليوم إلى حجرة النوم حيث أرضعت هارييت بن، ورأتها تجذبه بعيدًا عن ثدييها اللذين كانت بهما كدمات وجروح حول الحلمات من كل اتجاه، وقالت، "افعليها، افعليها الآن، لقد اشتريت زجاجات الإرضاع واللبن، إننى أقوم بتعقيمها الآن."

قال دافيد موافقًا فى الحال، "نعم، افطميه،" لكنها أرضعت أطفالها الأربعة الآخرين لشهور، وكانت هناك بالكاد زجاجات إرضاع بالمنزل.

كان الكبار؛ هارييت ودافيد، ودوروثى وأليس حول المائدة الكبيرة، وقد ذهب الأطفال ليناموا، وحاولت إرضاع بن بالزجاجة، أنهى ما فيها فى لحظة بينما جسمه يمسك بإحكام ويفلت وركبتاه مثنيتان لأعلى فى معدته ثم تمددت مثل زنبرك.

قالت دوروثى، "فلتعطه زجاجة أخرى،" وشرعت فى إعداد واحدة أخرى.

وقالت أليس بتودد، محاولة بصعوبة أن تخ...
مشاعرها لكنها بدت مرعوبة،" يا لانفتاح شهيته."

أتى على الزجاجة الثانية: كان يسندها بقبض...
يديه بنفسه، واحتاجت هارييت بالكاد أن تلمسها ...
قالت، "طفل نياندرتالى(*)."

وقال دافيد بصعوبة، "تعالى هنا أيها الف...
الصغير البائس."

قالت هارييت، "يا إلهى يا دافيد، إننى الأقر...
لأن أكون البائسة."

"حسنًا، حسنًا، لقد أتت الجينات بشىء مم...
هذه المرة."

"لكن ما هذا الشىء؟ هذه هى المسألة،" سأل...
هارييت، "من هو؟"

لم يقل أحد منهم الثلاثة الآخرون شيئًا - أو عل...
وجه الدقة قالوا بصمتهم إنهم يفضلون ألا يواجهوا أ...
تلميحات حول الأمر.

قالت هارييت، "حسنًا، دعونا نقول إن لديه شهي...
فى حالة صحية إذا كان هذا يريح الجميع."

أخذت دوروثى المخلوق المحارب من هاريي...
وانهارت عائدة إلى مقعدها منهكة، وتغير وجهه...

(١) طفل نياندرتالى: منسوب إلى النياندرتال بألمانيا؛ قر...
دوسيلدورف حيث وُجدت بقايا هيكل عظمى لإنسان يعتقد ا...
الأقدم حتى الآن وأطلق عليه إنسان النياندرتالى (المراجع).

عندما شعرت بالوزن غير الملائم للطفل وتصلب جسمه، وعدلت وضعها بحيث لا تصلها أرجل بن التى كانت مثل مكبس.

بعدها، كان بن يأخذ ضعفىّ كمية اللبن التى يوصى بها لمن فى سنه وفى مرحلته فى النمو: عشر زجاجات وأكثر يوميًا. وأصيب بالتهاب فأخذته هارييت إلى د.بريت، الذى قال، "الرضيع الذى يرضع رضاعة طبيعية لا يجب أن يصاب بالتهابات."

"إنه لا يرضع رضاعة طبيعية."

"هذا ليس من عادتك يا هارييت! كم عمره؟"

"شهران." قالت هارييت. وفتحت ثوبها لتريه ثدييها، وأنهما ما زالا يفرزان اللبن كما لو كانا يستجيبان لشهية بن التى لا تهدأ. كان ثدياها متشققين بلون أسود حول الحلمة من كل اتجاه.

نظر الطبيب للثديين البائسين فى صمت، ونظرت هى إليه: بدا وجهه كطبيب يتمتع باللياقة وحسن الاعتناء بمرضاه يواجه مشكلة تفوق قدراته.

وأذعن قائلاً، "طفل شرير،" وضحكت بصوت عال فى دهشة.

احمر وجه د.بريت وتلاقت عيناه بعينيها لبرهة فى إدراك لشعورها بالخزى والتأنيب، ثم نظر بعيدًا.

قالت، "كل ما أحتاجه وصفة لعلاج الإسهال. ثم أضافت محدقة فيه عن عمد، مشجعة له كى ينظر

إليها، "فى النهاية أنا لا أريد أن أقتل هذا الكا،
الغامض الشبيه بالبهيمة."

تنهد الطبيب، وخلع نظارته، وحكها لينظفها
ببطء، مقطبًا جبينه، لكن ليس لعدم اتفاقه معها.
وقال، "إنه ليس من غير المألوف أن تشعرى بعد
الحب نحو طفل من أطفالك. إننى أرى ذلك طوال
الوقت لسوء الحظ."

لم تقل شيئًا لكنها كانت تبتسم دون سعادة مدركة
لذلك.

"دعينى ألقى نظرة عليه."

انتشلته من عربة الأطفال وأرقدته على طاولة
الفحص. وعلى الفور انثنى على بطنه، وحاول أن يقف
على أطرافه الأربعة، ونجح بالفعل للحظة قبل أن
ينهار راقدًا.

نظرت بثبات نحو د.بريت لكنه انحرف بعيدًا إلى
مكتبه ليكتب وصفة طبية.

قال، "بنفس الملاحظة المحيرة التى توحى
بالإدانة، والتى كان بين يدفع الناس لإلقائها، "من
الواضح أنه ليس هناك الكثير من العيب فيه."

فألحت فى سؤالها، "هل رأيت من قبل رضيعًا فى
شهره الثانى يفعل مثله هكذا؟"

"لا، على أن أعترف أنه لم يسبق لى أن رأيت مثل
ذلك. حسنًا، فلتدعينى على علم كيف تسير الأمور
معك من الآن فصاعدًا."

طارت الأخبار سريعًا إلى أفراد العائلة بأن المولود الجديد ولد بنجاح، وأن كل شىء على ما يرام؛ بمعنى أن هارييت على ما يرام. وكتب الكثير منهم، واتصلوا تليفونيًا ليقولوا إنهم يتطلعون لقضاء إجازات الصيف معهم. قالوا، "نحن مشتاقون لرؤية المولود الجديد." وقالوا، "هل بول الصغير ما زال مرحًا لذيذًا كما كان؟" وصلوا للمنزل وقد جلبوا معهم النبيذ، ومنتجات الصيف من جميع أنحاء البلاد، ووقف جميعهم يعبئون عصير الفاكهة فى زجاجات، ويعدون المربى وصلصة الثمار والأعشاب والتوابل مع كل من اليس ودوروثى. لعب حشد من الأطفال فى الحديقة، او أخذوا إلى الغابة فى نزهات خلوية.كان بول الصغير المُغرى بالعناق والمداعبة، المُسلى لأحدهم دائمًا يطلق ضحكته وتسمع فى كل مكان: كانت هذه طبيعته الحقيقية التى غطى عليها بن بطلباته وشخصه.

ولأن المنزل كان مزدحمًا للغاية تجمع الأطفال الكبار فى حجرة واحدة، بينما بين فى عربة أطفال ذات جوانب خشبية مضلعة، حيث قضى وقته دافعًا نفسه لأعلى فى وضع الجلوس، والسقوط، والتدحرج. وضعت هذه العربة فى الغرفة حيث كان الأطفال الكبار؛ على أمل أن يصبح اجتماعيًا، وودودًا عن طريق إخوته وأخواته. لم ينجح الأمر فقد تجاهلهم، ولم يكن ليستجيب لمبادراتهم، وسبب بكائه - أو بدقة اكثر خواره أو زئيره أو جيئره - صراخ لوك فى وجهه،

"أوه، اخرس!" لكنه انفجر بعدها فى البكاء لعدم وجو
أى ألفة بينهما. أما هيلين التى كانت فى عمر اعتاد
فيه البنات تدليل المواليد، فقد حاولت حمل بن لكن
كان قويًا للغاية عليها. ثم وضع كل الأطفال الكبار ف
العلية حيث أمكنهم أن يأتوا بما شاء لهم من ضجيج
وعاد بن إلى حجرته "حجرة المواليد". ومن هنا
سمعوه ينخر كالخنزير، وصوت تنفسه المسموع كان
شيئًا يعوق تنفسه فى أنفه، وجأره من فشله كلما حاو
الوقوف على قدميه وسقط.

وبالطبع قدم المولود الجديد لكل واحد من
الحاضرين ليحمله كلما طلبوا، لكن كان من المؤلم رؤية
وجوههم تتقلب عند مواجهة الطفل الظاهرة. كان "بن
يعاد دائمًا وبسرعة لمن يحمله. ذات يوم، دخل
هارييت المطبخ وسمعت أختها سارة تقول لابن عمها
"ذلك الـ"بن" يصيبنى بالخدر ويوقع فى نفسى الرعب
إنه جنى أو غول أو قزم أو شىء من هذا القبيل. إننى
أفضل أن آخذ آمى المسكينة فى أى يوم."

أصاب هذا هارييت بالندم: بين المسكين، الذى لا
يوجد من استطاع أن يحبه. هى بالتأكيد لم تستطع!
ودافيد، الأب الروحى بالكاد لمسه منذ مولده. حملت
بن من عربته التى كانت أشبه بالقفص ووضعته على
السرير الكبير، وجلست معه، ودندنت وهى تهدهده.
"بن المسكين، بن المسكين." فأمسك قميصها بإحكام
بيديه، وجذب نفسه لأعلى، وجلس على فخذها.

فآلمتها أقدامه الصغيرة القوية. حاولت أن تعانقه، وأمرته حتى يصير ألطف معها... لكنها تراجعت واستسلمت بسرعة، وأعادته إلى حظيرته، أو مهده... وجأر من الإحباط لأنه وضع بعيدًا فمدت يدها إليه، "بن المسكين، عزيزى بن ،" وأمسك يديها بقوة، وجذب نفسه لأعلى ثانية ووقف يزأر ويجأر بالنصر. وبينما كان عمره أربعة شهور... كان مثل قزم صغير أو كائن جبار خرافى صغير من سكان الكهوف أو تحت الأرض؛ صغير، وغاضب، وعدوانى.

كانت لديها وجهة نظر فى الذهاب إليه كل يوم عندما يكون الأطفال الكبار بعيدين، وأخذه إلى السرير الكبير لبعض الوقت حيث تهدهده وتلعب معه، كما فعلت مع كل أطفالها. لكن، أبدًا، ولا فى مرة واحدة حتى استسلم لأية حركة محبة أتت بها معه، لقد قاومها، وجاهدها، وحاربها. ثم بعدها أدار رأسه وأغلق فكيه على إبهامها، ليس كما يفعل رضيع عادى، أو كطفل ستكشف الاحتمالات والأشياء بفمه ولسانه: شعرت بأن عظام إبهامها تنحنى، ورأت ابتسامته العريضة الباردة المبتهجة بالانتصار عليها!

سمعت نفسها تقول، "أنت لن تسمح لى بالدخول؛ وأنا لن أسمح لك بذلك."

لكنها لفترة حاولت قدر جهدها جعله طفلاً عاديًا. كانت تأخذه فى الطابق الأرضى إلى حجرة المعيشة الكبيرة، حيث كانت العائلة موجودة عادة،

ووضعته مع قطيع الأطفال الصغار حتى أثر وجو
عليهم، ومالوا للابتعاد عنه. أو أخذته إلى المائدة عا
ذراعيها كما فعلت مع أطفالها الآخرين، لكنها ا
تستطع حمله فقد كان قويًا للغاية.

ومرة أخرى كانت إجازة الصيف، رغم بن ، رائع
للجميع على مدى شهرين. ومرة أخرى حضر وال
دافيد لفترة قصيرة وأعطاهم شيكًا لم يكن ممكنًا له
تدبير أمورهم دونه. قال جيمس، "إن هذا المنزل مثا
أن يكون الواحد وسط نوع ما من حلوى البودين
بالفواكه اللعينة. الله وحده يعلم كيف تقومون بذلك."

لكن فيما بعد . عندما فكرت هارييت فى تلك
الإجازات كان ما تذكرته هو الطريقة التى نظروا بها
إلى بن ... كان هناك تحديق ممعن فى تفكير طويل
متحير بل قلق وبعدها أتى الخوف رغم أن كلاً منهم
حاول إخفاءه. كان هناك رعب أيضًا: شعرت با
هارييت أكثر فأكثر، ولم يبد على بن أنه يبالى به أو
حتى يلاحظه، وكان من الصعب بمكان اكتشاف ما
اعتقد فيه بالنسبة للآخرين.

ذات ليلة رقدت هارييت بين ذراعى دافيد قبل
النوم، وتحدثوا حول ما دار فى النهار كما فعلوا دائمًا.
وعلقت من خلال تيار من الأفكار تدفق على رأسها
حول الصيف. "هل تعلم لأى شىءٍ يصلح هذا المنزل؟
الشىء الذى يجعل الناس يأتون إليه؟ إنه الأوقات
الطيبة التى يمكن قضاؤها فيه، هذا كل ما فى الأمر."

أصابته الدهشة، بل أنه صدم وتساءل، "لكن لأى هدف آخر نقوم بما نقوم به؟"

فقالت بصوت بائس، "لا أدرى." ثم استدارت لتقبع فى حضنه وضمها إليه بينما كانت تبكى. لم يكونا قد استعادا علاقتهما الحميمة بعد، وهو ما لم يحدث من قبل أبدًا، فالعلاقة الجنسية بينهم أثناء الحمل، وبعد فترة وجيزة من الولادة لم تكن مشكلة ابدًا. لكن الآن، كان كلاهما يفكر، هذا المخلوق ولد بينما كانوا حذرين ألا تحمل لفترة لأن كليهما شعر، بصورة سرية؟ بالخجل من الأفكار التى جالت بخاطره حول بن - أنه أراد لنفسه أن يولد، وقام بغزو الاعتيادية فى حياتهما، التى لم تكن تملك دفاعات فى مواجهته أو أى شىء مثله. لكن عدم ممارسة الجنس لم يكن فقط مصدر توتر لهما معًا إنما كان عائقًا، لأنهما كان عليهم أن يتذكروا باستمرار ما يتهددهما إن فعلا... هكذا شعرا.

ثم حدث حادث سيىء. بمجرد أن غادر كل أفراد العائلة مع بدء الفصل الدراسى الأول، ذهب بول بنفسه إلى حجرة بن ؛ فقد كان بول من بين كل الإخوة الأكثر افتتانًا به. ثم سمعت دوروثى وأليس، اللتان كانتا معًا فى المطبخ بينما انطلقت هارييت لتوصيل الإخوة الكبار للمدرسة، صرخات آتية من أعلى الدرج، جرت السيدتان ناحية الصوت لتجدا بول وقد وضع يده من خلال قضبان عربته فى اتجاه بن الذى قبض

على اليد الممدودة وجذب بول عكس القضبان ولو.
ذراعه عامداً للخلف. قامتا بتحرير بول من قبضة بن
ولم تكلفا نفسهما عناء توبيخه، وكان يصيح ظافرا
مسروراً يغمره شعور بالإنجاز! تعرض ذراع بول للجذ
بصورة سيئة.

بعدها، لم يشعر أحد بالحاجة لأن يقولوا
للأطفال، "كونوا حذرين من بن ،" لم يكن هناك حاجة
لذلك بعد حادثة ذراع بول. فى ذاك المساء سم
الأطفال بما جرى، لكنهم لم ينظروا لأبويهم أو
لدوروثى أو أليس، بل لم ينظروا حتى لبعضهم
البعض. جلسوا صامتين ورءوسهم منكسة. أبان
الحادث الكبار أن موقف الأطفال من بن قد تشكل
بالفعل: ناقش الأطفال أمر بن وأدركوا ما كان عليهم
التفكير فيه بالضبط. صعد لوك، وهيلين وجين لأعلى
فى صمت، وكانت لحظة تعيسة للآباء.

قالت أليس وهى تراقبهم يصعدون "هؤلاء
الصغار تعساء."

قالت دوروثى، "إنه عار."

شعرت هارييت أن كلتيهما، هاتين العجوزين
القويتين الناجيتين موسميًا من كل الأحداث كانتا
يديناها، لأنها كانت خارج حدود خبرتهم الواسعة فى
الحياة، ولمحت دافيد فرأت أنه يشعر بذات الشعور :
الإدانة، وانتقادهم له، وبالكراهية نحوه: بدا أن بن
سبب كل تلك المشاعر، بل أنه استخرجها من قبو ما
داخل الناس وعرضها للنور...

فى اليوم التالى للحادث أعلنت أليس أنها تشعر أنه لم يعد هناك حاجة إليها فى هذا المنزل، وأنها سوف تعود إلى حياتها: وهى متأكدة أن دوروثى يمكنها تدبير أمرها، فقد صارت جين تذهب للمدرسة الآن، رغم كل شىء.لم تكن جين لتذهب للمدرسة هذا العام، لمدرسة ملائمة على مدى النهار كله، وكان أمامها عام آخر: أرسلوها للمدرسة مبكرًا تحديدًا بسبب بين، رغم أن لا أحد قالها صراحة. غادرت اليس، دون افتراض بأن ذلك بسبب بن ، لكنها قالت لدوروثى، التى أخبرت الأبوين، أن بن كان يسبب لها شعورًا بالاشمئزاز والرعب الشديد، لا بد أنه طفل استبدل بطريقة سرية منذ مولده. وضحكت دوروثى فى حقيقة الأمر عليها؛ لأنها كانت عقلانية دائمًا وهادئة. وذكرت لهم "نعم ضحكت عليها عندما قالت ذلك،" ثم تجهمت وتساءلت " لكن لماذا فعلت ذلك وغادرت؟"

ترافق دافيد وهارييت فى الدور الأرضى، وشعور بالذنب ينتابهم من الأصوات المعبرة عن الشك فيهما، والتى بدا أن بن فرضها. لم يكن قد بلغ ستة أشهر بعد... وقد أوشك أن يدمر حياتهما الأسرية. كان يدمرها بالفعل. كان عليهما أن يتأكدوا أنه فى غرفته أوقات تناول الوجبات، وعندما يكون الأطفال فى الدور الأرضى مع الكبار. باختصار، أوقات الأسرة. الآن صار بن فى حجرته تقريبًا بشكل دائم. ونما فى شهره التاسع بما يفوق مساحة عربته ذات القضبان:

أمسكت به هارييت كما لو كان على وشك السقوط م
قمة العربة تقريبًا. ووضعوا سريرًا صغيرًا عاديًا ف
حجرته. وبدأ المشى بسهولة مستندًا على الحوائط ا
على كرسى. الحقيقة أنه لم يزحف أبدًا بل جذ
نفسه واستقام واقفًا على قدميه. كانت هناك دمى ف
كل مكان على الأرض، أو بدقة أكثر أشلاؤها. لم يلع
بالدمى أبدًا، بل كان يقذفها على الأرض أو عل
الحوائط حتى تتحطم. وفى اليوم الذى وقف فيه
وحيدًا بنفسه، دون إمساك بشىء، جأر بصوت قو
بشعور المنتصر. ابتسم الأطفال الآخرون، ابتسموا
ابتسامة خفيفة مع أنفسهم، وأرادوا أن ينال الح
والإعجاب، والتباهى بوصولهم لهذه اللحظة الفريد
من الإنجاز، لكن هذا الطفل لم يفعل. كان نصرا
باردًا، وتهادى مترنحًا وعيناه تبرقان بسعادة عنيفة
بينما تجاهل أمه. ولطالما تساءلت هارييت ما الذ
يراه عندما ينظر إليها: لم يكن هناك أبدًا شىء ف
لمسته أو نظرته لها يقول، هذه أمى.

مبكرًا ذات صباح، ثمة شىء ما جعل هاريي
تنهض من سريرها وتذهب لحجرته، وهناك رأت بن
متوازنًا ساكنًا فوق النافذة. كانت السماء وحدها هى
التى تعلم كيف وصل لمكانه هذا فى الأعلى! كانت
النافذة مفتوحة، وكان ليسقط منها فى أية لحظة. يا
للأسف أننى جئت الآن... وامتنعت عن الشعور
بالصدمة من نفسها ومن تفكيرها هذا. ووضع
قضبانًا ثقيلة على النافذة، وكان بن يقف هناك على

عتبة النافذة ممسكًا بالقضبان، يهز فيها متأملاً
العالم الخارجى أمامه، مطلقًا صرخاته الكثيفة
الخشنة. واحتجز فى تلك الحجرة طوال أعياد
الكريسماس، ولم يكن غير مألوف أن الناس الذين
سألوا بحذر، "كيف حال بن ؟" وسمعوا الإجابة، "آه،
إنه على ما يرام،" ولم يسألوا عنه ثانية. وأحيانًا
أوقفت صرخة عالية منه بما يكفى لوصولها أسفل
الدرج إليهم حديثًا ما، ورسمت ملامح الرعب على
وجوههم، حتى أن هارييت نفسها فزعت متأملة إياه:
وادركت أنها أخفت تعليقًا ما أو تفكيرًا ما لم يكن
ليعبر عن نفسه بصراحة.

هكذا لم يعد المنزل كما كان؛ كان هناك تكلف
وقلق داخل كل واحد. وعرفت هارييت أن الناس
صعدوا لأعلى أحيانًا ليلقوا نظرة عليه بدافع
الفضول، المشبع بالخوف وعدم الراحة الذى
استحضره بن عندما تكون بعيدة عن المكان؛ عرفت
متى رأوه بسبب الهيئة التى كانوا عليها بعدها، وعبرت
لنفسها عن مشاعر الغضب، "كما لو كنت مذنبة!"
وقضت القسط الأكبر من وقتها مضطربة تمامًا لكنها
لم تبد قادرة على إيقاف ذلك. حتى دافيد اعتقد أنه
ادانها. وقالت له، "أعتقد، أنه فى الأزمنة القديمة فى
المجتمعات البدائية، كانت هذه هى الطريقة التى
عاملوا بها السيدة التى تنجب مثل هذا الكائن
الاستثنائى عجيب الشكل كما لو كان خطؤها، لكن
المفترض أن نكون متحضرين!"

رد عليها بالأسلوب الصبور والمراقب الذى صار
أسلوبه معها الآن، "أنت تبالغين فى كل شىء."

"هذه كلمة جيدة ـ لوصف الموقف! أقدم ال
تهنئتى! أبالغ!"

"بالله عليك يا هارييت، قالها بطريقة مختلفة
ميئوس منها، دعينا لا نفعل هذا. إذا لم نساند بعض
الآخر، إذًا..."

كان الوقت وقت عيد الفصح عندما عادت فتاة
المدارس بريدجيت لترى ما إذا كانت هذه المملكة
المعجزة من الحياة اليومية الأسرية ما زالت هناك،
وتساءلت، "ماذا به؟ هل هو طفل منغولى؟"

قالت لها هارييت، "إنها متلازمة داون، لا أحد
يقول عنها الآن منغولى. لكن لا، إنه ليس كذلك."

"إذًا ماذا به؟"

فأجابتها هارييت بمرح وحيوية، "لا شىء على
الإطلاق، يمكنك أن ترى ذلك بنفسك."

غادرت بريدجيت المنزل، ولم تعد إليه أبدًا.

مرة أخرى، إجازات الصيف فى عام ١٩٧٥. كان
الضيوف أقل: البعض كتب رسالة أو اتصل ليقول إنهم
لا يستطيعون تحمل أجرة القطار، أو ثمن البنزين
وعلقت دوروثى، "أى عذر أفضل من لا عذر على
الإطلاق."

وقال دافيد، "لكن الناس فى حالة عوز شديد."

لم يكونوا معوزين لهذا الحد من قبل حتى لا يتمكنوا من تحمل الحضور والعيش هنا لأسابيع فى وقت من الأوقات على حسابك."

أصبح عمر بن ما يزيد على عام الآن، ولم يكن قد نطق بكلمة واحدة بعد، لكن من نواحٍ أخرى كان الأمر طبيعيًا أكثر، وصار الآن من الصعب احتجازه فى حجرته. وسمع الأطفال وهم يلعبون فى الحديقة صوت صرخاته السميكة الغاضبة، ورأوه فى الأعلى واقفًا على عتبة النافذة محاولاً خلع قضبانها.

هكذا خرج من سجنه الصغير وانضم إليهم فى الدور الأرضى وبدا أنه يعلم أن عليه أن يكون مثلهم. كان يقف ورأسه مدلاة مراقبًا كيف يتحدث الجميع ويضحكون، وكيف يجلسون حول المائدة الكبيرة؛ أو يجلسون فى حجرة المعيشة بينما الأطفال يجرون هنا وهناك. كانت عيناه معلقتين بوجه أحدهم، ثم بآخر: وأى كان من ينظر إليه يصير مرتبكًا من تلك النظرة المحدقة فيه ويتوقف عن الحديث؛ أو يدير له ظهره، أو كتفيه بحيث لا يراه. استطاع أن يفرض الصمت على حجرة مليئة بالناس بمجرد تواجده فيها، أو أن يفرق الجمع: كانوا ينطلقون ملتمسين شتى الأعذار.

قرب نهاية الإجازات حضر أحدهم وجلب معه كلبًا صغيرًا من كلاب الصيد. لم يستطع بن أن يتركه لحاله. وأينما ذهب الكلب تبعه بن ؛ لم يداعبه أو يضربه: وقف يحملق فيه. ثم ذات صباح، عندما نزلت

هاربيت لتبدأ إعداد الإفطار للأطفال، كان الكلب ممددًا ميتًا على أرضية المطبخ. هل أصيب الكلب بأزمة قلبية؟ فجأة وقد ملأها الشك اندفعت صاعدة لأعلى لترى إذا ما كان بن فى حجرته: كان مقرفصًا على سريره، وعندما دخلت نظر لأعلى وضحك بطريقة صامتة لا يمكن سبر غورها... بطريقته التى كانت مثل من يكشف عن أسنانه. فتح بابه، وذهب بهدوء من وراء أبويه النائمين إلى أسفل الدرج حتى وجد الكلب، وقتله، وعاد مرة أخرى بهدوء إلى أعلى إلى داخل حجرته، وأغلق الباب... قام بكل هذا بنفسه! وقامت بحبس بن فى الداخل: فإذا استطاع قتل كلب، إذن لم لا يقتل طفلاً من الأطفال؟

عندما عادت للأسفل ثانية، كان الأطفال متجمعين حول الكلب الميت. بعدها حضر الكبار وكان واضحًا ما الذى دار بخلدهم.

كان مستحيلاً، بالطبع، أن يقتل طفل كلبًا مليئًا بالحيوية؛ لكن رسميًا ظل موت الكلب لغزًا؛ وقال الطبيب البيطرى أنه مات مخنوقًا. أفسدت حادثة مقتل الكلب ما تبقى من الإجازة، وعاد الناس لبيوتهم مبكرين.

قالت دوروثى، "سوف يفكر الناس مرتين قبل الحضور هنا مرة أخرى."

بعدها بثلاثة شهور قتل القط، مستر مالك جريجور الرمادى العجوز بنفس الطريقة. كان مستر

جريجور دائم الخوف من بن ، وحافظ على الابتعاد عنه، لكن لا بد وأن بن طاف حول القط كمن يبحث عن فريسة، أو أنه وجده نائمًا!

عندما أتى الكريسماس كان المنزل نصف فارغ، أسوأ عام فى حياة هارييت، ولم تكن قادرة على استيعاب بأن الناس تجنبوهم. كان كل يوم كابوسًا طويلاً؛ كانت تستيقظ فى الصباح غير قادرة على تصديق أنها ستبقى حية حتى المساء. كان بن واقفًا على قدميه بشكل دائم، ويجب مراقبته ثانية بثانية، وكان يستسلم للنوم لوقت قليل جدًا إذ يقضى معظم الليل واقفًا على عتبة نافذته محدقًا فى الحديقة، وإذا ما دخلت أمه لإلقاء نظرة عليه، كان يلتفت إليها ويرميها بنظرة محدقة طويلة ومنفرة تصيبها بالرعشة: لم يبد حقيقة فى شبه الظلام الذى خيم على الحجرة مثل قزم أو كائن جبار خرافى يسكن الكهف ويربض هناك. كان إذا حبس فى الحجرة أثناء النهار يصرخ ويجأر حتى يتردد صدى صراخه وجئيره فى أرجاء المنزل كله، وكانوا جميعًا خائفين من حضور الشرطة للإزعاج الذى يسببه. وكان ينطلق فجأة، وبدون سبب منطقى، ويجرى خارجًا إلى الحديقة، ثم إلى خارج البوابة إلى الشارع. وحدث أن جرت هارييت خلفه لمسافة ميل أو أكثر، وهى ترى ذلك الجسد القصير الصغير الثخين والبدين يمضى بين أضواء إشارات المرور، متجاهلاً السيارات التى أصدرت أصواتًا لاحتكاكها بالأرض لتجنب الاصطدام

به، وصراخ الناس حوله محذرين. كانت تركض لاه..
وهى تبكى وتكاد تجن، يائسة من الوصول إليه ق.ا
حدوث شىء فظيع؛ وفى ذات الوقت تصلى، ا
فلتدهسوه، افعلوها، نعم، أرجوكم... وقد أمسكت ..
قبل أن يبلغ الطريق الرئيسى، وأحكمت إمساكها ..
لتحمل هذا الطفل المحارب بكل قوتها. كان يبد..
ويطلق صوتًا كفحيح الأفعى استهجانًا، بينما يترجر.
مثل سمكة مسخ بين ذراعيها، ومرت سيارة أجر.
فنادت عليها ودفعت بالطفل داخلها، وتبعته ممسكة ..
بقوة بذراع كاد ينكسر من ضربه ومقاومته لها.

ما الذى يمكنها عمله؟ ذهبت مرة أخرى إل.
د.بريت الذى فحصه وقال، "إنه جسديًا يبدو سليمًا لا
عيب فيه!"

شرحت له سلوكه، واستمع لها منصتًا وقد ظهر.
على وجهه، من وقت لآخر، علامات الشك مبقيًا ا
عينيه ناظرة لأسفل وهو يعبث بالأقلام الرصاد.
أمامه.

قالت، "يمكنك سؤال دافيد، أو اسأل آمى."

"إنه طفل حاد النشاط؛ هكذا يوصفون ها.
الأيام، كما اعتقد،" هذا ما قاله الطبيب د.بريت الذ.
يتبنى طرازًا قديمًا فى الطب. وكانت تذهب إليه لأ..
دقة قديمة.

فى النهاية نظر إليها دون تهرب منها.

وقال، "ماذا تتوقعين منى أن أفعل يا هارييت؟ أعطيه المخدرات السخيفة؟ حسنًا، أنا ضد هذا."

كانت تصرخ فى داخلها، نعم، نعم، نعم هذا بالضبط ما أريده! لكنها قالت، "لا، بالطبع لا."

وأضاف قائلاً، "إنه طبيعى جدًا بالنسبة لطفل فى الشهر الثامن عشر من عمره. بالطبع هو قوى جدًا ونشيط، لكنه كان كذلك دائمًا. تقولين إنه لا يتكلم؟ لكن هذا ليس بالغريب. ألم تتأخر هيلين فى النطق؟ اعتقد أنها تكلمت متأخرة.

"نعم."، قالت هارييت.

أخذته معها للمنزل، وحبس الآن فى حجرته كل ليلة، ووضعوا قضبانًا ثقيلة على الباب مثل التى وضعوها على النافذة، وكان مراقبًا فى كل ثانية من ساعات يقظته. راقبته هارييت، بينما أمها أدارت كل الأمور الأخرى.

قال دافيد "إلى أى مدى علينا تقديم الشكر لك يا دوروثى؟ يبدو أن كل شىء قد مضى لحد أبعد من شكرك."

فقالت، "كل شىء مضى إلى حد بعيد، هذه هى المسألة."

كانت هارييت واهنة، محمرة العينين ومنهكة من الإرهاق. وانفجرت مرة أخرى فى البكاء بدون سبب على الإطلاق. وظل الأطفال على مسافة منها يتجنبونها.

واقترحت دوروثى أن يتركوها وحدها مع "بن
أسبوعًا فى شهر أغسطس حتى يمكن أن يذهب باق
الأسرة معًا لمكان ما لقضاء إجازة.

لم تكن هارييت ولا دافيد يريدان، بشكل تلقائ
الذهاب إلى أى مكان لأنهما أحبا منزلهما. "ماذا ع
العائلة الآتية لقضاء عطلة الصيف؟"

قالت دوروثى، "لم ألاحظ أى استعجال ف
حجزهم للحضور."

ذهبت الأسرة كلها عدا "بن" إلى فرنسا
بالسيارة. كانت السعادة كلها لهارييت: شعرت أنها
استعادت أبناءها، فلم تكن تستطيع التواصل معهم، ولا
هم تواصلوا معها بالقدر الكافى؛ و"بول" طفلها الذ
حرمه "بين" منها، ابن الثالثة الرائع والفاتن والساحر
عاد طفلها مرة أخرى. كانوا لا يزالون عائلة
السعادة... أمكنهم، أى واحد منهم، بصعوبة تصدي
أن بن استطاع انتزاعها منهم.

وعندما عادوا للمنزل كانت دوروثى متعبة للغاي
ولديها جرح على زندها، وجرح آخر على خدها. ول
تذكر ما الذى حدث، لكن عندما ذهب الأطفال للنو
فى الليلة الأولى بعد عودتهم قالت لهارييت ودافيد
"يجب أن أتحدث، لا، اجلسا واستمعا إلىَّ جيدًا."

جلسا معها على مائدة المطبخ.

"يجب عليكما أن تواجها الأمر. يجب أن يذه
بن إلى مصحة ما."

قالت هارييت مروعة، "لكنه طبيعى، الطبيب يقول إنه طبيعى."

"ربما كان طبيعيًا بالنسبة لما هو عليه! لكنه ليس طبيعيًا بالنسبة لما نحن عليه."

"لكن أى نوع من المصحات يمكن أن يقبله؟"

قالت دوروثى، "لا بد أن هناك شيئًا ما." وبدأت فى البكاء.

هكذا، قضى دافيد وهارييت كل الليالى التالية فى حالة من السهد والأرق. يناقشان ما الذى يمكن عمله حيال بن، وكانا يمارسان الجنس ثانية، لكن ليس مثل ذى قبل. قالت هارييت، "لا بد أن هذا ما شعرت به النساء قبل أن يكون هناك تنظيم للنسل." وانتظروا موعد الدورة الشهرية مرعوبين، وعندما كانت تعنى إرجاء تنفيذ الحكم بالإعدام أو إنقاذ مؤقت لشهر آخر، لكنهم لم يكونوا خائفين من إنجاب قزم أو كائن خرافى من سكان الكهوف مرة أخرى."

وبينما تجاذبا أطراف الحديث أنصتا للأصوات القادمة من "حجرة الأطفال" - كلمات لم يعودا يستخدمانها أبدًا لأنها صارت مؤلمة. لم يصدقا ما كان بن يقوم به، وهو إزاحة تلك القضبان أو انتزاعها.

قالت هارييت، "المشكلة أنك تعتاد، حتى على الجحيم، فبعد قضاء يوم مع بن أشعر كما لو كان لا

وجود لشىء سواه. كما لو كان أى شىء آخر لم يكن ا
وجود من قبل أبدًا. وفجأة أدركت أننى أنسى الأطفا
الآخرين لساعات."

لقد نسيت عشاءهم ليلة أمس، فقد ذهب
دوروثى لتأمل المشاهد، ونزلت الدرج لأجد هيلي
تطبخ لهم العشاء.

"لم يصبهم ذلك بأى أذى"

"فهى الآن فى الثامنة."

وعندما ذُكرت بالأسبوع الذى قضوه فى فرنسا
وبما كانت عليه حياتهم الأسرية بالفعل، وما يمكن أ
تكون عليه، عزمت على ألا تفقد كل هذا. ووجدت أنها
مرة أخرى تقوم بإبلاغ بن صامتة: أنا لن أسمح لك
بتدميرنا، إنك لن تدمرنى..."

واستعدت لأعياد كريسماس حقيقية أخرى؛ كتب
واتصلت بكل فرد من أفراد العائلة، وأصابت الهد
بالقول إن "لقد صار بن أفضل كثيرًا هذه الأيام."

سألت سارة ما إذا كان مناسبًا أن تحضر آمى
هذا يعنى أنها سمعت، الكل سمع - عن الكلب والقط.

قالت هارييت، "سوف يكون مناسبًا إذا كنا
منتبهين بحيث لا نترك آمى وحدها مع بن ، وقال
سارة بعد صمت طويل، يا إلهى، هارييت إننا لم نرتك
إثمًا أليس كذلك؟" "اعتقد ذلك." لكنها رفضت ها ا
التلميح بأنها ضحية القدر. بينما سارة، نعم؛ فى وجو

مشاكلها الزوجية، وطفلها المنغولى - قبلت بكونها ضحية. لكنها، هارييت، غارقة فى نفس المركب؟

وقالت لأطفالها الأربعة، "رجاء، اعتنوا بـ "آمى". لا تتركوها أبدًا وحدها مع بن."

سألت جين، "هل سيؤذيها بالطريقة التى آذى بها مستر ماك جريجور؟"

فقال لوك مغتاظًا، لقد قتل مستر ماك جريجور، لقد قتله."

قالت هيلين، "والكلب البائس." كان كلا الطفلين يوجهان الاتهام لهارييت.

قالت هارييت، "نعم، ربما فعل. وهذا هو السبب اننا يجب أن نراقبها طوال الوقت."

كانت طريقتهم فى القيام بالرقابة المطلوبة فى تلك الأيام، أن كانوا يبحثون عن بعضهم البعض، باستثنائها هى "أمهم"، بشىء من التفهم لما يخصهم. هكذا، مضوا فى حياتهم ولهوهم دون النظر إليها.

كانت أعياد الكريسماس، فى وجود عدد أقل من الناس، رغم ذلك احتفالية صاخبة، وأصابت نجاحًا وإن وجدت هارييت نفسها تتطلع لأن تنتهى. كان الكريسماس إجمالاً يقوم على مراقبة بن ، وآمى - التى كانت مركزًا لكل شىء. كان رأسها كبيرًا جدًا، وجسدها قصيرًا ثخينًا، لكنها كانت مفعمة بالحب والقبلات، وأعجب بها الجميع إعجابًا شديدًا. وكانت

هيلين، التى تطلعت دومًا لتدليل بن ، قادرة على حـ
آمى وتدليلها. راقب بن هذا كله صامتًا، ولم تستطـ
هاربيت أن تقرأ ما أوحت به تلك النظرة فى عيو
الصفراء المخضرة الباردة. لكن فيما لم تستطع أبدًا
أحيانًا بدا لها أنها قضت حياتها كلها محاولة أن تفهـ
ما الذى كان يشعر به ويفكر فيه. كانت آمى، التـ
توقعت من الجميع أن يحبوها، لتذهب إلى بـ
وتضحك ضحكة خافتة بينها وبين نفسها، وتبتسـ
ويداها مفتوحتان. كان عمرها ضعف عمره لكنها
كانت تبدو ظاهريًا فى نصف عمره؛ هذه الطفلـ
المبتلاة التى تشع بالحب كانت تصير صامتة، ووجهها
بائس، وتتراجع محدقة فيه، تمامًا مثل القط البائـ
مستر ماك جريجور قبل مقتله، وتبدأ فى البكاء كلما
رأته. ولم تتحول عينا بن عن النظر إليها، هذه الطفلـ
"الأخرى"المبتلاة التى أعجب بها جميع من فى المنزل
لكن هل عرف أنه هو نفسه طفل مبتلى؟ وهل كا
كذلك فى الواقع؟ ماذا كان هو تحديدًا؟

انتهى الكريسماس، وكان قد بلغ عامين وعد
شهور. أرسل بول إلى حضانة مدرسية صغيرة فـ
نهاية الطريق المؤدى للمنزل لإبعاده عن بن . وأصبـ
بول، الطفل الملىء بالحيوية والودود بطبيعته عصبيًا
ومتوترًا، وأصيب بنوبات من البكاء أو الغضب ملقيًا
بنفسه على الأرض، صارخًا أو ضاربًا بعنف ركبتـ
هاربيت مرارًا محاولاً لفت انتباهها الذى لم يبد أنه
يفارق بن أبدًا.

ذهبت دوروثى لزيارة سارة وعائلتها.

كانت هارييت تجلس وحدها مع بن أثناء النهار، وحاولت أن تكون معه مثلما كانت مع إخوته الآخرين من قبل، جلست على الأرض ومعها المكعبات واللعب التى يمكنها اللعب بها، وأطلعته على صور ملونة، وكانت تغنى له ألحانًا بسيطة. لكن لم يبد عليه أنه يتواصل مع اللعب أو المكعبات. جلس بين حروف الأشياء المضيئة، وربما وضع مكعبًا على آخر ناظرًا إلى هارييت ليرى إذا ما كان هذا ما يجب عليه عمله. وحملق بشدة فى الصور التى عرضت عليه محاولاً فك شفرة لغتها. ولم يكن ليجلس كالأطفال على ركبة هارييت أبدًا، لكن كان يقرفص بالقرب منها - وعندما قالت له، "هذا عصفور يا بن، انظر -مثل ذلك العصفور على الشجرة. هذه زهرة،" فحدق فيها ثم ولى مبتعدًا. كان واضحًا أن المسألة ليست عدم قدرة منه على فهم كيف ينطبق هذا المكعب على ذاك، أو كيف يصنع كومة منها، لكنه بصورة أدق لم يستطع اكتشاف الفكرة من وراء اللعبة كلها، ولا الزهرة، ولا العصفور. ربما كان متقدمًا جدًا على هذا النوع من الألعاب؟ أحيانًا ظنت أنه كذلك. كانت استجابته لصورها التدريبية أن يذهب للحديقة ويطوف مطاردًا طريدة ما من الطيور المغردة فى المرج جاثمًا على الأرض ومتنقلاً على الممر. وأوشك على الإمساك بالطائر المغرد. ومزق بعض أزهار الربيع من أغصانها، ووقف ممسكًا بهم فى يديه ومحدقًا فيهم بتعمد، ثم

سحقهم فى قبضتيه الصغيرتين القويتين، وترك
يتناثرون. ثم أدار رأسه فرأى هاربييت تنظر إليه: و
أنه يفكر فى أنها أرادته أن يفعل شيئًا ما، لكن ماذا
فعاد يحدق فى أزهار الربيع، ثم نظر لأعلى ء
عصفور أسود فوق أحد فروع الشجر، وعاد ببطء ا
الداخل مرة أخرى!

ذات يوم، تكلم، فجأة. لم يقل "مامى" أو "دادى" ا
اسمه، لكنه قال، "أريد كعكة." حتى أن هاربييت ا
تلاحظ فى البداية أنه كان يتكلم. ثم لاحظ
وأخبرت الجميع قائلة، "بن يتكلم. إنه يستخدم جُملا
كما كانت طريقتهم المعتادة، شجعه الأطفال الآخرو
إخوته: "هذا جيد جدًا يا بن ، بن الشاطر!" لكنه ا
يعرهم انتباهه. ومن الآن فصاعدًا بدأ يصر
باحتياجاته. أريد ذلك. أعطنى هذا. سأذهب لأتمش
الآن. كان صوته ثقيلاً غير مؤكد، كل كلمة منفص
كما لو كان عقله بيتًا مليئًا بأشياء مبعثرة من الأف
والأشياء وعليه تحديد كل منها.

شعر الأطفال بالارتياح لأنه تحدث بشكل طبيع
وكان أحدهم ليقول، "مرحبًا، بن " فيرد عل
"مرحبًا،" معيدًا بالضبط وبعناية ما تلقى من كلما
"كيف حالك، بن ؟" سألته هيلين فأجاب، "كي
حالك؟" فقالت له، "لا، يجب عليك الآن أن تقول،" ا
بخير، شكرًا لك،" أو "أنا على ما يرام." فحدق فيه
وهو يحاول تجميع الكلمات، ثم قال دون دقة، "ا
بخير جدًا."

راقب إخوته، خاصة لوك وهيلين، طوال الوقت، ودرس كيف تحركوا، وجلسوا، وقاموا، كما قلد طريقتهم فى الأكل. وفهم أن أخويه الأكبر سنًا، لوك وهيلين، كانا أكثر توددًا معه من جين، بينما تجاهل بول تمامًا. عندما كانوا يشاهدون التليفزيون، كان يجلس القرفصاء بالقرب منهم ويتحرك بعينيه من الشاشة إلى وجوههم، لأنه أراد أن يعرف ردود الفعل المناسبة على ما يشاهد. فإذا ضحكوا، ساهم بعدها بلحظة بضحكة عالية وعنيفة، بصوت غير طبيعى. بدا أن ما كان طبيعيًا بشأنه فى أسلوبه فى التسلية هو تكشيره عن أسنانه بنظرة بدت بالفعل عدوانية. عندما يكونوا صامتين وساكنين فى حالة انتباه بسبب مشاهدة لقطات مثيرة كان يشد عضلاته مثلهم، ويبدو مستغرقاً فى الشاشة، وإن كان واقعيًا يبقى عينيه مركزة عليهم.

صار أكثر مرونة بشكل عام، كما اعتقدت هارييت: حسنًا، أى طفل عادى يواجه أصعب لحظاته تقريبًا على مدى عام بعد أن يصلب عوده ويقف على قدميه؛ حيث لا يكون لديه إحساس فطرى بالدفاع عن ذاته ولا إحساس بالخطر: فهم يرمون أنفسهم بعنف على الأسرة والمقاعد، وينطلقون كالصاروخ فى الفضاء، ويجرون فى الطرق، ويجب مراقبتهم كل ثانية... وهم أيضًا مبهجون ومرحون فى أكثر أوقاتهم سحرًا وأعزاء يفطرون القلب من حلاوتهم. ثم بعدها، تدريجيًا، يصبحون منطقيين، وتصبح الحياة أكثر سهولة.

أصبحت الحياة أكثر سهولة... ولكن هذا فق ا
وفقما تراءت لها، عندما أعادت دوروثى البيت إليها.

عادت دوروثى للأسرة بعد ما سمته "راحة" لع
أسابيع، وأمكن لهارييت أن ترى استعداد أمها لحدي
حقيقى وواقعى معها.

"الآن، أيتها البنت، هل كنت تقولين إننى أتدخ
فى حياتك، وأننى أعطيك الكثير من النصائح غي
المرغوب فيها؟"

كانوا جالسين حول المائدة الكبيرة فى منتص
الصباح، وفى أياديهم أكواب القهوة، بينما بن فى مكا
يمكن مراقبته كالعادة. حاولت دوروثى أن تجعل ما
قالته مرحًا لكن هارييت شعرت بشىء من التهدي
فيه! كانت وجنات أمها القرمزية تلمع ببريق الإحراج
وعيناها الزرق تلمعان بالقلق.

قالت هارييت، "لا، لا لست تتدخلين أو تعطي
نصائح غير مرغوب فيها."

"حسنًا، سأقول الآن كلمتى."

لكن كان عليها أن تتوقف فقد بدأ بن يضر
حجرًا على صينية معدنية بكل قوته. كان ما أثاره م
الضجيج فظيعًا، لكنهم انتظرا حتى توقف: لأنه إذا ما
قاطعه أحد، ينتابه الغضب، ويفح كالأفعى مستهجنا
مقاطعته ويبصق.

قالت، "لديك خمسة أطفال، وليس طفلاً واحدًا
هل تدركين أنه ربما يكون على بالمثل أن أكون أما

للأطفال الأخرى عندما أكون هنا؟ لا، لا أعتقد أنك تدركين، فأنت تؤخذين بـ..."

وضرب بين الصينية بقوة بحجره، وقد انتابته حالة من سعار التحقق والتباهى، وبدا وكأنه يعتقد أنه كان يطرق معدنًا ـ ليصوغ منه شيئًا: يمكن للمرء بسهولة تخيله، شىء فى المناجم، عميقًا تحت الأرض، مع من يشبهونه... وانتظرا مرة أخرى حتى أوقف الضجيج الذى يحدثه.

قالت دوروثى، "هذا ليس صحيحًا!". تذكرت هارييت جملة أمها، "هذا ليس صحيحًا!" التى تحكمت دومًا فى طفولتها.

أضافت دوروثى، "إننى أمضى فى طريقى، كما تعلمين، لكن لا يمكننى المضى هكذا و إلا سأصاب بالمرض."

نعم، فقد كانت نحيفة إلى حد ما، بل حتى هزيلة الجسم. فكرت قليلاً، نعم، يغمرها شعور بالذنب، إذ كان عليها أن تلحظ الأمر.

وأضافت، "ولديك زوج أيضًا،" وواضح أنها لم تكن تعلم أنها بقولها هذا تغمد سكينًا فى قلب ابنتها، إنه رجل طيب للغاية كما تعلمين يا هارييت. أنا لا اعرف كيف يتواءم مع الوضع."

أتى الكريسماس، بعد أن صار عمر بن ثلاث سنوات، والمنزل نصف مشغول بالضيوف. قال أحد

أبناء عم دافيد، "لقد ألهمتنى يا هارييت! ففى النها
صار لدى منزل أنا أيضًا. ليس كبيرًا مثل منزلك
لكنه منزل صغير لطيف. وقد زارنى العديد من أفرا
العائلة هناك." قال آخرون إنهم سيحضرون: وسجا
موقفًا بالحضور، كما أدركت هارييت. تلك كانت طب
وشائج العائلة الوطيدة.

مرة أخرى، أحضروا حيوانًا أليفًا للمنزل. ه
المرة كان كلبًا كبيرًا مهجنًا مرحًا كثير الصخب، وه
كلب أطفال سارة لكنه ينتمى لآمى بشكل خاص. أح
كل الأطفال بالطبع، لكن بول كان أكثرهم حبًا له، وه
ما جعل هارييت تتأثر لأنهم (آل لوفات) لا يمكن أ
يربوا كلبًا أو قطة فى المنزل، حتى أنها فكرت: حس
إن بن صار الآن أكثر عقلانية، ربما... لكنها كا
تعلم أن هذا مستحيل. لاحظت كيف أن هذا الكل
الكبير بدا أنه يعلم أن آمى، الطفلة الصغيرة المحبو
فى ذلك الجسد الضخم القبيح احتاجت للكثير
اللطف والحنان: كان يقلل من حيويته وحماسه معها
كانت آمى تجلس بالقرب منه وذراعها حول رقبت
وحتى إن كانت خرقاء فى التعامل معه كان يترا
كمامته، ويزيحها بلطف بعيدًا عنه، أو يصدر صو
تحذير بسيط يوحى بالقول: كونى حذرة! قالت سار
إن هذا الكلب كان مثل خادمة خاصة لآمى، مثل نا
فى قصة "بيتر بان" كما قال عنه الأطفال. إذا كان
موجودًا فى الحجرة، راقبه الكلب بحرص، وذه
ليرقد فى ركن من الحجرة ورأسه مدلى على قدمي

متصلبة من الانتباه. ذات صباح، بينما كان الجميع جالسين فى الجوار يتناول الإفطار، مالت هارييت براسها لسبب ما فرأت الكلب نائمًا بينما بن متجه إليه فى صمت بانحناء جاثم لأسفل ويداه مرفوعتان فى مواجهة الكلب...

قالت هارييت بحدة، "بن !" رأت تلك العينين الباردتين تتحول ناحيتها وملؤها لمحة من حقد خالص وتعمد للأذى، بينما كان الكلب متحفزًا، يندفع مبتعدًا مذعورًا وشعره واقف حتى نهايته. عوى الكلب قلقًا، وأتى إلى حيث كان الجميع جالسين، ورقد على الأرض تحت المائدة.

رأى الجميع ما يجرى، وجلسوا ساكنين، بينما بن أتى إلى دوروثى وقال،أريد لبنًا." صبت له بعضًا منه فشربه كله، ثم نظر إليهم جميعًا محدقًا فى الكلب بشدة. مرة أخرى بدا أن بن يحاول فهمهم، وذهب إلى الحديقة حيث أمكنهم رؤيته؛ قزمًا خرافيًا صغيرًا جاثمًا، يضرب بعصا فى يده أو ينخس بها الأرض، وكان بقية الأطفال فى الأعلى فى مكان ما.

جلست دوروثى على المائدة وآمى على حجرها، وسارة، ومولى، وفريدريك، وجيمس، ودافيد. وكذلك جلست أنجيلا، الأخت الناجحة التى تتاجر فى الخيول، وأطفالها كانوا كلهم أسوياء.

دفع المناخ العام هارييت لأن تقول بجرأة، "حسنًا، إذًا دعونا نقدم على الأمر!"

لقد فكرت فى الأمر، ليس بلا اهتمام كـ
يقولون؛ أظن أن فريدريك هو من قال، "الآن، انظر
يا هارييت، عليك بمواجهة الأمر، يجب أن يذهب
إلى مصحة." قالت، "إذًا علينا أن نجد طبيبًا يقول
بأنه طفل غير عادى، بالتأكيد لن يقولها د.بري
قالت مولى، "احضروا طبيبًا آخر، هذه الأمور يمـ
تدبيرها." وانعقد عزم الاثنين الكبار المتكدسين كالقـ
منهم، بوجوههم المتوردة بالصحة على حل المسألة، و
يعد هناك أى غموض بخصوصهم، فقد قرروا الآن
هناك أزمة، وهى تهددهم جميعًا - حتى ولو بشكل غـ
مباشر - ثم نظروا كزوج من القضاة بعد وجبة غدا
طيبة، كما تصورت هارييت، نظرة سريعة إلى داف
ليروا إذا كان يشاركهم فى هذا الحكم، لكنه كا
محدقًا لأسفل نحو المائدة وفمه مطبقًا. ووافقتهـ
الرأى.

قالت أنجيلا ضاحكة، "هذه هى القـ
النموذجية للطبقات العليا."

لم يتمكن أحد من تذكر أن مثل هذه الملحوظة
ألقيت على هذه المائدة من قبل، على الأقل بهـ
الحدة. صمت، ثم خففت من المسألة قائلة، "ليـ
الأمر هو عدم موافقتى."

فقالت مولى، "بالطبع أنت توافقين، أى إنسا
عاقل يجب أن يوافق."

قالت أنجيلا، "إنه الأسلوب الذى تقولين به."

تساءل فريدريك، "ما أهمية الأسلوب الذى يقال به الأمر." سأل:

"ومن الذى سيدفع تكلفة تلك المصحة؟ أنا لا أستطيع، كل ما يمكننى عمله هو دفع فواتير المنزل، بمساعدة من جيمس."

"حسنًا سوف يكون على جيمس أن يتحمل عبأ هذا الأمر، لكننا سنساهم فيه." قال فريدريك. كانت تلك هى المرة الأولى التى عرض فيها هذا الزوج أية مساعدة مالية، وكانت مساهمة متواضعة مثل كل مساهماتهم،" ووافق باقى أفراد العائلة على ذلك؛ والآن، لسوف يذكر هذا الحكم؛ سوف يحضرون للإقامة عشرة أيام ويساهمون بزوج من الطيور، وزوج من زجاجات النبيذ الفاخرة. على أية حال، لن تكون مساهمتهم بالمساهمة الكبيرة، علم كل فرد فى العائلة ذلك.

جلست العائلة فى صمت تشقها عصا الانقسام.

ثم قال جيمس، "سوف أفعل ما يمكننى، لكن الأمور ليست على ما يرام كما كانت. فاليخوت لم تعد فى أولويات فى أوقات الشدة."

مرة أخرى، ساد الصمت، وكل منهم ينظر إلى هارييت.

فقالت، "أنتم قوم غرباء،" واضعة نفسها فى موضع مميز عنهم. "لقد كنتم هنا مرارًا، وأنتم تعلمون

- أعنى أنكم بحق تعلمون ما هى المشكلة. ماذا ستقولون للناس الذين يديرون تلك المصحة؟"

قالت مولى، "الأمر يتوقف على المصحة ذاتها."

ظنت هارييت أن شخصها الكبير صار ملؤه الطاقة والإدانة: كما لو كانت ابتلعت بين بأكمله وهضمته. ثم قالت باعتدال كاف، رغم أنها كانت ترتعش، "أنتم تقصدون أننا يجب أن نجد مصحة من نوع تلك الأماكن القائمة، التى تأخذ الأطفال الذين تريد عائلاتهم التخلص منهم؟"

قالت أنجيلا باحتقار بسيط وجرىء، "العائلات الغنية."

قالت مولى بصرامة فى مواجهة وقاحتها، "نعم، إذا لم يكن هناك مكان آخر. لكن شيئًا واحدًا يبدو واضحًا لى: إذا لم يتم اتخاذ إجراء ما، عندها سيكون الأمر بمثابة كارثة."

قالت دوروثى، " إنها كارثة بحق، متخذة موقفها بحزم. الأطفال الآخرون... إنهم يعانون. أنت متورطة مع هذا الطفل إلى حد بعيد أيتها البنت، حتى أنك لا تستطيعين رؤية المأساة."

قال دافيد بنفاد صبر وغضب لأنه لم يعد يحتمل هذا، بينما خيوط المأساة تتشابك مع هارييت، ومع أبويه اللذين يناضلان للحفاظ على أسرته من الضياع، ويتمزقان بما يعانى منه، انظروا، أنا موافق. وفى وقت ما سوف يكون على هارييت أن توافق هى الأخرى.

وفيما يعنينى أنا، هذا الوقت هو الآن. لا أعتقد أننى أستطيع الصمود أكثر من ذلك." والآن نظر لزوجته نظرة استجداء ومعاناة، وكأنه يقول لها، "أرجوك، أرجوك."

قالت هارييت، "حسنًا جدًا. إذا أمكن إيجاد مكان ما يكون..." وبدأت فى البكاء.

أتى بن من الحديقة ووقف مراقبًا إياهم، فى وضعه المعتاد الذى كان بعيدًا عن أى أحد منهم. كان يرتدى ملابس خُيطت من نسيج قطنى بنى اللون، مع قميص بنى اللون من نسيج خشن؛ كان كل شىء يلبسه لا بد وأن يكون سميكًا؛ لأنه مزق ملابسه دائمًا ودمرها. وقف بشعره الأصفر الشبيه بالجذام قصير النمو، وبعينيه الحجريتين اللتين لا ترمشان، وانحناءته، وقدماه متباعدتان، وركبتاه مثنيتان، وقبضتاه المطبقتان ممدودتان أمامه، وقد بدا أكثر من اى وقت مضى مثل قزم خرافى.

وأشار لأمه معلقًا، "إنها تبكى." ثم أخذ قطعة من الخبز من على المائدة وخرج.

قالت هارييت، "حسنًا ماذا ستقولون لهم فى المصحة؟"

فرد فريدريك، "اترك الأمر لنا."

عقبت مولى، "نعم."

قالت أنجيلا بنوع من التقرير المرير عنهم، "يا

إلهى أحيانًا عندما أكون معكم أفهم كل شىء عن
البلد!"

قالت مولى، "شكرًا لك."

قال فريدريك، "شكرًا لك."

قالت دوروثى، "إنك لست عادلة أيتها الفتاة."

قالت أنجيلا ساخرة، "عادلة"، وهارييت، وسار
وبناتها تقريبًا كلهم قالوها فى الحال، "عادلة!"

ثم ضحك الجميع عدا هارييت. وبهذه الطريقة
تقرر مصير بن .

بعدها ببضعة أيام، اتصل فريدريك تليفونيًا
ليقول إنه وجد مصحة، وأن هناك سيارة ستأتى من
أجل بن . فى الحال؟ لا، غدًا. كانت هارييت مذعورة
من العجلة فى الأمر، نعم، إن هذا نوع من التحجر
وعدم الرحمة! والطبيب الذى خول لهم هذا؟ والذى
سيخول به رعاية بن ؟ طبيب لم يره حتى؟ كل هذا
قالته لدافيد، وعرفت من أسلوبه فى الرد عليها أن
اتفاقًا جيدًا قد عقد من وراء ظهرها. وتحدث إليه
والداه فى مكتبه. قال شيئًا مثل، "نعم، سوف أنظر فى
الأمر، عندما قالت مولى ـ التى كرهتها هارييت فجأة
سيكون عليك أن تكون حازمًا مع هارييت."

قال لهارييت عند عودته، "إن الأمر انحصر فى
اختيار واحد؛ إما هو أو نحن." وأضاف وصوته ملوث
كراهية باردة لولده بن ، "من المحتمل أن يكون ق

سقط علينا من كوكب المريخ، وسيعود يومًا ما ليعطى تقريرًا عما رآه هنا!" ثم ضحك بوحشية، كما بدا لها وقد تلقت الحقيقة المرة فى صمت، الحقيقة التى عرفتها بالطبع نصف معرفة تقريبًا، وهى أن بن لم يكن متوقعًا أن يعيش طويلاً فى هذه المصحة أى كانت.

قالت، "إنه طفل صغير، إنه طفلنا."

فأجابها دافيد أخيرًا، "لا، هو ليس كذلك. حسنًا، هو ليس طفلى بالتأكيد."

كانا فى حجرة المعيشة. ارتفع صوت الأطفال حادًا آتيًا من بعيد، من الحديقة الشتوية المظلمة، ونتيجة لنفس التأثير ذهب كلاهما إلى النافذة وأزاحا الستائر الثقيلة. حملت الحديقة لهم أشكالاً باهتة للأشجار والشجيرات، لكن الضوء المنبثق من هذه الحجرة بلغ المرج إلى شجيرة بدت سوداء بفعل الشتاء، وأضاء ثمرات نامية كثيفة الأغصان التى اظهرت تلألأ المياه عليها، كما أضاء الجذع الأبيض لشجرة "البتولا". ثم خرج جسدان صغيران، أحادى الجنس دون تمييز فى ستراتهما المغطاة بألوان متعددة، وسراويلهما، وقبعاتهما الصوفية من الظلام تحت الأجمة المقدسة، وتقدموا نحو الأمام. كان الجسدان لهيلين ولوك فى مغامرة ما. حمل كلاهما عصا ينخسان بها هنا وهناك فى أوراق الشجر المتساقطة المتبقية من العام الماضى.

ارتفع صوت هيلين مبتهجًا بالنصر، "ها هى!"
ورأى الأبوان كرة الصيف البلاستيكية المفقودة بلونها
الأصفر والأحمر، بارزة فى الضوء فوق طرف العصا
كانت الكرة متسخة ومسحوقة، لكنها كانت كاملة. بدا
الطفلان يرقصان رقصة مألوفة سريعة حول الكرة
التى تم إنقاذها مرفوعة لأعلى فى نشوة النصر
فجأة، ولسبب غير واضح، أسرعا يتسابقان باتجاه
أبواب المنزل فرنسية الطراز. جلس الأبوان على أريكة
فى مواجهة الأبواب التى فتحت بعنف للداخل، حيث
كان الطفلان، اثنان من المخلوقات نحيفة الجسم
رائعين، فى احمرار مشتعل وخدود محترقة بالثلج،
وعيون ملؤها الإثارة بالبرية المظلمة التى كانوا جزءًا
منها للتو. وقفا يتنفسان بصعوبة، وعيونهما تتأقلم مع
الواقع ببطء فى حجرة العائلة الدافئة المضاءة،
وأبواها جالسان ينظران نحوهما. للحظة، كان الأمر
بمثابة لقاء بين نوعين غريبين من الحياة: الطفلان
كانا جزءًا من همجية قديمة ما دماؤهما ما زالت
مرتبطة بها؛ لكنهم الآن عليهما أن يدعا ذاتهما
المتوحشة تذهب بعيدًا حيث انضما مرة أخرى
لعائلتهم. وشاركهما الأبوان هذه المشاعر، وكانا معهما
فى حالة التخيل والذاكرة البدائية التى أتت من
طفولتهما هما الاثنان: استطاع الأبوان أن يريا أنفسهم
بوضوح، اثنان من البالغين، جالسان هناك، وديعان،
ومنزليان، بل وحتى جديرين بالشفقة فى نأيهما عن
الوحشية البدائية، وعن الحرية.

وبرؤيتهما لأبويهما هناك وحدهما، دون أطفال اخرين حولهما، وفوق كل شىء دون بن، تقدمت هيلين نحو أبيها، وتقدم لوك نحو أمه، واحتضن الأبوان طفليهما الصغيرين المغامرين، أبناءهما فى عناق قوى مؤثر.

فى الصباح التالى أتت العربة، التى كانت عبارة عن شاحنة صغيرة سوداء مغلقة، لأخذ بن . كانت هارييت تعلم أنها قادمة حيث لم يذهب دافيد لعمله، وبقى فى المنزل حتى "يتعامل" معها! صعد السلالم، وأنزل الحقائب وحقائب سفر مغطاة بالقماش كان قد عبأها بهدوء بينما كانت تضع الإفطار للأطفال.

قذف بالحقائب بقوة داخل الشاحنة. ثم تجمد وجهه حتى أنها بالكاد تعرفت عليه، وحمل بن لأعلى حيث كان جالسًا على الأرض فى حجرة المعيشة، وسار به إلى الشاحنة ووضعه فيها. ثم عاد سريعًا إليها، بنفس الوجه الجامد، وأحاطها بذراعيه، وأدار وجهها بعيدًا حتى لا ترى الشاحنة التى كانت تأخذ طريقها بالفعل، وأمكنها سماع صيحات وصرخات من داخلها، ثم أخذها إلى الأريكة حيث قال، وهو ما زال ممسكًا بها بقوة، "مرارًا وتكرارًا قلت ذلك. علينا أن نفعل ذلك يا هارييت، يجب علينا ذلك." كانت تنتحب من الصدمة وينتابها إحساس بالراحة والامتنان له، حيث اخذ على عاتقه كل المسئولية.

وعندما عاد الأطفال للمنزل قيل لهم إن بن ذهب ليقيم مع أحدهم.

سألت هيلين بقلق، "مع جرانى؟"

"لا."

فجأة، صارت أربعة أزواج من عيون الأطفال المتشككة، المترقبة لشر ما ممتلئة بشعور من الارتياح ارتياح هستيرى. رقص الأطفال، غير قادرين على التحكم فى أنفسهم، وبعدها أدعوا أن الرقصة ما هى إلا مباراة ابتكروها من هنا وهناك.

على العشاء كانوا يشعون بالنور بشدة، مقهقهين، وفى حالة من الهستيريا. لكن فى لحظة هادئة سألت جين بحدة، "هل تنوون إرسالنا بعيدًا نحن أيضًا؟" كانت جين فتاة صغيرة متبلدة الحس من البلاهة؛ النسخة المصغرة من جدتها دوروثى، ولم تكن لتقول أبدًا أى شىء لا ضرورة له، لكنها الآن، ثبتت عينيها الواسعتين الزرق فى رعب على وجه أمها.

أجاب دافيد، "لا، بالطبع لا ننوى ذلك." وبدا صوته مقتضبًا على نحو فظ.

تدخل لوك مُفَسرًا، "إنهم يأخذون بن بعيدًا لأنه واقعيًا ليس واحدًا منا."

فى الأيام التالية تمددت العائلة مثل أوراق الزهور فى الماء. فهمت هارييت أن بن كان عبأ عليهم، وإلى أى مدى ظلمهم جميعًا. وكم عانى الأطفال، كما علمت أنهم تحدثوا فى الأمر أكثر بكثير مما أراد الآباء أن يعرفوا، وحاولوا أن يصلوا قواعد للتعامل معه. لكن

بن ذهب الآن، ولمعت عيونهم وصاروا مفعمين بحيوية عالية، وظلوا يأتون لهارييت بهدايا بسيطة من الحلوى أو لعبة ما قائلين، " هذه من أجلك يا مامى." أو كانوا يندفعون ليقبلوها، أو يربتوا على وجهها، أو يستكينوا فى دعة ودفء إليها مثل عجول سعيدة أو مجموعة من المهور حول أمهم. أخذ دافيد إجازات من العمل لأيام ليكون معهم جميعًا ـ ليكون معها. كان رقيقًا وحريصًا معها. قررت بينها وبين نفسها أن الأمر كان كما لو كانت مريضة تحتاج لمعاملة خاصة! بالطبع فكرت طوال الوقت فى بن، الذى كان سجينًا فى مكان ما. تخيلت الفئران السوداء الصغيرة، وتذكرت صراخه وغضبه وهم يأخذونه.

مرت الأيام، وطغى الوضع الطبيعى الاعتيادى على المنزل. ثم سمعت الأطفال يتحدثون عن إجازات عيد الفصح. قالت هيلين، "لسوف تكون الأمور الآن على ما يرام حيث إن بن ليس موجودًا."

لقد أدركوا وفهموا من الأمور أكثر مما ينبغى عليهم فهمه.

بينما كانت هى نفسها جزءًا من الارتياح العام، وبصعوبة استطاعت تصديق كونها كانت قادرة على تحمل كل هذا الضغط لهذه المدة الطويلة، إلا أنها لم تتمكن من محو ذكرى بن من عقلها. لم يكن منبع ذلك الحب أو حتى التعاطف، فقد فكرت فيه وكرهت نفسها لعدم قدرتها أن تجد ومضة واحدة من شعور

طبيعى بسيط تجاهه: كان ما ينتابها شعور بالذ
والرعب أبقاها متيقظة أثناء الليل. كان دافيد يعا
أنها مستيقظة رغم أنها حاولت إخفاء الأمر.

ثم ذات صباح استيقظت من نومها على حلم
سيىء رغم أنها لم تتذكر ماذا كان، وقالت، "أنا ذاهبة
لأرى ماذا يفعلون مع بن ."

فتح دافيد عينيه، ورقد صامتًا محدقًا فى ذراعيه
عند النافذة. كان نائمًا نومًا خفيفًا، ولم يكن مستغرقًا
فى النوم. أدركت أن ما قالته أفزعه، كان هناك شىء
يخصه فى المسألة، عندها قال، "حسنًا، إذًا هذا هو
الأمر، هذا يكفى.

"دافيد، يجب علىَّ القيام بذلك."

"لا."

"ببساطة، يتحتم علىّ ذلك."

مرة أخرى عرفت من الطريقة التى رقد بها
هناك، دون النظر إليها أو قول أى شىء أكثر من جملة
وحيدة، سيكون هذا وبالاً عليك، وأنه يتخذ قراراته
وهو راقد، وظل حيث كان لدقائق قليلة، ثم قام من
سريره، وخرج من الحجرة ونزل للدور الأرضى.

عندما ارتدت ثيابها اتصلت بمولى، التى صارت
على الفور غاضبة منها، وقالت ببرود واضح، "لا، لن
أقول لك أين المصحة. لقد قمت بإرساله، والآن اتركيه
لشأنه."

لكنها فى النهاية أعطتها العنوان.

مرة أخرى، تساءلت لماذا تُعامل دائمًا كمذنبة! كان الأمر على هذا النحو منذ ولد بن كما اعتقدت، والآن تبدت لها الحقيقة؛ أن كل واحد أدانها فى صمت، وقالت لنفسها، "لقد عانيت سوء الحظ؛ إننى لم أرتكب جرمًا."

أخذ بن إلى مكان فى شمال إنجلترا، سوف يكون على مبعدة أربع أو خمس ساعات بالسيارة، ربما أكثر إذا لم تكن محظوظة فى المرور. قادت السيارة خلال جو شتوى قاتم مطير، وكان الوقت مبكرًا فى ما بعد الظهيرة عندما اقتربت من مبنى صلب كبير من الحجارة السوداء، فى واد مرتفع عبر مستنقعات كثيرة حتى أنها استطاعت رؤيته بصعوبة بسبب المطر الرمادى المتراكم بفعل الرياح. انتصب المبنى مربعًا شامخًا وسط خضرة موحشة إلى حد بعيد، نوافذه منتظمة فى ثلاثة صفوف محاطة بالقضبان.

دخلت بهوًا صغيرًا به بطاقة مكتوبة بخط اليد ملصقة على الباب الداخلى:"اقرع الجرس ليحضر إليك أحدهم." قرعت الجرس وانتظرت، ولم يحدث شىء. كان قلبها ينبض بقوة. كانت لا تزال غارقة فى الأدرينالين، الذى تدفق ومنحها قوة دفع للحضور، لكن القيادة لفترة طويلة قهرتها، وهذا المبنى المقبض للنفس كان يقول لحواسها إنه إذا لم يكن لذكائها - حيث إنها فى نهاية المطاف لم تملك من الحقائق ما

يجعلها تستمر. فإن ما كانت تخاف منه كان حقيقيا
رغم أنها لم تعلم على وجه الدقة ما هو الذى تخاف
دقت الجرس ثانية. كان المبنى ساكنًا: استطاعت أ
تسمع صوتًا حادًا لجرس بعيد يأتى من الداخل. ثم
مرة أخرى، لا شىء، وكانت على وشك الذهاب خلف
المبنى عندما فتح الباب بشكل مفاجئ لتظهر فتاة
قذرة ترتدى قميصًا محبوكًا من الصوف، وستر
صوفية، وجيبًا سميكًا. كان لها وجه صغير شاحب
أسفل كتلة من الشعر الأصفر المجعد وعليه شريطا
أزرق ممسك بضفيرة مثل ذيل خروف. بدت متعبة.

وسألتها، "أى خدمة؟"

أدركت هارييت، مع تفهما لما تعنيه الكلمة - أن
الناس ببساطة لا تأتى إلى هذا المكان، وقالت بعناد
حقيقى، "أنا السيدة لوفات وقد حضرت لأرى ابنى."

كان واضحًا أن تلك الكلمات غير متوقعة من قبل
هذه المصحة.

رمقتها الفتاة، وندت عنها هزة رأس صغيرة لا
إرادية تعبر عن عدم القدرة على الاستيعاب، ثم قالت،
"د. ماك فيرسون ليس هنا هذا الأسبوع." كانت
إسكتلندية أيضًا، وقوية اللهجة.

قالت هارييت بصرامة، "لا بد أن شخصًا ما
ينوب عنه."

تراجعت الفتاة أمام أسلوب هارييت مبتسمة بعدم
يقين وبقلق شديد. دمدمت بتذمر، "إذًا، انتظرى هنا،

ذهبت للداخل. تبعتها قبل أن يغلق الباب الكبير ويمنعها. ونظرت الفتاة حولها سريعًا كما لو كانت تخطط لتقول لها يجب أن تنتظرى بالخارج، لكنها بدلاً من ذلك قالت، "سوف استدعى لك أحدهم،" ومضت إلى داخل كهوف مظلمة لردهة لها أضواء على امتداد السقف وبالكاد تخدش الظلمة.كانت هناك رائحة مادة تعقيم. صمت مطلق. لا، بعد وقت أدركت هارييت أصوات صراخ رفيع واهن بدأ، وتوقف، ثم عاد ثانية آتيًا من مؤخرة المبنى.

لا شىء حدث.، وخرجت إلى الردهة التى بدأت فى الإظلام باقتراب الليل.

كان المطر باردًا منهمرًا، صامتًا، ومنتظمًا، وقد اختفت برك المياه.

قرعت الجرس ثانية وبإلحاح، ثم عادت إلى الممر فى المدخل.

ظهر شخصان من بعيد تحت أضواء السقف التى كانت فى مثل حجم رءوس الدبابيس، واتجها إليها. شاب صغير فى رداء أبيض لم يكن نظيفًا، تتبعه فتاة تضع سيجارة فى فمها الآن، وكانت تغمض عينيها نصف إغماضة من دخان السيجارة. بدا كلاهما متعبًا ومشوشًا.

كان الشاب طبيعيًا رغم أنه بدا مرهقًا بشكل عام؛ إذا ما نظر إليه ببطء، إلى يديه، ووجهه، وعينيه، على أية حال، فإنه لم يكن شابًا مميزًا، لكن كان هناك

شىء ما بائس بخصوصه كما لو كان يحتوى غضبًا ا
يأسًا.

قال الشاب، "لا يمكنك أن تكونى هنا،" قالها
بطريقة مضطربة وغير حازمة. "ليست لدينا أيا
للزيارات هنا." كان صوته يحمل لهجة أهل جنو
لندن، صوتًا مسطحًا من الأنف.

قالت هارييت، "لكننى هنا، أنا هنا لأرى ابنى،
لوفات."

وفجأة أخذ نفسًا عميقًا ونظر ناحية الفتاة الت
زمت شفتيها معًا ورفعت حاجبيها.

وأضافت، "اسمع، لا أعتقد أنك تفهم، أنا ا
أغادر، أتعلم. لقد أتيت لأرى ابنى، وهذا ما أنا عازمة
عليه."

عندها. علم أنها تعنى ما تقول. هز رأسه ببط
كما لو كان يقول، "نعم،" لكن لم تكن هذه هى المسألة
كان ينظر إليها بقوة. فقد أعطيت تحذيرًا، وه
شخص يتحمل مسئولياته. ربما كان شخصًا تافهًا دو
شك، وبالتأكيد كان متعبًا للغاية، ولا يتغذى بما ف
الكفاية، وأنه يقوم بهذه الوظيفة، لأنه لم يستط
الحصول على غيرها، لكن وزن منصبه - وزنه التعي
بالنسبة لها - جعلها تتحدث من خلاله، كما كا
تعبيراته وعيناه الحمراوان المدخنتان من التع
صارمة، وذات نفوذ حتى أنها لتؤخذ على محمل
الجد.

قال، "عندما يتخلص الناس من أطفالهم ويتركونهم هنا فإنهم لا يأتون لزيارتهم بعدها."

وقالت الفتاة، "أترين، يبدو أنك لا تفهمين الأمر كلية."

سمعت هارييت نفسها تنفجر بالقول، "إننى سامت أن يقال لى إننى لا أفهم هذا وذاك. أنا أم الطفل. إننى أم بن لوفات، ألا تفهمون ذلك؟"

فجأة صار ثلاثتهم معًا فى جو من التفاهم، بل حتى جمعهم قبول يائس لنوع ما من الجبرية أو القدر المحتوم.

هز رأسه موافقًا، وقال، "حسنًا، سوف أذهب لأرى..."

فقالت، "وأنا أيضًا قادمة،" ولم يلفت هذا انتباهه فعليًا.

ثم صرخ بقوة، "أوه، لا، لن تأتى!" ثم قال شيئًا ما للفتاة، فبدأت تعدو بسرعة مدهشة أسفل الممر. وقال لهارييت، "ابق هنا،" وخطا خطوات واسعة خلف الفتاة.

رأت هارييت الفتاة تنحرف يمينًا وتختفى، ودون تفكير فتحت بابًا على يمينها، حيث رأت ذراع الشاب مرفوعة بإشارة لعنة، أو تحذير، بينما وصل إليها ما كان خلف ذلك الباب.

كان فى نهاية عنبر طويل به عدد من عربات الأطفال والأسرة على امتداد الجدران؛ وكان فى

العربات ـ كثير من المسخ البشرى. خطت خطوات
واسعة بسرعة عبر العنبر إلى الباب فى الطرف الآخر
من العنبر، واستطاعت أن ترى أن كل سرير أو عربة
يحوى رضيعًا أو طفلاً صغيرًا، وقد شوه الجانب
الإنسانى فيه وانحرف خارج النسق، أحيانًا بشكل
مرعب. وأحيانًا بصورة بسيطة. طفل صغير على هيئة
فاصلة برأس كبير متدلٍ على جذع جسمه... ثم شىء
مثل حشرة لاصقة بعيون هائلة جاحظة وسط رقائق
هشة متصلبة من الأطراف... وبنت صغيرة ضبابية
بأكملها لحمها يذوب ويسيل ـ كدمية بأطراف
طباشيرية متورمة وعيونها واسعة فارغة ومشدوهة،
مثل بحيرات زرقاء، وفم مفتوح يبين لسانًا صغيرًا
متورمًا... وصبى آخر بدا من النظرة الأولى طبيعيًا،
لكنها رأت أنه ليس هناك قفا لرأسه، فقد كان رأسه
كله وجهًا، وبدا أنه يصرخ فى وجهها. صفوف من
الأطفال عجيبو الهيئة، كلها تقريبًا نائمة وصامتة.
كانوا مخدرين بالمعنى الحرفى خارج نطاق عقولهم!
ساد صمت تام: كان هناك نشيج كئيب يأتى من عربة
جوانبها مغطاة بملاءات. أصبح الصراخ العالى
المتقطع أقرب الآن ولا يزال يهاجم أعصابها، ورائحة
غائط أقوى من رائحة المطهر. ثم أصبحت خارج عنبر
الكوابيس، فى ممر آخر موازٍ للممر الذى رأته فى
بادئ الأمر ومطابق له. وفى نهاية الممر رأت الفتاة
يتبعها الشاب يتقدمون ناحيتها قليلاً، ثم انحرفا يمينًا
مرة أخرى... فجرت بسرعة يتناهى إلى سمعها صوت

اقدامها المكتوم على جوانب الممر، وانحرفت حيث
ذهبا، ووجدت نفسها فى حجرة بالغة الصغر بها
عربات أدوية ومخدرات. جرت فى الغرفة وصارت
الآن فى ممر طويل أرضيته من الأسمنت وله أبواب
بنوافذ مراقبة فيها على امتداد الحائط المواجه لها.
كان الشاب والفتاة يفتحون أحد تلك الأبواب عندما
اقتربت وصار إلى جوارهم. وكان ثلاثتهم يتنفسون
بصعوبة.

قال الرجل الشاب، "لعنة الله،" لوجودها هناك.

فقالت هارييت له "فعلاً،" بينما فتح الباب على
حجرة على شكل مربع جدرانها من البلاستيك
الأبيض اللامع مزود بأزرار هنا وهناك، وبدا الباب
مثل مواد التنجيد الغالية المصطنعة. كان بن يرقد
على الأرض فوق مرتبة خضراء من المطاط. كان غير
واع، وعاريًا، داخل جاكيت ضيق (يحكم حركته)، ولون
لحمه أبيض مفتقد للحيوية ومُخضر. كان كل شىء؛
الجدران، والأرضية، وبن نفسه ملطخًا بالبراز! ومن
حوله بركة من البول الأصفر الداكن ترشح من
الحشوة المبللة به.

صرخ الرجل الشاب، "قلت لك ألا تحضرى!" ثم
امسك بأكتاف بن وأمسكت الفتاة بقدميه.

ورأت هارييت من الطريقة التى لامسوا بها
الطفل أنهم لم يكونوا قساة: وإن لم تكن هذه هى
المسألة على الإطلاق. حملا بين هكذا ـ لأنهم بهذه

الطريقة لم يكن عليهم أن يلامسوا إلا القليل جدًا منه
- خارج هذه الحجرة لمسافة قصيرة عبر الممر، ثم
خلال الباب الآخر إلى حجرة أخرى. تبعتهم، ووقفت
مراقبة. كانت حجرة لها أحواض على امتداد حائط
واحد، وحوض استحمام هائل، ورف أسمنتى منحدر
بسدادات على طوله. وضعوا بن على هذا الرف،
وخلعوا عنه الجاكيت الضيق، وضبطوا حرارة المياه،
وبدأ فى تنظيفه بخرطوم مياه متصل بأحد الصنابير
فى الأحواض. واستندت على الجدار، مراقبة، وقد
صدمت للحد الذى جعلها لا تشعر بشىء نهائيًا. لم
يتحرك بن، بل رقد مثل سمكة غارقة على لوح
البلاط، والفتاة تقلبه عدة مرات، عندما أوقف الشاب
عملية صب المياه بالخرطوم وحملاه إلى لوح بلاط
آخر حيث قاموا بتجفيفه، ثم أخذوا - جاكيتًا - ضيقًا
آخر وألبسوه إياه.

تساءلت هارييت مغتاظة، "لماذا؟"

لم يجيباها. ثم أخذوه، مقيدًا وغير واع، ولسانه
مدلٍ من فمه إلى خارج الحجرة أسفل الممر إلى داخل
حجرة ثالثة بها رف أسمنتى مثل سرير. وضعوه عليه،
ثم وقفا وتنهدا وقال الشاب، "حسنًا، ها هو." وقف
للحظة وعيناه مغمضتان محاولاً أن يستفيق من
المحنة، ثم أشعل سيجارة، ومدت الفتاة يدها لتأخذ
سيجارة هى الأخرى فأعطاها واحدة. وقفا يدخنان،
وينظران لها بطريقة منهكة ومهزومة.

لم تدر ماذا تقول. كان قلبها موجوعًا كما يجب على جزء منها، وقد صار طفلاً حقيقيًا، بدا عاديًا بأكثر مما رأته عليه أبدًا، وعيناه الباردتان الغريبتان مغلقتان؛ مثيرًا للشفقة: لم تره أبدًا مثيرًا للشفقة إلى هذا الحد.

وقالت، "أعتقد أننى سآخذه إلى البيت."

قال الرجل الشاب باختصار "الأمر يرجع إليك."

كانت الفتاة تنظر لهارييت بفضول، كما لو كانت جزءًا من الظاهرة التى يمثلها بن ؛ من نفس الطبيعة، وسألتها، "ماذا ستفعلين به؟" وأضافت، وقد أدركت هارييت أثر الخوف فى صوتها، "إنه قوى جدًا . أنا لم ار شيئًا مثل هذا من قبل أبدًا."

قال الرجل الشاب، "لم ير أى منا شيئًا مثل هذا."

"أين ملابسه؟"

ضحك الرجل بازدراء وقال، "سوف تضعين عليه ثيابه وتأخذينه للمنزل، هكذا ببساطة."

"لم لا؟ كان يرتدى ثيابًا عندما أتى."

تبادل الحاضرون - ممرضين كانوا أو ممرضين مساعدين يقومون بمهام عامة، أى ما كانوا - النظرات، ثم أخذ كلاهما نفسًا من سيجارته.

قال الرجل، "لا أعتقد أنك تفهمين، يا مدام لوفات، ما المسافة التى عليك قطعها للذهاب بداية؟"

"أربع أو خمس ساعات بالسيارة."

ضحك ثانية من استحالة الأمر - ومنها، ،، هاربيت - وقال، "سوف يفيق خلال الرحلة، ماذا إذًا؟"

"حسنًا، سيرانى،" قالتها ورأت فى عيونهم أنها تبدو غبية، "حسنًا، بماذا تنصح إذًا؟"

قالت الفتاة، "لفيه بملاءتين فوق الجاكين الضيق."

وقال الرجل، "ثم قودى السيارة بسرعة."

الآن، وقف الثلاثة فى صمت ينظرون إلى بعضهم البعض نظرة متوازنة خالية من التطرف.

ثم قالت الفتاة فجأة، "حاولى القيام بالمهمة، فقط حاولى." وبدت محتقنة بالغضب من القدر الذى ألقى بها فى هذا المكان، "أنا سأترك هذا المكان نهاية الشهر."

قال الرجل، "وأنا أيضًا، لا أحد يبقى هنا أكثر من أسابيع قليلة."

ردت هارييت، "حسنًا، إننى لا أنوى تقديم شكوى، أو أى شىء من هذا القبيل."

"عليك بتوقيع نموذج كى ننهى المسألة، علينا أن نحمى أنفسنا،" هكذا قال لكنهم لم يستطيعوا إيجاد النموذج بسهولة! أخيرًا، بعد الكثير من البحث فى غرفة ملفات وجدوا قطعة من الورق منسوخة منذ

سنوات مضت، مكتوبًا فيها ما يعنى أنها تعفى المصحة من المسئولية تمامًا.

التقطت بن ولمسته لأول مرة؛ كان باردًا كالثلج، ورقد ثقيلاً فى ذراعيها، وفهمت لأول مرة معنى، "كتلة ميتة."

وخرجت من الممر قائلة، "لن أمر فى هذا العنبر ثانية." رد عليها الشاب بسخرية غريبة، "من يمكنه أن يوجه اللوم إليك؟" وتقدم حاملاً كومة من الملاءات، وقاموا بلف بن فى اثنتين منها وحملوه إلى الخارج ووضعوه فى السيارة، أرقدوه على المقعد الخلفى، وكوموا المزيد من الملاءات فوقه وتركوا وجهه فقط مكشوفًا.

وقفت معهم بجوار السيارة، وبصعوبة استطاع احدهم أن يرى الآخر، فقد كان الظلام سائدًا باستثناء أضواء السيارة والمبنى. وصوت الخوض فى الماء والوحل يتصاعد تحت الأقدام. أخرج الرجل الشاب عبوة بلاستيكية من جيب ردائه الأبيض، تحتوى على سرنجة وزوج من الإبر وبعض الأمبولات، وقال لها:

" من الأفضل أن تأخذى هذه الأشياء معك."

ترددت هارييت، وقالت الفتاة، "مدام لوفات، لا اظن أنك تدركين."

أومأت بالموافقة، وأخذت العبوة وركبت السيارة.

أضاف الرجل الشاب، "يمكنك أن تعطيه حت
أربع أمبولات فى اليوم كحد أقصى."

سألت، عندما أوشكت على رفع قدميها من عا
بدال الدبرياج، "كم من الوقت تعتقد أنه سيبقى فيه
تحت تأثير الدواء؟"

كانت وجوههم مثل رقع بيضاء فى الظلام، لكنها
استطاعت أن ترى الرجل يهز رأسه مبتعدًا عنها
وجاءها صوت الفتاة، لا يبقى تأثير الدواء على أ
منهم كثيرًا. إنما هذا... إنه قوى جدًا. إنه أقوى مم
رآه أى منا."

"ما يعنى أنه كان ليبقى زمنًا أطول مع غيره؟"

قال الشاب، "لا، هذا ليس كل ما فى الأمر، لأنه
قوى، وهو يقاوم ويحارب طوال الوقت، وهكذا فإنه يجب
أن يأخذ جرعات أكبر... جرعات ربما تقتل غيره."

قالت هارييت، "حسنًا، شكرًا لكما أنتما
الاثنين."

وقفا يراقبان بينما انطلقت بسيارتها، لكنهما
اختفيا فى الحال تقريبًا فى الظلام المطير.

وما أن أدارت السيارة جهة الطريق حتى رأتهما
واقفين فى الرواق الخافت الإضاءة متجاورين، كما لو
كانا متكاسلين عن الذهاب للداخل.

قادت السيارة بأسرع ما يمكنها خلال المطر
الشتوى متجنبة الطرق الرئيسية، مراقبة بإحدى

عينيها كوم الملاءات خلفها. عند منتصف المسافة إلى البيت تقريبًا رأت الملاءات تتشنج وقد استيقظ بن وهو يجار بالغضب، ويتقلب فى مقعده، وسقط على أرضية السيارة حيث بدأ يصرخ، ليس مثل الصراخ الرفيع العالى بشكل أوتوماتيكى الذى سمعته فى المصحة، بل صرخات خوف تذبذب فى داخله. فى النهاية، تحملت المشقة لمدة نصف ساعة تقريبًا، وهى تشعر بالصوت المكتوم لسقوط بن الذى يترجرج داخل السيارة. بحثت عن مكان انتظار لا توجد فيه سيارة أخرى، حتى وجدت مكانًا توقفت فيه، وتركت محرك السيارة دائرًا، واخرجت السرنجة، وقد تعلمت كيفية استخدامها من الأمراض، التى أصيب بها أطفالها الآخرون. فتحت الكبسولة التى لم يكن عليها اسم المركب، وملأت السرنجة ثم مالت ناحية المقعد الخلفى، حيث كان بن عاريًا باستثناء الجاكيت الضيق، أزرق البشرة من البرد، يناضل ويصارع ويجأر! نظر بعينيه وهى تتوهج ببريق الكراهية لأعلى ناحيتها ، ولم يتعرف عليها - كما كانت تظن. لم تجرؤ على خلع الجاكيت، كانت خائفة من أن تحقنه فى أى مكان قريب من رقبته حتى استطاعت أن تقبض على إحدى كاحليه وتمسك به ووخزت الإبرة فى الجزء السفلى من سمانة ساقه، وانتظرت حتى ارتخت: استغرق الأمر لحظات قليلة. ترى ماذا كان هذا الدواء؟

ثم وضعته مرة أخرى على المقعد الخلفى تحت الملاءات، وانطلقت على الطريق الرئيسى إلى البيت.

وصلت المنزل فى حوالى الثامنة مساءً. من المفترض وأن يكون الأطفال جالسين حول مائدة المطبخ وقتها أن يكون معهم: لم يكن قد ذهب للعمل. كان بن عا ذراعيها فى كومة من الملاءات ووجهه مغطى، وذهب من فورها إلى حجرة المعيشة، ونظرت نحو الجدار الواطئ حيث جلسوا جميعًا حول المائدة الكبيرة؛ لوك وهيلين. وجين، وبول الصغير، ودافيد الذى كان وجهه يفيض بالغضب، ومتعبًا للغاية.

علقت قائلة، "إنهم كانوا يقتلونه"، ورأت أن دافيد لن يغفر لها قولها هذا أمام الأطفال. أبدى الأطفال شعورهم بالخوف.

صعدت رأسًا إلى حجرة النوم الكبيرة، ومنها إلى حجرة الأطفال حيث وضعت بن على السرير. وكان موشكًا على الاستيقاظ، وبدأ ثانية فى الصراخ والصراخ والجئير. ثم كان على الأرض مرة أخرى يتدحرج عليها؛ ومرة أخرى انثنى وانحنى وتقلب، وفى عينيه كراهية خالصة.

لم تستطع أن تخلع عنه الجاكيت الضيق، ونزل إلى المطبخ، وأحضرت اللبن والبسكويت، بينما أسرتها جالسة تراقبها فى صمت تام.

كان صراخ بن وصراعه يهز المنزل هزًا.

قال دافيد، "سوف تأتى الشرطة إلينا بسبب الإزعاج."

امرته، "فقط حافظ على بقائهم هادئين،" وصعدت لأعلى بالطعام.

عندما رأى بن الطعام الذى تحمله صار صامتًا وساكنًا وفى عينيه شراهة. رفعته مثل مومياء، ووضعت كوب اللبن على شفتيه فكاد يغرق فيه وهو يزدرده؛ كان جوعان حتى ليكاد يموت، وأطعمته قطع البسكويت مبقية أصابعها بعيدة عن أسنانه، وعندما انتهى ما أحضرته من طعام بدأ يجأر ويضرب مرة اخرى. وخزته بالإبرة بجرعة أخرى من الدواء.

كان الأطفال فى هذه الأثناء أمام التليفزيون، لكنهم لم يكونوا يشاهدونه فعليًا، جين وبول كانا يبكيان. قالت لدافيد بنعومة وصوت خفيض يكاد يسمعه، "حسنًا، أنا مذنبة، لكنهم كانوا يقتلونه."

لم يحرك ساكنًا، بينما ظهرها له، فلم ترغب فى ان ترى وجهه، وقالت، "كان ليصبح مقتولاً فى غضون شهور قليلة. وربما أسابيع."

صمت. وأخيرًا التفتت إليه، وتحملت النظر إليه بصعوبة، وقد بدا مريضًا، لكنه لم يكن كذلك...

قالت، "لم أتحمل الأمر."

قال عامدًا، "أعتقد أن هذه كانت الفكرة."

انفجرت فى البكاء، نعم، لكنك لم تر ما يجرى هناك، لم تر ـ!"

"كنت حريصًا ألا أرى،" ماذا كنت تتوقعين؟ أنهم سيحولونه إلى عضو طبيعى متوائم مع المجتمع، وأن

كل شيء سيكون رائعًا؟" كان يسخر منها لأن حلقه كا
محتقنًا بالدموع.

والآن نظر كلاهما لبعضهما البعض طويلاً، بعن
بينما يتراءى لكل منهما ما يخص الآخر فى المسأل
فكرت، حسنًا، لقد كان على حق وأنا على خطأ. لك
ما حدث قد حدث.

قالت بصوت مسموع، "حسنًا، لكنى أعتقد أ
الأمر حدث."

"هذه هى الكلمة الصحيحة، أعتقد."

ثم جلست إلى جوار أطفالها على الأريكة وأدرك
الآن أن وجوههم جميعًا تغطيها الدموع.

لم تستطع أن تلمسهم لتخفف عنهم؛ لأنها كان
السبب فى جعلهم يبكون، وأخيرًا قالت، "إلى النوم
فصعدوا على الفور دون أن ينظروا ناحيتها.

أخذت تموينًا مناسبًا من الطعام إلى بن فى الدو
العلوى، فى حجرة النوم الكبيرة. نقل دافيد أشياءه إل
حجرة أخرى.

وعندما استيقظ بين قرب الصبح وبدأ يجأر
أطعمته وأعطته دواءه.

أعدت الإفطار للأطفال كالعادة، وحاولت أن تبد
طبيعية، كما حاولوا هم أيضًا، ولم يذكر أى منهم بن .

قالت عندما نزل دافيد، "من فضلك، خذهم معا
إلى المدرسة."

صار المنزل قاصرًا عليها هى وبن . عندما آفاق، أطعمته لكنها لم تعطه الدواء. جأر وصارع، لكنها اعتقدت أنه فعل ذلك بغضب أقل كثيرًا.

بدا فى حالة خمول أو ركود مؤقت، متهرئًا ومرهقًا. قالت، "بن، أنت فى البيت الآن، لست فى ذلك المكان." كان منصتًا. وأردفت، عندما تتوقف عن إثارة كل هذا الضجيج، سأخرجك من ذلك الشىء (الجاكيت) الذى وضعوك فيه."

بعد فترة قصيرة سمعت أصواتًا، فذهبت إلى الدرابزين فوجدت دافيد الذى لم يذهب إلى مكتبه قد عاد ليمكث فى المنزل ليساعدها. وقفت سيدتان من الشرطة هناك، وكان يتحدث إليهما، ثم ذهبتا.

لم تسأل عما كانت الشرطيتان تسألان عنه.

قالت لبن ، قرب موعد عودة الأطفال، "أريدك أن تكون هادئًا الآن يا بن ، سيحضر الأطفال هنا، وسوف تخيفهم بالصراخ على هذا النحو."

صار هادئًا من الإرهاق الذى عاناه.

كان مستلقيًا على الأرضية، التى أصبحت ملطخة بالبراز الآن. حملته إلى الحمام، وخلعت عنه الجاكيت الضيق، ووضعته فى البانيو لتحميه ورأت أنه كان يرتعد من الرعب: لم يكن دائمًا فاقدًا للوعى عندما كانوا ينظفونه فى ذلك المكان. عادت به إلى السرير وقالت، "إذا بدأت كل هذا الضجيج مرة أخرى، سأضطر لأن أضع هذا الشىء عليك ثانية.

فصر على أسنانه نحوها وعيناه متقدتا
بالغضب، لكنه كان خائفًا أيضًا. الآن سوف تتحكم فيه
من خلال الخوف.

قامت بتنظيف حجرته بينما رقد محركًا ذراعيه
فى الهواء كما لو كان نسى كيف يفعل ذلك. فقد كان
فى هذا الثوب الضيق، السجن ربما منذ اللحظة
الأولى التى دخل فيه المصحة.

ثم قرفص فوق سريره محركًا ذراعيه ومحدقًا
حوله فى الحجرة، متعرفًا عليها، وعلى أمه أخيرًا.

وقال، "افتحى الباب."

فقالت، "لا، ليس قبل أن أتأكد من أنك
ستتصرف بشكل جيد."

كان على وشك البدء ثانية، لكنها صرخت فيه
"بن، إننى أعنى ما أقول! إذا صحت أوصرخت فسوف
أقيدك."

سيطر على نفسه، وناولته بعض الساندويتشات
التى حشرها فى فمه، إلى حد الاختناق بها، فقد جرد
من كل ما تعلمه من مهارات اجتماعية أساسية، والتى
كان صعبًا تعليمه إياها.

تكلمت بهدوء بينما كان يتناول طعامه، "والآن
استمع إلىّ. بن، عليك بالإنصات لى. تصرف بشكل
لائق وسوف يكون كل شىء على ما يرام. يجب علينا
أن تأكل بطريقة مناسبة. يجب أن تستعمل الإناء

المعدنى أو الذهاب إلى المرحاض. يجب ألا تصرخ أو تصارع. لم تكن متأكدة أنه سمعها، فأعادت عليه كلماتها أو تعليماتها، واستمرت فى ترديدها.

فى ذلك المساء ظلت مع بن، ولم تر أطفالها الآخرين إطلاقًا. وقضى دافيد ليلته فى الحجرة الأخرى بعيدًا عنها. شعرت أن ما تفعله هذه المرة هو أن تحجبهم عن بن، بينما تعيد تعليمه الحياة الأسرية. لكن كيف كان شعورهم بالمسألة؟ علمت ذلك، أنها ادارت ظهرها لهم جميعًا، واختارت الذهاب لبلد غريب مع بن .

فى تلك الليلة أحكمت إغلاق الباب عليه بالقفل، وتركته دون إعطائه دواء متمنية أنه سوف ينام. نام، لكنه صحا من نومه صارخًا فى خوف. دخلت عليه فوجدته مكومًا بجوار الحائط عند طرف السرير، وقد وضع إحدى ذراعيه على وجهه، غير قادر على سماعها، بينما تكلمت هى وتكلمت مستخدمة ما استطاعت من كلمات الإغواء المناسبة لوقف هذه العاصفة من الرعب. أخيرًا، صار هادئًا، وأعطته طعامًا. ولم يكن ليكتفى من الطعام: كان جائعًا لحد الموت تقريبًا. لم يكن عليهم أن يبقوه مخدرًا، فعندما يكون مخدرًا لا يستطيع أن يأكل!

بعد أن أطعم، كوم نفسه ثانية بجوار الحائط، ثم قرفص على السرير، ونظر جهة الباب؛ حيث سيدخل سجانوه: فلم يكن قد فهم فعليًا أنه أصبح فى المنزل.

ثم أحنى رأسه من النعاس... ثم استيقظ؛ وأح
رأسه من النعاس... واستيقظ... وهدأت من روعه، ا
غط فى النوم من الإعياء.

مرت الأيام، ومرت الليالى.

أخيرًا فهم أنه صار فى منزله، وأنه آمن. ببطء
توقف عن الأكل كما لو كانت كل لقمة هى آخر لقمة
فى حياته. وببطء، بدأ فى استخدام الإناء المعدنى
للإخراج، ثم سمح لنفسه أن يؤخذ من يده عبر المم
إلى المرحاض. ثم نزل للدور الأرضى راشقًا نظرات
غضب سريعة حوله، ليرى العدو قبل أن يتم القبض
عليه ثانية! كان هذا البيت ـ كما رأى الأمر ـ حيث أوقع
به فى الشرك، بواسطة أبيه. عندما سلط نظره اول
مرة على دافيد، تراجع للخلف، وأطلق صوتًا مثل
فحيح الأفعى ازدراء.

لم يحاول دافيد طمأنته؛ فقد كان بن ، من وجهة
نظره، مسئولية هارييت، وكانت مسئوليته تنحصر فى
الأطفال الأربعة الآخرين، الأطفال الحقيقيين.

اتخذ بن مكانه على المائدة الكبيرة وسط الأطفال
الآخرين، وأبقى نظره مسلطًا على أبيه، الذى خانه
قالت هيلين، "مرحبًا بن،" ثم لوك، "مرحبًا بن،" ولكن
بول الذى كان تعيسًا؛ لأن بن عاد ثانية، وسحب نفسه
ليغوص فى مقعد مدعيًا أنه يشاهد التليفزيون، لم
يرحب به.

وأخيرًا قال بن ، "مرحبًا." وتنقلت عيناه من وجه
لآخر: ربما ليحدد؛ صديقًا كان أم عدوًا؟

تناول طعامه وهو يترقبهم. عندما ذهبوا للجلوس ومشاهدة التليفزيون فعل مثلهم، مقلدًا إياهم ليضمن الأمان، ونظر للشاشة لأنهم فعلوا ذلك.

هكذا عادت الأمور إلى مجراها الطبيعى، إذا كانت تلك هى الكلمة التى يجوز استخدامها.

لكن بن لم يثق فى أبيه؛ لم يثق فيه ثانية أبدًا. لم يستطع دافيد حتى أن يقترب منه دون أن يتجمد بن ويتراجع بعيدًا، وكان يزمجر إذا ما اقترب منه أكثر.

عملت هارييت، عندما تأكدت أنه تعافى من أثر السجن الذى عاش فيه، على فكرة استنبطتها. كانت الحديقة قد ساءت حالتها قد تدهورت لغياب من يرعاها خلال الصيف الماضى، وحضر شاب يدعى "جون" ليساعدها فى العناية بها. كان شابًا عاطلاً، عمل فى عدة وظائف غريبة.

على مدى عدة أيام قام بقطع سياج من الشجيرات، واستخرج بعض الشجيرات المعطبة، ونشر فرعًا ميتًا من شجرة، وجز عشب المرج. لم يفارقه بن طوال الوقت. وربض عند أبواب المنزل فرنسية الطراز، فى انتظار قدوم جون كل صباح، وتبعه هنا وهناك مثل جرو صغير. لم ينشغل جون به على الإطلاق. كان جون شابًا ضخمًا، أشعث الرأس، ودودًا، وذا طبيعة طيبة؛ صبورًا: فقد عامل بن بطريقة صالحة لتمشية الحال، طريقة فظة لكنها فعالة كما لو كان بن ، فى الواقع، جروًا صغيرًا يحتاج للتدريب.

"لا، يجب أن تجلس هناك الآن وتنتظر حتى انتهى من عملى." "أمسك هذه المقصات من أجلى، هذا جيد" "لا، سأذهب للبيت الآن، يمكنك أن تأتى معى حتى البوابة."

وأحيانًا، كان بن يئن ويشحب وتعترى وجهه بعض القتامة عندما يغادر جون.

ثم ذهبت هارييت إلى مقهى معين - مقهى بيتى كما كان يدعى -حيث عرفت أنه يبقى عالقًا فيه طوال الوقت، ووجدته هناك مع بعض أقرانه. كان عصابة من الرجال الشبان العاطلين، حوالى عشرة منهم، وأحيانًا يكون معهم زوج من الفتيات. لم تكلف نفسها عناء شرح أى شىء، لأنها علمت الآن أن الناس فهموا حالها بشكل تام - حتى ولو لم يكونوا خبراء، أو أطباء.

جلست وسط أولئك الشباب، وقالت إنه بقى عامان، وربما أكثر قبل ذهاب بن للمدرسة، فهو ليس مناسبًا لدخول حضانة مدرسية عادية. نظرت لجون فى عينيه عامدة عندما استخدمت كلمة مناسب، فهز رأسه موافقًا إياها الرأى. أضافت إنها تريد العناية به أثناء النهار، وإنها سوف تدفع جيدًا لمن يقوم بهذه المهمة.

سأل جون، "تريدينى هناك فى بيتك؟" رافضًا الاقتراح.

فقالت، "سيعود الأمر لك، إنه يحبك يا جون، هو يثق بك فعلاً."

نظر لأقرانه: استشاروا بعضهم البعض بعيونهم. ثم هز رأسه موافقًا.

الآن، صار يأتى إلى البيت معظم الأيام فى حوالى التاسعة صباحًا، ويذهب بن معه على دراجته البخارية: ذهب جذلاً ضاحكًا، دون أن ينظر للخلف على أمه، أو أبيه، أو إخوته وأخواته. كان الاتفاق يقضى أن يبقى بن بعيدًا تمامًا عن المنزل حتى وقت العشاء، لكن عادة كان يبقى لفترة أطول من ذلك ويعود متأخرًا. صار بن جزءًا من مجموعة الشباب العاطلين، الذين يمكثون على أرصفة الشوارع، ويجلسون معًا فى المقاهى، وأحيانًا يقومون بأعمال شاذة متنوعة، أو يذهبون للسينما، وينطلقون على الدراجات البخارية أو فى سيارات يستعيرونها.

عادت الأسرة أسرة مرة أخرى. إلى حد ما، تقريبًا.

عاد دافيد لينام فى حجرة نوم الزوجية. كانت هناك مسافة تفصل بينهم. خلق دافيد هذه المسافة، والآن أبقى عليها؛ لأن هارييت آلمته إلى حد بعيد: وتفهمت الأمر. أحاطته علمًا بأنها الآن تتناول حبوب منع الحمل: بالنسبة لكل منهم كانت لحظة كئيبة وباردة جدًا، لأنهم شعروا أن كل شىء كانوا يناضلون وناضلوا من أجله فى الماضى، والذى جعل من المستحيل عليها أن تتعاطى الحبوب، كان خطأ جسيمًا، أن يعبثوا أو يحاولوا التأثير على عمليات

الطبيعة! الطبيعة، الآن يذكرون أنفسهم أنهم ذات مر شعروا - أنها كانت عند مستوى ما آخر يمكن الاعتماد عليها.

اتصلت هارييت بدوروثى، وطلبت منها إن كانت تستطيع الحضور لأسبوع، ثم توسلت إلى دافيد أن يذهب معها فى إجازة فى مكان ما. لم يكونوا وحدهم أبدًا منذ مولد لوك. اختاروا فندقًا هادئًا قريبًا فى الريف، ومشيا لمسافة معقولة، وكانا متفاهمين مع بعضهما البعض (حذرين تجاه بعضهما البعض وحريصين على شعور بعضهما البعض). كان قلبها موجوعًا لحد بعيد؛ لكن ذلك بدا كأنه شىء عليهم أن يتعايشا معه. أحيانًا، خاصةً فى أكثر لحظاتهم سعادة، لم يتمكنا من إيقاف عيونهم عن الاحتقان بالدموع. لكن فى الليالى التى ترقد فيها بين ذراعىّ زوجها كانت تدرك أنه لم يكن هناك شىء مثل الشىء الحقيقى، مثل الماضى!

وقالت، "افترض أننا فعلنا ما قلنا إننا سنفعله، أقصد الاستمرار فى إنجاب الأطفال؟"

شعرت لأى حد تقلص جسده، وشعرت بغضبه.

أخيرًا سألها "وهكذا لم يحدث ما حدث أبدًا؟ وعرفت أنه كان فضوليًا يرغب فى سماعها: ولم يستطع تصديق أذنيه!"

"مولد بن آخر لن يحدث ثانية، ولم يجب أن يحدث؟"

وأخيرًا علق، "المسألة ليست فى بن آخر،" وأبقى على صوته بلا مشاعر بسبب غضبه.

أدركت أنه كان يدينها ويهاجمها به بالضبط، هذا الذى حاولت دائمًا أن تخفيه عن نفسها، أو على الأقل الأسوأ منه: أنها سببت للأسرة جرحًا أبديًا عندما ابقت على بن .

واصلت بإلحاح، "يمكننا إنجاب المزيد من الأطفال."

"والأطفال الأربعة الذين لدينا، لا يعدون أم ماذا؟"

"ربما أعادنا هذا (الإنجاب مرة أخرى) معًا مرة أخرى، وجعل الأمور تسير نحو الأفضل..."

كان صامتًا؛ وفى مقابل هذا الصمت أمكنها سماع إلى أى مدى كان رنين كلماتها زائفًا.

وفى النهاية سأل، بنفس الطريقة الخالية من المشاعر، "ماذا عن بول؟ لأنه كان الأكثر خسارة."

أجابت بيأس، "ربما استطاع تجاوز الأمر،"

" لن يستطيع تجاوز الأمر يا هارييت." صار صوته الآن يتذبذب بما كان يثبطه.

ابتعدت عنه، ورقدت تبكى.

عندما أوشكت إجازات الصيف أن تحل كتبت خطابات لكل فرد فى العائلة، تشرح فيها أن بن أصبح

يبقى فى البيت لفترات محدودة جدًا. وشعرت به الصدق، وأنها خائنة بقولها ذلك: لكن خائنة لمن؟

حضر بعضهم. لكن مولى لم تحضر، و فريدريك الذى لم يسامحها على استعادة بن ؛ كما ا يسامحوها جميعًا أبدًا، علمت ذلك علم اليقين حضرت سارة أختها مع آمى ودوروثى التى كان بمثابة الدرع الواقية لها ضد العالم الآن. لكن إخو وأخوات آمى ذهبوا للإقامة مع أبناء عمومة آخرين أبناء أنجيلا، وأدرك أبناء لوفات أنهم لن يحظوا برفا فى الإجازات بسبب بن. باختصار حضرت ديبورا التى تزوجت وطلقت منذ أن رأوها آخر مرة. وصار فتاة شائكة، وراقية، وذكية بشكل مضطرد، ويائس كذلك، وكانت خالة طيبة للأطفال بأسلوب عفوى دو مهارة، فهى تقدم لهم هدايا غالية الثمن غير مناسب كان جيمس هناك، وقال عدة مرات إن المنزل يش كعكة فواكه كبيرة، لكنه قالها بطريقة أكثر توددًا. كما كان هناك بعض أبناء الخالة البالغين فى الطر المنفلت من حبل العائلة، وكذلك أحد زملاء دافيد.

وأين كان بن ؟ ذات يوم كانت هارييت تتسوق ف البلدة، وسمعت زئير دراجة بخارية خلفها، والتفت لترى مخلوقًا مثل جوكى (راكب خيول السباق) م زمن فضائى ما ـ مفترض أنه جون ـ يربض عا قضبان الدراجة لأسفل، ومن خلفه طفل قزم متشب به بقوة: رأت ابنها بن، وفمه مفتوح فيما بدا لها أن

ترنيمة أو انجذاب صوفى. لم تره أبدًا على هذه الحال. سعيدًا؟ هل هذه هى الكلمة المناسبة؟

أدركت عندها أنه صار مثل حيوان منزلى أليف أو تميمة تجلب الحظ لهذه الجماعة من الرجال الشبان. وكما بدا لهارييت، كانوا يعاملونه بخشونة، وبلا حنان ويسمونه "دوبى"، أو "القزم"، أو "الغريب رقم ٢ أو "هوبيت"، أو "جريملين". "دوبى، أنت تقف فى طريقى." "اذهب، وآتنى بسيجارة من جاك، يا هوبيت." لكنه كان سعيدًا. كل صباح، كان يقف عند النافذة منتظرًا واحدًا منهم ليأتى ويأخذه؛ وإذا خذلوه، قرعوا الجرس ليقولوا إنهم لا يستطيعون أخذه اليوم، يصبح محتقنًا بالغضب والشعور بالحرمان، ويضرب بقدميه، وهو يجأر حول المنزل.

كان الأمر برمته يكلف مبلغًا كبيرًا من المال. كان جون وعصابته يقضون أوقاتًا طيبة على حساب عائلة لوفات؛ ليس فقط، فى هذه الأيام، على حساب جيمس جد بن، حيث إن دافيد قام بكل أنواع الأعمال الإضافية ليغطى التكلفة. لم يترددوا فى الدق على المسمار أو بمعنى آخر الضغط على أهل بن .

"سوف نأخذ بن معنا إلى البحر، إذا رغبتم."

"أوه، حسنًا، سيكون هذا رائعًا."

"سوف يكلف هذا عشرين جنيهًا - كما تعلمون هناك بنزين يجب وضعه فى السيارة." عندها تنطلق الماكينات بزئيرها إلى الشاطئ، المزدحم بالشباب

والفتيات. ومعهم بن. وعندما أعادوه للمنزل قالوا
"لقد كلف هذا أكثر مما اعتقدنا." "كم كلف؟" "عشر
جنيهات أخرى."

ربما قال أحد أبناء العم، "هذا لطيف جدًا له
إذا سمعوا أنه سيذهب للشاطئ - تمامًا كما لو كان
هذا أمرًا طبيعيًا، صبى صغير يؤخذ لقضاء وقت
ممتع وكفى. كان يأتى بعد يوم من الشعور بالأمان
والمتعة مع جون وأقرانه، حيث أغاظوه وعاملوه
بخشونة، لكنه قبل ذلك، ويقف بجوار المائدة؛ حيث
العائلة كلها تنظر إليه ووجوههم وقورة وحذرة، ويقول

"إعطنى خبزًا،" أو "إعطنى البسكويت."

وكان لوك وهيلين أو جين، ليس بول أبدًا، يقولون
"اجلس يا بن،" بأناة ولياقة اعتادوا أن يعاملوه بها
التى آلمت هارييت.

كان يتسلق المقعد بحيوية، ويجلس نفسه ليكون
مثلهم، وعرف أنه لا يجب أن يتحدث وفمه ممتلئ
على سبيل المثال، ولا يجب أن يأكل وفمه مفتوح.

أطاع بعناية مثل هذه القواعد، وتلك الحركات
الحيوانية النابضة بالحيوية، التى يقوم بها بنفسه
محتجزًا خلفه شفاهًا مطبقة، منتظرًا حتى يصبح فمه
فارغًا قبل أن يقول، "سينزل بن الآن،" أو"بن يريد
الذهاب للنوم."

لم يعد ينام فى حجرة الأطفال الآن، لكن فى
الحجرة الأقرب لأبويه فى الممر. كانت حجرة الأطفال

خاوية! لم يتمكنوا من إغلاق الباب عليه من الداخل: صوت المفتاح يدار فى فتحة الباب، وانزلاق قفل الباب يجعله ينفجر فى الصراخ ويضرب الهواء بغضب. كان آخر شىء يفعلونه قبل النوم، هو أن يغلق الأطفال أبوابهم بهدوء من الداخل. ما يعنى أنها لم تستطع الدخول عليهم لتتفقد أحوالهم قبل أن تذهب إلى سريرها، أو لترى إذا ما كان أحدهم مريضًا. لم ترغب فى أن تطلب منهم ألا يغلقوا الأبواب، ولا أن تجعل من الأمر مشكلة كبيرة باستدعاء صانع الأقفال، لتحصل على أقفال خاصة مناسبة ـ يمكن فتحها من الخارج بمفتاح يكون مع أحد الكبار. جعلتها هذه المسألة، من إغلاق الأطفال الأبواب من الداخل، تشعر بأنها مستبعدة، تغلق الأبواب دونها للأبد، وأنهم يتنكرون لها ويجحدونها. أحيانًا، ذهبت بنعومة ناحية أحد أبوابهم وصفرت حتى يسمحوا لها بالدخول، وكانوا يسمحون لها، ثم تكون احتفالية قصيرة من العناق والقبلات، لكنهم كانوا يفكرون فى بن، الذى من الممكن أن يدخل عليهم... وبالفعل وصل فى مرات عديدة ووقف فى صمت ينظر من خلال الباب المفتوح، ويحدق فى المكان ومشهد العناق والقبلات الذى لم يكن ليفهمه بأى حال.

كانت هارييت تتمنى أن تغلق أبوابهم من الخارج. قال دافيد محاولاً المزاح حول المسألة، إنه كان ليغلق الأبواب فى أحد الأيام. فى أكثر من مرة، استيقظت لترى بن واقفًا فى صمت، هناك فى شبه الظلام،

مـحـدقًـا فـيـهـم. تحـركت الـظـلال من الحـديـقـة إلى السقف، وانتهى فضاء الغرفة الكبيرة إلى غموض كبير، وهناك وقف هذا الطفل، الجنى، نصف مرئى، واقتحمت وطأة هذه العيون غير الإنسانية نومها وأرقتها.

كانت تقول له بلطف، مبقية على مستوى صوتها منخفضًا من الخوف الحاد الذى شعرت به، "اذهب للنوم يا بن." ترى، ما الذى كان يفكر فيه مراقبًا إياهم نائمين؟ هل أراد أن يؤذيهم؟ هل كان يجرب بؤسًا لم تستطع تخيله، لأنه كان مستبعدًا دائمًا من اعتيادية الأمور فى هذا المنزل ومن أهله؟ هل أراد أن يضع ذراعيه حولها؟ لكن لم تكن هناك استجابة، ولم يكن هناك دفء يجمعهما، كما لو أنه لم يشعر أبدًا بلمستها له.

لكن، فى نهاية المطاف، كان بقاؤه فى المنزل لا يتجاوز ساعات قليلة جدًا.

قالت لدافيد، لسنا بعيدين تمامًا عن أن نكون طبيعيين مرة أخرى، كما آمل،" متشوقة إلى أن يطمئنها. لكنه هز رأسه موافقًا لها فقط، دون النظر إليها.

فى الحقيقة، لم يكن هذان العامان، قبل ذهاب بن للمدرسة، بهذه الدرجة من السوء: وبعدها استعادت هذين العامين بشىء من الامتنان لمرورهم بسلام. فى عامه الخامس أعلن كل من لوك وهيلين

انهما يريدان الذهاب لمدرسة داخلية. كان عمرهم ١٢ و١١عامًا على التوالى. كان هذا، بالطبع، ضد كل ما امن به دافيد وهارييت. قالا كلامًا بهذا المعنى؛ وذكرا ايضًا أنهم لا يمكنهما تحمل تكاليف المدارس الداخلية.

لكن، مرة أخرى، كان على الأبوين مواجهة المدى الذى فهم به الأطفال الحال، وإلى أى مدى تجادلا حوله وخططوا، ومن ثم تصرفا على أساس هذا الفهم والجدل والتخطيط المسبق. كان لوك قد كتب بالفعل لجده جيمس، وكتبت هيلين لجدتها مولى. وهكذا تم تامين دفع مصاريف مدارسهم.

قال لوك بطريقته المنطقية، "لقد اتفقا معنا على ان هذا أفضل لنا. نحن ندرك أنكما لا تستطيعان المساعدة، لكننا لا نحب بن ."

حدث هذا، بالضبط، بعد أن نزلت هارييت ذات صباح، ومن خلفها لوك، وهيلين، وجين وبول، لتجد بن مقرفصًا فوق المائدة الكبيرة وفى يده دجاجة غير مطبوخة أخذها من الثلاجة، التى كانت لا تزال مفتوحة ومحتوياتها قد تناثرت على الأرضية.

شن بن غارة عليها، على الثلاجة، فى نوبة وحشية ما، لم يستطع التحكم فيها. وكان ينخر بأنفه فى حالة من الرضا التام، وقد مزق الدجاجة النيئة إربًا بأسنانه ويديه النابضتين بقوة بربرية. نظر بن من فوق الذبيحة الممزقة مقطعة الأوصال جزئيًا إلى

هـاريـيت وإلى أشـقـائه، وزأر. ثم رأت الحـيـويـة تـمـو
داخله عـنـدمـا وبـخـته قـائـلـة، "بن الشـريـر،" وانتـد
بقامته واقفًا على المائدة، ثم قفز إلى الأرض وواجـهـا
وبقايا الدجاجة متدلية من إحدى يديه.

ثم انتحب قائلاً، "بن المسكين جائع."

اعـتـاد تـسـمـيـة نـفـسـه "بن المـسـكـين". هـل سـ
أحدهم يقول هذا؟ وسط مجموعة الشباب وفتياتهم
هل قـال أحـدهـم "بن المـسـكـين؟" . فـأدرك بـعـدهـا ا
الاسم يلائمه؟ إذا كـان الأمـر كـذلك، فـإنه قـد يـكو
نـافـذة تـطل عـلى بن مـخـفـيـة عـنهـم، وهـى تـوحـى بـ
يفـطـر قـلب المرء. إذا شـئـنـا الـدقـة، فـقـد فـطـرت قـا
هـاريـيت.

لم يـعـلـق أى من الأطـفـال عـلـى مـا رأوه إطلاقًا
واجـلـسـوا أنـفـسـهم حـول مـائـدة الإفـطـار، نـاظـر
لبعضهم البعض، دون النظر إليها أو إلى بين.

وسلمت بفشلها وكفت عن محاولة القراءة له، أو
اللعب معه، أو تعليمه أى شـىء: فهو لم يستطع التعلم
لكنها أدركت أن السلطات لن تعترف بهذا أبدًا، أو
تعلن حتى أنها لا تعترف. سوف يقولون، ومعهم الحـ
إنه لم يعرف الكثير من الأشياء التى يمكن أن تجعـ
كـائـنًـا اجـتـمـاعـيـا، بـدرجـةٍ مـا. فـقـد عـرف الحـقـائـ
"إشـارة المـرور الخـضـراء - سـر. إشـارة المـرور حـمـراء
قف،" أو أن نصف طبق من البطاطس يكون بـنـصـ
ثمن طبق كبير منها،" أو، أغلق الباب؛ لأن الجو بارد

كما كان يغني أغاني عن تلك الحقائق، التى من المفترض أنه تلقى معرفته بها من جون، ناظرًا لهارييت لتؤكد له أنها صحيحة. كل بالملعقة، لا بأصابعك! أو تماسك عند التحرك حول الأركان وحافظ على اتزانك." أحيانًا سمعته يغنى تلك التعليمات فى سريره أثناء الليل، متأملاً المباهج التى تنتظره فى اليوم التالى.

عندما قيل له إنه يجب عليه الذهاب للمدرسة قال إنه لن يفعل.

فقالت له أمه إنه لا سبيل للالتفاف حول الأمر، يجب الذهاب للمدرسة، ويمكنه أن يكون مع جون فى عطلات نهاية الأسبوع، وفى الإجازات. انفجر فى ثورات غضب، ويأس، وجأر بالقول، "لا، لا، لا!" تردد صداها فى البيت كله.

استدعى جون، وحضر إلى مطبخ العائلة مع ثلاثة من عصابته.

قال جون لبن، بناء على توصية منها، "استمع إلى الآن يا رفيقى. يجب أن تنصت إلينا. عليك بالذهاب إلى المدرسة!"

فسأل وهو يقف عند ركبة جون، "هل ستكون هناك؟" ناظرًا إليه بثقة، أو بشكل أدق، وضع وجهه مرفوعًا تجاه جون قائلاً: إنه وثق به، لكن عينيه بدتا أنهما تنكمشان إلى رأسه خوفًا.

أجاب جون، "لا، لكننى كنت فى المدرسة عند
كان على أن أكون هناك." عندئذ ضحك الشبا
الأربعة، لأنهم بالطبع لطالما لعبوا وتهربوا من المدرسة
كما فعل كل من كان على شاكلتهم. ولم تكن لهم أية
صلة من أى نوع بالمدارس. "نعم، كنت فى المدرسة
ورولاند كان فى المدرسة. وبارى وهنرى كانوا هم أيضا
فى المدرسة!"

قالوا جميعًا، "هذا صحيح، هذا صحيح،" لاعبين
بذلك أدوارهم المطلوبة منهم.

قالت هارييت، "وأنا كنت فى المدرسة،" لكنه لم
يسمعها فلم يكن لها حساب عنده.

أخيرًا، تم ترتيب المسألة على أن تأخذه هارييت
للمدرسة فى الصباح، وأن يكون جون مسئولاً عن
إعادته.

اعتقدت هارييت أن هذا الترتيب لصالح الأسرة
ولصالح الأبناء... من أجلى ومن أجل دافيد. رغم أنه
يبدو أن بن سيعود للبيت متأخرًا أكثر فأكثر. فى ذلك
الوقت، تمزقت الأسرة - كما شعرت بالأمر ورأته. ذهب
لوك وهيلين كل إلى مدرسته الداخلية. وبقى فى البيت
كل من جين وبول، اللذين كان كلاهما فى نفس
المدرسة التى كان بن فيها، لكن فى فصول دراسية
متقدمة ولن يروا بن كثيرًا. استمرت جين قوية
وعقلانية، وهادئة، وقادرة، بنفس القدر الذى حما به
لوك وهيلين نفسيهما، على حماية نفسهما، ونادرًا ما

عادت للمنزل بعد المدرسة، لكنها عادة ذهبت لأصدقاء. أما بول فكان يعود للمنزل بعد مدرسته. كان وحده مع هارييت، واعتقدت أن هذا هو ما أراده واحتاج إليه. كان بول طفلاً كثير الطلبات، يصيح ويصرخ بقوة، وصعب المراس يبكى كثيرًا. أين كان ذلك الطفل الصغير الساحر، اللذيذ، ابنها بول، وتساءلت كلما تذمر أو اشتكى أو انتحب، وقد صار الآن فى السادسة طويلاً مع هزال، بعينين زرقاوين ناعمتين وكبيرتين، تحدقان عادة فى لا شىء، أو بدأت وكأنها تحتج على ما تراه. كان نحيفًا جدًا. فلم يكن يأكل بشكل مناسب أبدًا. أحضرته من المدرسة، وحاولت أن تجعله يجلس ويأكل، أو أنها جلست معه وقرأت له، وحكت له الحكايات. لم يكن يستطيع التركيز. كان ينفق وقته متكاسلاً بعدم ارتياح هنا وهناك، وحلم احلام يقظة بالنهار؛ ثم يأتى إلى هارييت ليلامسها، أو يتسلق على حجرها مثل طفل أصغر من سنه، ولم يكن من السهل إرضاؤه أو أنه لم يكن سعيدًا.

لم يكن لديه أم فى وقت احتياجه إليها، وكانت هذه هى المشكلة، وأدرك الجميع ذلك.

عندما كان يسمع زئير الماكينة التى تعيد بن للبيت، ربما كان ينفجر فى البكاء أو يخبط رأسه فى الحائط محبطًا. بعد ذهاب بن للمدرسة لمدة شهر لم تكن هناك أخبار غير سارة، وعندما سألت هارييت معلمته كيف تسير الأمور معه، سمعت ما كان مفاجأة لها، " إنه فتى صغير طيب ويبذل أقصى ما يمكنه."

قرب نهاية الفصل الدراسى الأول استدعتها مديرة المدرسة مدام "جريفز" بالتليفون: "مدام لوفات، أتساءل إذا كنت..."

كامرأة كفؤ مؤهلة، كانت مدام جريفز على علم بما يجرى فى مدرستها، وأن هارييت كانت الأم المسئولة عن لوك، وهيلين، وجين، وبول.

قالت مدام جريفز، "سنجد أنفسنا جميعًا خاسرين،" بن يحاول بحق قدر جهده. إنه لا يبدو متكيفًا أو متوائمًا مع الآخرين. ويصعب على المرء أن يشير بإصبعه على علة الأمر."

جلست منتظرة - كما فعلت، هذا ما بدا لها، وكما اعتادت كثيرًا فى حياة بن القصيرة - لنوع ما من الإعلان أن المسألة تتجاوز مجرد صعوبة فى التأقلم.

علقت، "لقد كان عادة غريب الأطوار."

قالت مدام جريفز دمثة الخلق، "الرجل الغريب في الأسرة؟ حسنًا، هناك دائمًا واحد فى كل أسرة، لقد لاحظت ذلك كثيرًا." بينما مضى الحديث السطحى، كانت هارييت المستثارة إلى حد بعيد منصتة لحديث آخر، حديث توازى مع وجود بن الإجبارى.

ابتسمت جريفز، "أولئك الرجال الشبان الذين يأتون لأخذ بن، إنه حقًا ترتيب غير معتاد بالمرة."

أوضحت هارييت، "إنه طفل غير عادى،" وهى تنظر بقوة إلى مديرة المدرسة التى هزت رأسها بالموافقة دون النظر إليها. كانت متجهمة كأن فكرة

مزعجة ما تنخسها، راغبة فى الانتباه، لكنها لم تشعر بأنها ميالة لإعطاء أية بادرة به.

سألت هارييت، "هل عرفت على مدى حياتك طفلاً مثل بن من قبل؟"

دفع هذا القول مديرة المدرسة للمجازفة بالقول، ماذا تعنين مدام لوفات؟ فى الحقيقة قالت "ماذا تعنين يا مدام لوفات،" بسرعة لكن بعدها، كى توقف هارييت عن إخبارها، أحجمت وقالت، "إنه طفل ذو نشاط زائد، ربما؟" بالطبع كان هذا وصفًا شعرت عادة أنه يراوغ أو يتملص من الموضوع، فالقول إنه طفل ذو نشاط زائد، لا يقول فى الواقع شيئًا كثيرًا! لكنه يملك بالفعل هذه الطاقة الخارقة للعادة. إنه لا يبقى ساكنًا معظم الوقت، حسنًا، الكثير من الأطفال لا يمكنهم. اكتشفت معلمته أنه طفل صغير يحمل إمكانات مكافئة تستحق العناء، لأنه يحاول بالفعل، لكنها تقول إن عليها أن تبذل مجهودًا أكبر فى تعليمه عن كل الأطفال الباقين مجتمعين... "حسنًا، مدام لوفات أنا سعيدة لحضورك، لقد كان هذا مصدر عون لنا." عندما غادرت المدرسة، رأت كيف راقبتها مديرة المدرسة بتلك النظرة المضطربة الفاحصة التى تشى بعدم الارتياح، بل الرعب حتى، والتى كانت جزءًا من الحديث الاستنكارى الآخر - الحقيقى، الذى لم يتم."

قرب نهاية الفصل الدراسى الثانى تم الاتصال بها: وطلب منها أن تأتى فى الحال، رجاء؟ فقد آذى بن أحدهم.

ها قد حدث: هذا ما كان يفزعها. تحول بن فجأة إلى برسركى(*) وهاجم فتاة أكبر منه فى فناء المدرسة؛ أطاح بها أرضًا فسقطت بقوة على الأسفلت خادشًا وكاشطًا ساقيها، ثم عضها، ولوى ذراعها للخلف حتى انكسر.

قالت مدام جريفز، "لقد تحدثت إلى بن، وهو لا يبدو عليه الندم بأية طريقة، حتى أنك ربما فكرت أنه لا يعلم أنه هو الذى فعلها. لكن فى هذه السن - إنه فى السادسة من عمره، فى نهاية المطاف، ويجب أن يعرف ما الذى يقوم به."

أخذته هارييت إلى البيت، تاركة بول ليتم إعادته فيما بعد. كان بول هو من أرادت أن تأخذه معها: فقد سمع بالهجوم الذى شنه بن، وكان هستيريًا يصرخ بأن بن سوف يقتله أيضًا. لكن، كان عليها أن تكون وحدها مع بن.

جلس بن إلى المائدة يهز ساقيه، ويأكل المربى والخبز، وسأل إذا ما كان جون سيحضر ليأخذه معه. كان جون هو من احتاجه فى هذه اللحظة.

قالت هارييت، "لقد آذيت مارى جونز المسكينة اليوم، لماذا فعلت ذلك، يا بن؟"

بدا أنه لم يستمع إليها، لكنه مزق قطعًا من الخبز بأسنانه ثم ازدردها.

(*) أحد المحاربين الإسكتلنديين القدامى المعروفين بقتالهم المسعور (المراجع).

جلست بالقرب منه، بحيث لا يمكنه تجاهلها، وقالت، "بن، هل تتذكر ذلك المكان الذى ذهبت إليه فى الشاحنة؟ تصلب جسده، وببطء أدار رأسه ونظر إليها، وكان الخبز يرتعش فى يديه: كان كله يرتعش. تذكر المكان، لا بأس! لم تفعل ذلك من قبل أبدًا - على امل أنها لن تضطر أبدًا إلى تذكيره به.

"حسنًا، هل تذكر يا بن ؟"

كانت فى عينيه نظرة متوحشة؛ كان يمكنه أن يقفز لأسفل من فوق المائدة ويجرى بعيدًا. أراد ذلك، لكنه ظل يحملق فى أرجاء الحجرة، وفى النوافذ، ثم أعلى الدرج كما لو أنه قد يهاجم من تلك الأماكن.

"الآن، استمع إلىّ يا بن. إذا آذيت أحدًا ثانية ابدًا، أبدًا، فسأضطر إلى إعادتك إلى هناك."

ثبتت عينيها فى عينيه وتمنت ألا يتمكن من معرفة ما كانت تقوله فى داخلها، وقالت لنفسها، لكننى لن أرسله هناك أبدًا، أبدًا .

جلس يرتجف مثل كلب مبلول شعر بالبرد، متقلصًا، وغاب فى سلسلة من الحركات دون وعى "وأثار ردود الأفعال الانعكاسية التى خبرها منذ ذلك الوقت. رفع يده ليحمى وجهه، ونظر خلال الأصابع المنفرجة، وأشاح بوجهه بعيدًا بحدة ضاغطًا على ظهر يده الأخرى تجاه فمه، محملقًا فيها برعب؛ باختصار كشف عن أسنانه لينخر مثل خنزير، وبعدها تفحص نفسه؛ رفع ذقنه وفمه المفتوح، ورأت أنه يمكنه إطلاق

عواء حيوانى طويل! بدا الأمر كما لو كانت بالفعل قد سمعت هذا العواء، مصدر رعبها الوحيد...

ثم قالت بنعومة، "هل سمعتنى يا بن؟" انزلق لأسفل بعيداً عن المائدة، واتخذ طريقه أعلى السلم مهزوماً هزيمة نكراء. وخلف وراءه خيطاً رفيعاً من البول! سمعت باب حجرته يغلق، ثم ذلك الخوار الغاضب الذى حفظته فى ذاكرتها.

اتصلت بجون فى مقهى بيتى، وحضر على الفور بنفسه كما طلبت منه.

استمع إلى الحكاية، وصعد إلى بن فى حجرته. ووقفت خارج الباب منصتة.

"أنت لا تعرف مدى قوتك الذاتية يا هوبيت، هذه هى المشكلة. من الخطأ أن تؤذى الناس."

"هل أنت غاضب من بن ؟ هل تنوى إيذاء بن؟"

قال جون، "من الغاضب؟ لكنك إن آذيت الناس فسوف يؤذونك."

"هل ستؤذينى مارى جونز؟"

صمت. لم يكن جون إيجابياً.

"خذنى للمقهى معك، خذنى الآن، خذنى بعيداً الآن."

سمعت صوت جون وهو يبحث عن زوج نظيف من الملابس القطنية الخشنة، وسمعته يغوى بن ليلبسها.

نزلت للطابق الأرضى إلى المطبخ. ونزل جون السلالم مع بن الذى تشبث بيده. غمز لها جون بعلامة القبول، وغادر مع بين على دراجته البخارية، وذهبت هى لاحضار بول من المدرسة.

عندما طلبت من د. بريت أن يرتب لها موعدًا مع اختصاصى فى مثل هذه الحالات، قالت، "رجاء لا تخرجنى من هنا كما لو كنت نوعًا من امرأة بلهاء هستيرية."

أخذت بن معها إلى لندن، وتركته فى رعاية ممرضة د.جيللى. رغبت الطبيبة الأخصائية أن ترى بن فى البداية وحده دون حضور أبويه. بدا لها الأمر منطقيًا. ربما كانت هذه الطبيبة منطقية، اعتقدت ذلك، جالسة مع نفسها تشرب القهوة فى مقهى صغير، ثم تساءلت، "ما الذى أعنيه بذلك؟ ما الذى امل فيه حقًا، هذه المرة؟" ما أرادته، وقررته بالفعل هو انه أخيرًا يوجد شخص ما يستخدم الكلمات المناسبة، ويتحمل معها العبأ. لا، إنها لا تتوقع أن يتم إنقاذها، او حتى أن أى شىء ذى بال يمكن أن يتغير، إنما ارادت أن يتم الاعتراف بأن مأزقها هذا له قيمته ومعناه.

حسنًا. هل كان هذا محتملاً؟ قالت لنفسها فى حيرة، نصف ممتلئة بالتوق للدعم، ونصف ساخرة. حسنًا، ماذا تتوقعين! . وعادت إلى بن لتجده مع الممرضة فى حجرة صغيرة خارج حجرة الانتظار

وظهره للحائط، يراقب كل حركة تأتيها الممرضة، ﻛﺎ
حيوان حذر. اندفع إلى أمه عندما رآها واختبأ خلفها

فقالت الممرضة بطريقة ساخرة لاذعة، "لست
بحاجة إلى ذلك يا بن."

طلبت هارييت من بن أن يجلس وينتظرها؛ وأنها
سوف تعود له بسرعة، فذهب خلف أحد المقاعد
ووقف منتبهًا، بعينين مثبتتين على الممرضة.

كانت هارييت هناك جالسة قبالة امرأة محترمة
سليطة قيل لها، كما كانت مقتنعة، إنها أم قلقة وغير
منطقية لم تستطع أن تتعامل مع طفلها الخامس.

قالت د. جيلى، "سوف أدخل فى الموضوع
مباشرة، يا مدام لوفات. المشكلة ليست مع بن، المشكلة
معك أنت. أنت لا تحبينه كثيرًا.

انفجرت قائلة، "أوه، يا إلهى، ليس ثانية!" وبدا
كمن تصهل بالتبرم. راقبت د.جيلى تسجل رد فعلها
فى دفتر، فقالت، "هذا ما قاله لك د.بريت. والآن أنا
ترددين الشىء نفسه."

"حسنًا، مدام لوفات، هل تقولين إن هذا غير
حقيقى؟ بداية علىّ أن أقول لك إنها ليست غلطتك،
ثم إن ذلك ليس بغير المألوف. لا يمكننا أن نختار ما
سوف يجىء فى اللوتارى. وذلك عينه معنى أن ننجب
طفلاً. محظوظًا، أو غير محظوظ، لا يمكننا أن
نختار. وأول ما يجب عليك القيام به، هو ألا تلومى
نفسك."

قالت هاربيت، "أنا لا ألوم نفسى. رغم أننى لا الوقع منك أن تصدقينى. لكنها دعابة سيئة. أشعر أننى ملامة منذ أن ولد. أشعر بأننى مذنبة. لقد جعلونى دائمًا أشعر بأننى مذنبة." أثناء هذه الشكوى صدرت عنه صيحة حادة، ولم تستطع أن تغير نبرة صوتها. فقد توالت سنوات من المرارة تتدفق، بينما جلست د.جيلى فى ذات الوقت ناظرة إلى مكتبها. "إنه بالفعل خارق للعادة! لم يقل لى أحد أبدًا، لا أحد، ابدًا،" كم هو رائع منك أن تنجبى أربعة أطفال رائعين وطبيعيين وأذكياء وحلوى الملامح! إنه أمر يحسب لك. حسنًا فعلت يا هارييت!" ألا ترين معى أنه من الغريب أن لا أحد قالها أبدًا؟ لكن فيما يخص بن. أنا مذنبة!"

سألتها د.جيلى، بعد فترة من تحليل ما قالته هارييت، "أنت ترفضين حقيقة أن بن ليس ذكيًا، هل هذه هى المسألة؟"

"قالت هارييت بغضب، "آه يا إلهى، ما المشكلة؟"

نظرت كلتاهما لبعضهما البعض. وتنهدت هارييت لتسمح لغضبها أن يتلاشى؛ وكانت الطبيبة غاضبة، دون أن تظهر ذلك.

ثم قالت هارييت، "أخبرينى، هل تقولين لى إن بن طفل عادى تمامًا، من جميع الوجوه؟ ولا يوجد شىء غريب يعيبه؟"

"إنه فى حدود المعدلات الطبيعية لمن فى سنه،" هو ليس كفئًا فى المدرسة، أخبرت بذلك، لكن الأطفال

بطيئى الفهم والاستيعاب عادة يتمكنون لاحقًا من
التحصيل."

"لا أستطيع تصديق ذلك، انظرى، عليك فقط أن
تفعلى شيئًا ـ حسنًا، أدخلى فى حالة المرح! اطلبى من
الممرضة أن تحضره هنا."

فكرت د.جيلى فى الأمر، ثم تحدثت فى جهاز
النداء الآلى الخاص بها.

سمعتا بن يصرخ، "لا، لا!" بينما الممرضة تسعى
لإقناعه.

انفتح الباب. ظهر بن: تم دفعه داخل الحجرة
بواسطة الممرضة. وأغلق الباب خلفه، وتكوم ناحية
الباب محملقًا فى الطبيبة. وقف وكتفاه محنيان إلى
الأمام وركبتاه مثنيتان كما لو كان على وشك الانطلاق
لمكان ما. كان شخص ضئيل الجسم قوى البنية قصيرًا
ثخينًا، برأس كبيرة، وشعره الأصفر النامى على نحو
خشن من التاج المزدوج لرأسه حتى نقطة سفلية على
جبهته الثقيلة الضيقة، ولديه أنف مفلطحة تتسع
للخارج كنهاية بوق مقلوبة، وفمه مكتنز باللحم ومجعد،
وعيناه مثل كتلة من حجر خامد. لأول مرة فكرت
هارييت، لكنه لا يبدو مثل طفل فى السادسة من
عمره، لكن أكبر كثيرًا، ويمكنك تقريبًا اعتباره مثل
رجل صغير، ليس طفلاً على الإطلاق.

نظرت الطبيبة لبن . وراقبت هارييت الاثنين. ثم
قالت الطبيبة، "حسنًا، بن، اخرج الآن ثانية، سوف
تلحق أمك بك خلال دقيقة."

وقف بن مشلولاً من الخوف. ومرة أخرى تحدثت د.جيلى فى جهاز النداء الآلى، انفتح الباب، وجذب بن الخلف بعيدًا عن المكان وهو يزمجر.

"قولى لى د.جيلى، ماذا ترين؟"

كانت د.جيلى فى وضعية قلقة ومتضايقة، كانت تحسب الوقت المتبقى حتى نهاية المقابلة. ولم تجب على السؤال.

قالت هاربيت، وهى مدركة أنه لا فائدة لكنها ارادت أن تقال لها بصوت مسموع: "إنه ليس آدميًا، هل هو آدمى؟"

فجأة، ودون توقع سمحت د.جيلى بما كانت تفكر فيه أن يعبر عن نفسه، جلست وتنهدت بقوة، ووضعت يدها على وجهها وأنزلتها لأسفل، وعيناها مغلقتان، واصابعها على شفتيها. كانت الطبيبة امرأة فى أواسط العمر، وسيمة الملامح، متحكمة تمامًا فى حياتها، لكن للحظة أعلن الضيق ـ غير المشروع ـ عن نفسه، ونظرت جانبًا لنفسها حتى بدت عرضة لانقلاب ما.

ثم قررت أن تنكر ما أدركت هاربيت أنه لحظة الحقيقة. تركت يديها تسقط، وابتسمت ثم قالت مازحة، "تقصدين من كوكب آخر؟ أو من الفضاء الخارجى؟"

"لا، حسنًا، لقد رأيته، ألم تريه؟" كيف لنا أن نعرف أى نوع الناس ـ أعنى أجناسهم، أو المخلوقات

المختلفة عنا، التى عاشت على هذا الكوكب؟ ه
الماضى، أتعرفين؟ إننا حقيقة لا نعرف، أنعرف؟"

كيف نعرف أن الأقزام والعفاريت والغيلان، هذ
النوع من الأشياء، لا تعيش فعليًا هنا؟ ولهذا السب
نحن نحكى عنهم، فقد عاشوا بالفعل، ذات مرة على
كوكبنا." حسنًا، هل نعرف أنهم لم يوجدوا؟"

تساءلت د.جيلى برزانة، "هل تعتقدين أن بن هو
ودة إلى صفات الأسلاف التى بعدت عنا بزمن؟"

بدت كما لو كانت مستعدة تمامًا للتسلى بالفكرة.

قالت هارييت، "يبدو هذا واضحًا لى."

صمت آخر، وتفحصت د.جيلى يديها المطبقتين
وهى تقول، "إذا كان ذلك كذلك، إذًا، ماذا تتوقعين منى
أن أفعل حياله؟"

ألحت هارييت، "أريد أن تقال. أريد الاعتراف
بالأمر، أنا لا أستطيع تحمل ألا تقال الحقيقة أبدًا."

"ألا ترين ببساطة أن هذا فوق حدود طاقتى؟ إذا
كان ذلك حقيقيًا، إنه كذلك؟ هل تريدننى أن أعطيك
خطابًا لحديقة الحيوان؟ أن أضع هذا الطفل فى
قفص؟ أو أسلمه للعلماء لإجراء التجارب عليه؟"

"يا إلهى، لا، بالطبع لا."

صمت.

وقالت هارييت، "شكرًا لك د.جيلى" منهية
المقابلة بالطريقة المعتادة، ثم قامت. "هل أنت مستعدة

إعطائى وصفة دوائية لمهدئ قوى فعلاً؟ هناك أوقات لا يمكننى التحكم فى بن، وعلى أن يكون لدى شىء ما ليساعدنى."

كتبت الطبيبة الوصفة. أخذت هارييت الورقة وشكرت د.جيلى وقالت وداعًا. ذهبت حتى الباب والتفتت للخلف، ورأت على وجه الطبيبة ما كانت تتوقعه: نظرة محدقة مثبتة سوداء عكست ما كانت تشعر به؛ الرعب من الغريب، رفض الشخص الطبيعى لكل ما يقع خارج حدود عقله الإنسانى، والرعب من هارييت التى أنجبت بن.

وجدت بن وحيدًا فى الحجرة الصغيرة مكومًا فى الركن، محملقًا دون أن يطرف له جفن جهة الباب الذى دخلت فيه. كان يرتعد. أولئك الناس فى الأزياء النمطية البيضاء، والأردية البيضاء فى الحجرات التى تفوح منها رائحة الكيماويات... أدركت أنها دون قصد منها زادت من تهديداتها. إذا تصرفت بشكل سيىء، إذًا...

كان مقهورًا، وبقى قريبًا منها: لا، ليس مثل طفل مع أمه، لكن مثل كلب مذعور.

الآن، كل صباح، أعطته جرعة من المهدئ، التى لم يكن لها، على أية حال، تأثير كبير عليه. لكنها أملت أنها ستبقيه مثبطًا حتى نهاية المدرسة، ويستطيع بعدها أن يثير الصخب مع جون على الدراجة البخارية.

ثم كانت نهاية السنة الأولى لبن فى المدرسة، وه
ما عنى أن سنوات المدرسة يمكن أن تواصل الادع
بأنه لم يحدث أى خطأ جسيم، إنما كان فقط "طفا
صعبًا". لم يتعلم شيئًا، لكن الكثير من الأطفال ا
يفعلون: يضيعون الوقت فى المدرسة، هذا كل ما فى
الأمر.

فى كريسماس ذلك العام، كتب لوك ليقول إنه
يريد الذهاب لأجداده فى مكان ما على شاطئ جنوب
إسبانيا؛ وذهبت هيلين لمنزل جدتها مولى فى
أكسفورد.

حضرت دوروثى للاحتفال بالكريسماس، فقد
لثلاثة أيام، واصطحبت جين معها عند عودتها: كان
جين معجبة لدرجة العبادة بالطفلة المنغولية آمى.

قضى بن كل وقته مع جون. هارييت ودافيد
عندما كان هناك لكنه كان ينغمس فى العمل أكثر
وأكثر - مع بول أثناء الإجازة. كان بول أكثر صعوبة فى
التعامل معه حتى مع بن. لكنه كان طفلاً عاديًا،
مضطربًا، ليس غريبًا.

كان بول ينفق ساعات طويلة فى مشاهدة
التليفزيون، متململاً يهرب فيه، متحركًا هنا وهناك
أثناء المشاهدة، ويأكل، ويأكل -لكنه لم يزد فى الوزن
أبدًا. بدا أنه يملك فمًا صعب الإشباع الذى يقول:
أطعمنى، وكل جزء فى كيانه يتوسل. من أجل ماذا؟ لم
يرض بذراعى أمه وهما تربتان على كتفيه. كان

يشاهد الحروب والتمرد؛ القتل واختطاف الطائرات والاغتيالات والسرقات والخطف... كانت الثمانينيات، الثمانينيات البربرية تبلغ ذروتها، بينما رقد بول ممددًا ساقيه وذراعيه أمام الجهاز، أو دار حول الحجرة وهو يأكل ويشاهد. وتم إمداده بالغذاء. هكذا بدا الأمر.

استقرت أمور العائلة، ولسوف يستقر المستقبل.

ذهب لوك دائمًا فى إجازات المدرسة إلى جده جيمس الذى كان يشعر معه بأن أموره تسير سيرًا جيدًا مرحًا. أحب جدته جيسيكا، التى كانت ممتعة له للغاية كما قال. كانت خالته ديبورا ممتعة ومرحة أيضًا: كانت محاولاتها وإخفاقاتها لنيل الأمومة قصة مسلسلة طويلة، تحكى له بشكل كوميدى. عاش لوك وترعرع مع الأغنياء؛ وأحيانًا أحضره جيمس للمنزل لزيارة أبويه، لأن الرجل الحنون لم يكن سعيدًا بما كان يجرى فى ذلك المنزل التعيس، وعلم أن هاربيت ودافيد يتحرقان شوقًا لرؤية ابنهما الأول. زاره أبواه فى مدرسته، فى الأيام الرياضية؛ وأحيانًا عاد لوك لقضاء إجازة نصف العام الدراسى.

أما هيلين، فكانت سعيدة فى منزل مولى، وعاشت فى الحجرة التى جعل منها أبوها منزله الحقيقى. كانت الفتاة المفضلة لدى العجوز فريدريك، وعادت هى الأخرى للمنزل لقضاء إجازات نصف العام الدراسى.

أقنعت جين جدتها دوروثى أن تأتى وتقنع هاربيت ودافيد بأنها تريد أن تعيش معها ومع خالتها سارة

وأولاد خالتها الثلاثة الأصحاء، والمسكينة آمى. وهو
ما فعلته دوروثى. أحيانًا كانت دوروثى تحضر جما
ورأى الأبوان أن الجدة، تحدثت، إلى جين لتكون
عطوفة معهم، وألا تنتقد بن أبدًا، ولو مرة واحدة.

بقى بول فى المنزل: كان هناك لفترات أطول
بكثير من بن .

قال دافيد لهارييت، "ماذا نحن فاعلون مع لوك؟

"ماذا يمكننا أن نفعل؟"

"إنه يحتاج إلى علاج من نوع ما. معالجًـ
نفسيًا..."

"وما الفائدة التى ستعود عليه من ذلك!"

"إنه لا يتعلم شيئًا، وهو فى حالة فوضى حقيقية
إنه أسوأ حالاً من بن ! على الأقل بن هو ما هو عليه،
أيًا كان هذا، ولا أعتقد أننى أريد أن أعرف ما هو
عليه بالفعل، لكن بول..."

"كيف سندفع تكاليف هذا العلاج؟"

"سأدفع أنا."

الآن، أضاف دافيد لعمله الأساسى وظيفة لنصف
الوقت فى التدريس فى معهد للفنون التطبيقية،
ونتيجة لعبء عمله الثقيل كان يتواجد بالكاد فى
المنزل. وإذا أتى للبيت أثناء الأسبوع، يأتى فى وقت
متأخر من الليل ، ويلقى بنفسه فى السرير وينام
منهكًا تمامًا.

وأرسل بول، ليتحدث لأحدهم، كما توحى الجملة

تقريبًا كل عصر بعد المدرسة. وقد حقق هذا
.. احًا. كان المعالج النفسى رجلاً فى الأربعين، وله
. ائلة ومنزل جميل. وكان بول يبقى هناك حتى
العشاء، حتى أنه كان يذهب ليلعب مع أبناء الطبيب،
.. دما لا يكون لديه موعد مع الطبيب.

أحيانًا كانت تبقى وحدها فى هذا المنزل الكبير
طوال اليوم، حتى عودة بول فى حوالى السابعة
لمشاهدة التليفزيون، وبين أيضًا رغم أن مشاهدته
مختلفة، فقد كان انتباهه مرتبطًا بالشاشة بما لا
يمكن التنبؤ به، دون نسق مجدد يمكن لها أن تلحظه.
عادة لدقيقة أو اثنتين.

كره الطفلان؛ بعضهما البعض.

ذات مرة وجدت بول فى ركن بالمطبخ، مشدودًا
على أطراف أصابع قدميه، محاولاً تجنب أيدى بن
التى أمسكت به من رقبته. بن القصير القوى: بول
الطويل عنكبوتى البدن ـ إذا أراد بن، يمكنه قتل بول.
اعتقدت أن بن كان يحاول إخافة بول، لكن بول كان
هستيريًا. كشر بن عن أسنانه استهزاءً بشكل انتقامى،
يغمره شعور بالنصر.

قالت هارييت، "بن ـ انزل تحت،" كما لو كان كلبًا
تحذره، "تحت، بن، تحت."

استدار بحدة، ورآها، وأنزل يديه، وطبعت فى
عينيها نظرة التهديد التى كانت تستخدمها معه
وسلطتها عليه: من خلال ذكرياته عن الماضى.

كشف عن أسنانه وزمجر.

ثم صرخ بول، وانفجر رعبه رغمًا عنه وجر، مسرعًا أعلى السلالم، منزلقًا وساقطًا، مبتعدًا ،، الرعب الذى تمثل فى بن .

هددت هارييت، "إذا فعلت ذلك ثانية أبدًا.. وذهب إلى المائدة الكبيرة وجلس عليها. كان يفكر هكذا اعتقدت، "إذا فعلت ذلك ثانية أبدًا يا بن . رفع عينيه ونظر إليها. أمكنها أن ترى أنه حسب حسبته. لكن ماذا؟ تلك العيون الباردة غير الإنسانية... يا إلهى ماذا رأت بالفعل؟ افترض الناس أنه رأى ما رأوه، أنه رأى عالمًا إنسانيًا. لكن ربما تأقلمت حواسه مع حقائق ومعلومات مختلفة تمامًا كيف يمكن لأى أحد أن يعلم ما كان يفكر فيه؟ أو كيف يرى نفسه؟

لم يزل يقولها أحيانًا، "بن المسكين."

هارييت لم تخبر دافيد بهذه الواقعة. أدركت أنه كان على حافة قدرته على ما يستطيع احتماله. وماذا كانت ستقول له؟ إن بن حاول قتل بول اليوم! كان هذا بعيدًا تمامًا عما خططا له لنفسيهما، وخارج المسموح به. وبالإضافة لذلك، لم تعتقد أن بن كان يحاول قتل بول: إنما كان يستعرض ما يمكنه فعله إذا أراد ذلك.

أخبرت بول أن بن لم يكن يحاول على الإطلاق إيذاءه، فقط! إخافته. واعتقدت أنه صدقها.

حضر جون قبل عامين من ترك بن للمدرسة حيث لم يتعلم شيئًا، لكن على الأقل لم يؤذ أحدًا، حضر ليقول إنه سيرحل من حياتهم. فقد تم تأمين مكان لإقامته فى برنامج تدريب على الوظائف فى مانشستر، هو وثلاثة من أقرانه.

كان بن هناك منصتًا. وكان قد أخبره جون من قبل، فى مقهى بيتى. لكنه لم يأخذ المسألة على محمل الجد. حضر جون عامدًا ليقول هذا لهارييت، فى وجود بن، بحيث يمكن لبن أن يقبل بالأمر.

تساءل بين، "لماذا لا يمكننى أن أذهب أنا أيضًا؟"

"لأنك لا تستطيع يا رفيقى. لكن عندما آتى لأزور امى وأبى، سوف آتى لرؤيتك."

ألح بن ، "لكن لماذا لا يمكننى الذهاب معك؟"

"لأننى سأكون فى المدرسة أنا أيضًا. ليس هنا. سوف أكون بعيدًا عن هنا. بعيد جدًا، جدًا.

تصلب بن واتخذ وضعيته المنحنية بتذلل، وقبضتاه للخارج، وجز على أسنانه معًا، وعيناه حاقدتان ملؤهما الغل.

قالت هارييت مستخدمة صوتها المميز المهدد، "بن، توقف عن هذا، يا بن."

قال جون، "تعالى هنا الآن يا هوبيت. بضيق لكن بحنان، لن أستطيع أن أفعل شيئًا، يجب على أن أذهب بعيدًا عن بيتى لبعض الوقت، أليس كذلك؟"

"هل يذهب بارى؟ هل يذهب رولاند؟ وهنرى، أيضًا؟"

"نعم، نحن الأربعة جميعًا."

فجأة، انطلق بن للخارج إلى الحديقة، حيث بدا يضرب جذع شجرة، مطلقًا صرخات طويلة حادة من الغضب.

قال جون، "أنا آسف، لكن هكذا هو الأمر."

قالت هارييت، "لا يمكننى تخيل ما الذى سنفعله بدونك."

هز رأسه موافقًا، مدركًا أن تلك هى الحقيقة. وهكذا ترك جون حياتهم للأبد.

كان بن يقضى معه معظم الوقت فى كل يوم من حياته، منذ تم إنقاذه من المصحة.

تقبل بن الأمر بصعوبة. فى البداية لم يصدقه. وعندما كانت تصل لاستلامه وأحيانًا بول أيضًا من المدرسة، كانت تجده عند بوابات المدرسة، محملقًا فى الطريق حيث كان جون يظهر بتألق فوق دراجته البخارية. كان يذهب معها متكاسلاً إلى البيت، جالسًا فى زاوية المقعد الخلفى بعيدًا عن بول، إذا لم يكن بول عند المعالج النفسى، وعيناه تمسحان الشوارع بحثًا عن علامات تشير لأصدقائه، الذين فقدهم. فى أكثر من مرة، عندما لم يكن فى أى مكان فى البيت وجدته هارييت فى مقهى بيتى، جالسًا منعزلاً على طاولة

وعيناه مثبتتان على الباب، حيث يمكن أن يظهروا.
ذات صباح كان أحد الأعضاء الثانويين فى شلة جون يقف فى الشارع خارج نافذة محل، فاندفع إليه بن يصيح مبتهجًا بسعادة: لكن الشاب قال بشكل عابر، "مرحبًا، إنه دامبو. مرحبًا، دوبى،" ثم استدار مبتعدًا.
وقف بن مشلولاً من عدم التصديق، وفمه مفتوح كما لو كان تلقى ضربة عليه. استغرق الأمر منه زمنًا طويلاً ليستوعبه. بمجرد أن يعود إلى البيت مع بول وهارييت، كان يخرج ثانية، يعدو نحو مركز البلدة. لم تكن تتبعه. سوف يعود! ليس لديه مكان آخر يذهب إليه؛ وكانت دائمًا تسعد أن تنال وقتًا مع بول وحده. إذا كان بول هناك.

ذات مرة أتى بن إلى البيت مندفعًا، يجرى ثقيلاً، وغطس تحت المائدة الكبيرة. ظهرت شرطية قالت لهارييت، "أين ذلك الطفل؟ هل هو بخير؟"

قالت لها هارييت، "إنه أسفل المائدة."

"تحت ال...لكن لماذا؟ أردت فقط أن أتأكد أنه ليس مفقودًا. كم عمره؟"

"أكبر مما يبدو عليه، أخرج يا بن ، كل شىء على ما يرام."

لم يخرج من مكانه: كان مرتكزًا على أطرافه الأربعة مواجهًا المكان الذى وقفت فيه الشرطية، مراقبًا حذاءها الأسود اللامع الأنيق. كان يستدعى من ذاكرته كيف أن شخصًا ما فى سيارة ذات مرة،

قبض عليه وأخذه بعيدًا: والملابس النظامية، ونكه
طبقة الموظفين الرسميين.

قالت الشرطية، "حسنًا، أى أحد يظن أن،
خاطفة أطفال! لم يكن علىَّ أن أدعه يجرى هنا
وهناك هكذا. ربما عرض نفسه للاختطاف."

قالت هارييت، "لا يوجد حظ كهذا،" فى كل بوصه
يطابق المرح الأم. "الأرجح أن يختطفهم هو."

"إن الأمر مثل ذلك، أليس كذلك؟"

غادرت الشرطية وهى تضحك.

رقد دافيد وهارييت جنبًا إلى جنب فى سرير
الزوجية، والأضواء فى الخارج، والمنزل ساكن.
حجرتان فى الأسفل، نام بن. كما أملا. أربع حجرات
فى الأسفل، فى نهاية الممر، نام بول خلف باب محكم
الإغلاق من الداخل ذاتيًا. كان الوقت متأخرًا، وأدركت
هارييت أنه سيكون نائمًا خلال دقيقة أو دقيقتين.
رقدا بينما هناك مسافة بينهما. لكنها لم تعد مسافة
مليئة بالغضب، فقد أدركت هارييت أنه كان منهكًا
جدًا بشكل دائم حتى يستطيع أن يغضب. على أية
حال، لقد قرر ألا يكون غاضبًا: كان عادة ما يجيب
بصوت عالٍ على أفكارها.

كانا يمارسان الجنس أحيانًا، لكنها شعرت،
وعرفت أنه شعر هو الآخر، أن أشباح هارييت الشابة
ودافيد الشاب، هما اللذان تلاحما وقبل بعضهما
البعض الآن.

بدا الأمر وكأن تيار حياتها قد سُلخ منها طبقة من اللحم - ليس لحمًا حقيقيًا، لكن ربما مادة ميتافيزيقية، غير مرئية، وغير مشتبه بها حتى زالت. فقد دافيد، بعمله كما كان يفعل، ذاتًا كانت له، رجل العائلة. جعلت جهوده ناجحًا فى شركته، وجنى وظيفة افضل بكثير فى شركة أخرى. لكن هذا كله كان الآن حيث كان مركز حياته: حيث الأحداث لها منطقها الخاص. أصبح الآن رجلاً ما قرر ذات مرة ألا يكونه ابدًا! لم يعد جيمس يدعم هذه العائلة؛ كان يدفع مصاريف لوك فقط. فقد تم إخماد صفة الإخلاص والكرم، التى نتجت عن ائتمان دافيد العنيد فيه بسبب ثقته الجديدة فى نفسه. عرفت هارييت أنها لو كانت لتلتقى مع دافيد الآن، لأول مرة، كانت لتفكر فيه بصعوبة. لكنه لم يكن شخصًا صعبًا، والصخرة التى شعرت بها فى داخله كانت صخرة الجلد والمثابرة. عرف دافيد كيف يلح على الأشياء. كانا لا يزالان متشابهين.

فى الغد، كان يوم سبت، كان دافيد ذاهبًا إلى مباراة فى الكريكيت فى مدرسة لوك، وكانت هارييت تزور هيلين فى مدرستها: كانت هيلين فى ملعب المدرسة. كانت دوروثى آتية فى الصباح كى تهيئ لهما هما الاثنان (هارييت ودافيد) أن يهربا فى عطلة نهاية الأسبوع.

ولم تكن جين معها، لكنها كانت فى حفل بمنزل صديق لها من المدرسة لم ترغب فى أن يفوتها.

كان بول ذاهبًا مع أبيه لزيارة أخيه لوك.

كان على بن أن يكون وحده مع دوروثى، التى
تره على مدى عام.

ولم تفاجأ هارييت عندما قال لها دافيد، "ها
تعتقدين أن دوروثى تفهم لأى حد كان بن أكبر م
يبدو عليه؟"

"هل علينا تحذيرها؟"

"لكنها تفهم كل شىء، خلال خمس دقائق عل
الأكثر."

صمت. وأدركت هارييت أن دافيد كان خائفًا إل
حد ما. وأفاق نفسه ليقول، "هل صادف وأن فكر
أنه خلال فترة عامين سيكون بن مراهقًا؟ وسو
يصبح كائنًا له احتياجات جنسية؟"

"نعم، فكرت. لكنه لا يمضى وفقًا لذات التوقي
الذى نحن عليه، المفترض أن أولئك الناس من أمثاله
لديهم شىء ما مثل المراهقة؟"

"كيف لنا أن نعرف؟ ربما هم ليسوا كائنات ذا
احتياجات جنسية مثلنا. فقد قال أحدهم إننا كائنا
جنسية أكثر من المعتاد - من؟ نعم، لقد كان برنار
شو."

"يستوى الأمر، إن التفكير فى أن بن كائن جنس
يخيفنى."

"إنه لم يؤذ أحدًا لزمن طويل."

بعد عطلة نهاية الأسبوع تلك قالت دوروثى لهاربيت، "إننى أتساءل إذا كان بن قد سأل نفسه أبدًا، ام هو مختلف إلى هذا الحد عنا."

"كيف لنا أن نعرف؟ لم أعرف أبدًا ما الذى يفكر فيه."

"ربما يعتقد أن هناك المزيد من جنسه فى مكان ما."

"ربما يعتقد ذلك."

"شريطة ألا تكون أنثى من جنسه!"

"إن بن يجعلك تفكرين - فى كل أولئك الناس المختلفين، الذين عاشوا ذات مرة على كوكب الأرض، لا بد أنهم داخلنا فى مكان ما."

قالت دوروثى، "جميعهم جاهزون لينفجروا! لكن ربما لأننا ببساطة لا نلحظهم عندما يفعلون."

قالت هارييت، "لأننا لا نريد ذلك."

"أنا بالتأكيد لا أريد ذلك." ليس بعد رؤية بن ... هارييت، هل تدركين أنت ودافيد أن بن لم يعد طفلاً بعد الآن؟ إننا نعامله كطفل، لكن... "

كان العامان اللذان سبقا ذهابه للمدرسة الكبيرة من الرداءة بحال بالنسبة له. كان خلالهما وحيدًا، لكن هل عرف أنه كان وحيدًا؟ كانت هارييت وحيدة، وعرفت أنها كذلك...

مثل بول. عندما كان بن هناك. كان يذهب عل
الفور للتليفزيون بمجرد عودته للبيت من المدرس
أحيانًا كان يشاهد التليفزيون من الرابعة بعد الظه
حتى التاسعة أو العاشرة مساء. لم يبد أنه أح
برنامجًا بعينه أكثر من الآخر. لم يفهم أن بعض
البرامج كانت للأطفال، والبرامج الأخرى للكبار.

"ما قصة هذا الفيلم يا بن ؟"

"قصة؟" حاول أن يردد الكلمة، فكان صوته
الكثيف الأخرق مترددًا. وكانت عيناه مثبتتين عل
وجهها، ليكتشف ماذا أرادت بسؤالها هذا.

"ماذا حدث فى ذلك الفيلم الذى شاهدته للتو؟"

"سيارات كبيرة. دراجة بخارية. تلك الفتاة تبكى
سيارة تطارد الرجل."

ذات مرة، ولكى ترى إذا كان يمكنه التعلم من
بول، قالت لبول، "ما قصة هذا الفيلم يا بول؟"

"إنها تدور حول سارقى البنوك، أليس كذلك؟"
قالها معبأ بالاحتقار لبن الغبى الذى كان منصتًا،
وعيناه تتنقلان من وجه أمه إلى وجه أخيه. "لقد
خططوا لسرقة البنك عن طريق حفر نفق تحته.
ووصلوا تقريبًا لقبو البنك، لكن البوليس أوقع بهم فى
فخ، وذهبوا للسجن، لكن معظمهم هرب، وأطلقت
الشرطة النار على اثنين منهم."

أنصت بن باهتمام.

"احك لى قصة الفيلم، يا بن."

قال بن، "سارقو البنوك." وكرر ما قاله بول متلعثمًا عندما وصل لذات الكلمات بالضبط.

قال بول "لكنه قال ذلك فقط لأننى أخبرته به."

اتسعت عينا بن، وشعر ببرودة إذ قال لنفسه. اعتقدت هارييت ذلك. "لا يجب على إيذاء أى أحد، فإذا فعلت سوف يأخذوننى إلى ذلك المكان." كانت هارييت تعرف كل ما يدور فى عقل بول ومشاعره. لكن بن. كان عليها أن تحاول التخمين معه.

هل يمكن لبول أن يعلم بين، ربما، دون أن يعلم أى منهما أنه يقوم بذلك؟

كانت تقرأ لهما معًا قصة، وتسأل بول أن يعيدها عليها، ثم يقلد بن أخاه بول. لكن خلال دقائق معدودة يكون قد نساها.

كانت تعلمه ألعابًا مثل السلم والثعبان والليدو مع بول، بينما بين يراقبهما؛ ثم، عندما يكون بول مع عائلته الأخرى (عائلة الطبيب النفسى)، كانت تدعو بن ليحاول. لكنه لم يستطع فهم فكرة الألعاب. ورغم ذلك، كان يشاهد أفلامًا بعينها مرارًا وتكرارًا، ولا يمل منها أبدًا. استأجروا جهاز فيديو. أحب بن الأفلام الموسيقية: "صوت الموسيقى"، و"قصة الحى الغربى"، و"أوكلاهوما"، و"القطط".

عندما سألته، "ماذا يحدث الآن يا بن ؟" قالها، "الآن سوف تغنى." أو "سوف يرقصون هنا وهناك،

وبعدها ستغنى." أو "سوف يؤذون تلك الفتاة. الفتاة
هربت منهم. الآن هناك حفل."

لكنه أبدًا لم يستطع إخبارها بقصة الفيلم.

غنى لى ذلك اللحن يا بن. غنى لى ولبول. لكنه
لم يستطع.

أحب نغمة الأغانى، لكنه لم يستطع إلا أن يصدر
للخارج زئيرًا خشنًا بلا نغمة.

اكتشفت أن بول يغيظه: طالبًا منه أن يغنى نغمة
ما؛ ثم يسخر منه. رأت بريق انفجار مفاجئ للغضب
يكسو عينى بن، وأخبرت بول ألا يفعل ذلك ثانية
أبدًا.

بكى بول قائلاً، "لم لا؟ لم لا؟" إنه دائمًا بن ، بن،
بن ... وضرب بذراعيه تجاه بن ، فلمعت عينا بن
ببريق بارد. كان على وشك الانقضاض على بول...

حذرته هارييت، "بن "

بدا لها أن تلك الجهود التى تبذلها لجعله آدميًا
كانت فى الحقيقة تدفع به إلى داخل ذاته، حيث...
لكن ماذا؟ - تذكرت؟ - حلمت بـ - جنسه!

ذات مرة، عندما عرفت أنه فى البيت، ولم
تستطع أن تجده، صعدت لأعلى من طابق لطابق
باحثة فى الحجرات. الدور الأول، وكان مازال مسكونًا
بها هى ودافيد، كما يسكنه بن وبول، رغم أن ثلاثة من
الحجرات كانت فارغة؛ والأسرة منصوبة واقفة

جاهزة، ومفروشة بمخدات نظيفة، ومفارش مخملية مغسولة. الطابق الثانى، بحجراته الفارغة النظيفة. الطابق الثالث: منذ كم من الوقت ملأت أصوات وضحكات الأطفال ذلك الطابق، وانطلقت خارج النوافذ المفتوحة على اتساع الحديقة؟ لكن بن لم يكن فى أى من تلك الحجرات. صعدت بهدوء إلى العلية أسفل سطح البيت. كان الباب مفتوحًا. وسقط مربع من ضوء السماء العالى المتشتت، وقف فيه بن، محملقًا لأعلى فى ضوء الشمس الخافت. لم تستطع استبيان ماذا أراد، أو بما شعر... سمعها، ثم رأت ذلك؛ بن الذى ظلت حياته هذه التى عليه أن يعيشها مكبوتة: فى قفزة واحدة وصل إلى الجزء المظلم على حواف الأفريز واختفى. كل ما استطاعت أن تراه كان عتامات العلية التى بدت بلا حدود. ولم تستطع سماع أى صوت. كان جاثمًا هناك، محملقًا للخارج تجاهها... شعرت بالشعر على رأسها يتدلى، وشعرت بقشعريرة باردة. بشكل غريزى؛ لأنها لم تخافه بعقلها. وتصلبت من الرعب.

قالت بنعومة، "بن" رغم أن صوتها كان مرتعشًا. "بن..." وهى تضع فى الكلمة دعواها الإنسانية تجاهه، وعلى العلية الموحشة الخطرة حيث تراجع إلى ماض سحيق لم يعرف الإنسانية.

ليس ثمة من جواب. لا شىء. بقعة من الظل خفتت لحظيًا من الضوء الرفيع القذر تحت ضوء السماء: مر طائر، فى طريقه من شجرة إلى أخرى.

نزلت الدرج، وجلست باردة ووحيدة فى المطبخ تشرب شايًا ساخنًا.

قبل قليل من ذهابه إلى المدرسة الثانوية الحديثة المحلية، المدرسة الوحيدة بالطبع التى كانت لتقبل به، فى إجازة الصيف، تقريبًا مثل تلك الإجازات فى الماضى. راسل الناس بعضهم البعض، واتصلوا ببعضهم البعض: "أولئك الناس المساكين، دعونا نذهب هناك، على الأقل لأسبوع... دافيد المسكين... عرفت هارييت أن الأمر كان دائمًا هكذا. أحيانًا، ونادرًا، كان: هارييت المسكينة... والأكثر اعتيادًا، وغير المسئولة هارييت الأنانية، هارييت المجنونة...

بن الذى لم يُترك ليُقتل، ودافعت عن نفسها بقوة بتفكير لم يكن يعلن عن نفسه أبدًا. بكل شىء دافعوا عنه - المجتمع الذى انتموا إليه - وآمنوا به لم يكن لديها أى بديل إلا أن تعيد بن من ذلك المكان. لكن، لأنها فعلت وأنقذته من قتل أو موت محقق، فقد دمرت أسرتها. وآذت حياتها هى... وحياة دافيد... وحياة لوك، وهيلين، وجين... وحياة بول الذى كان الأكثر تعرضًا للإيذاء.

دارت أفكارها فى هذا الأخدود.

ظل دافيد يقول إنها ببساطة لم يكن عليها الذهاب هناك فى الأساس... لكن كيف كان يمكن لها ألا تذهب، وهى هارييت؟ وإذا لم تذهب، فقد اعتقدت أن دافيد كان سيفعل.

كبش فداء. كانت هى كبش الفداء - هاربيت المدمرة لأسرتها.

لكن طبقة أخرى من الأفكار أو المشاعر كانت تجرى بشكل أعمق. قالت لدافيد، "إننا نُعاقب، هذا كل ما فى الأمر."

"تساءل، على ماذا؟" وهو فى موقف دفاعى بالفعل؛ لأنه كان هناك نغمة يكرهها فى صوتها.

"من أجل التجاسر. من أجل التفكير بأننا يمكن أن نكون سعداء. سعداء لأننا قررنا أننا سنكون سعداء."

قال بغضب، "هراء." لأن هذه الهاربيت جعلته غاضبًا. "كانت صدفة. أى أحد كان يمكن أن ينجب بن. إنه جين الصدفة، هذا كل ما فى الأمر."

تمسكت بقولها بعناد، "لا أعتقد ذلك. كنا سنصبح سعداء! لا يوجد أحد آخر كان سينعم بمثل سعادتنا، أو يبدو أننى لم أقابلهم أبدًا، لكننا كنا سنصبح سعداء. وهكذا هبطت علينا الصاعقة."

"توقفى يا هاربيت! ألا تعلمين إلى أين يمضى بنا هذا التفكير؟ مذابح منظمة يذهب ضحيتها الآمنون، وعقوبات، وحروق الساحرة، والآلهة الغضبى.!" كان يصرخ فيها.

قالت هاربيت، "وكباش الفداء، لا تنس كباش الفداء."

جادلها بحرارة مضطربًا حتى أعماقه، أمكنها ا
ترى ذلك. "الآلهة المحبة للانتقام منذ آلاف السنوا
الماضية، آلهة القصاص، التى توزع عقوبا
العصيان..."

"لكن من نحن كى نقرر أننا سنكون هذا أو ذالا
من؟"

لقد فعلنا. هارييت ودافيد. تحملنا المسئولية عما
آمنا به وفعلناها. ثم - سوء الحظ. هذا كل ما في
الأمر. كنا سننجح بسهولة. كان يمكننا أن نحقق ما
خططنا له. ثمانية أطفال فى هذا المنزل، والكل
سعيد... حسنًا، قدر المستطاع."

ومن دفع لقاء ذلك؟ جيمس. ودوروثى، بطريقة
مختلفة... لا، أنا فقط أقرر الحقائق يا دافيد، لا
أنتقدك."

لكن هذه النقطة تراجعت منذ زمن طويل لتصبح
نقطة مؤلمة لدافيد. قال: "جيمس وجيسيكا لديهما
الكثير من المال، وما كانا ليفقداه ثلاث مرات، مثلما
حدث. على أية حال، لقد أحبا القيام بذلك. ودوروثى
لقد اشتكت من أنها استغلت، لكنها كانت مربية آمر
منذ أن ملت منا."

"إننا فقط أردنا أن نكون أفضل من أى شخص
آخر. هذا كل ما فى الأمر - اعتقدنا أننا الأفضل."

"لا، هذه هى الطريقة التى تلوين بها عنو
الحقيقة الآن. كل ما أردناه كان - أن نكون أنفسنا."

"آه، هذا كل ما فى الأمر." قالتها بمرح وبطريقة تعمدت الإغاظة. "هذا كل ما فى الأمر."

"نعم، لا تفعليها يا هارييت، توقفى... حسنًا، إذا لم تتوقفى، إذا كان عليك أن تفعليها، اتركينى خارج لعبتك إذًا. لن أستدرج للعودة إلى العصور الوسطى."

"هل هذا هو المكان الذى استدرجنا للعودة إليه؟"

حضرت مولى وفريدريك، وأحضروا هيلين معهم. إنهم لم، ولن يسامحوا هارييت، لكن يجب وضع مصلحة هيلين فى الاعتبار، وهى كانت تبلى بلاء حسنًا فى المدرسة، فتاة فى السادسة عشرة من عمرها، جذابة، ومكتفية بنفسها، لكنها باردة، غير ودودة، ومتعالية بعض الشىء.

حضر جيمس لوك ذو الثمانية عشر عامًا، وهو فتى وسيم، وهادئ، ويمكن الاعتماد عليه، وراسخ. كان ينوى أن يبنى المراكب مثل جده، وكان بطبعه مراقبًا وملاحظًا مثل أبيه.

حضرت دوروثى مع جين ابنة الرابعة عشرة. لم تكن دوروثى متعلمة، لكنها كما ألحت، إلى حد أسوأ من ذلك. "لا يمكننى أبدًا تجاوز أى اختبار." وهناك جملة، "انظروا إلى،"لم تكن تقال؛ لكنها كانت لتتحداهم جميعًا ببساطة بوجودها القوى. ذلك الوجود الذى أقل واقعية مما كان عليه. فى تلك الأيام كانت أكثر نحافة، وقد جلست ومن حولها صفقة جيدة من أفراد العائلة. كان بول، ابن أحد عشر عامًا،

متكلفًا، وهستيريًا، متطلبًا للاهتمام دائمًا." وتحد كثيرًا عن مدرسته الجديدة، وهى مدرسة نهاري كرهها. وأراد أن يعرف لم لا يمكنه الذهاب إل مدرسة داخلية مثل إخوته الآخرين. قال دافيد، سابق جيمس إلى المبادرة بنظرة كبرياء واضحة، أنه سيدف له ليلتحق بإحداها.

قالت مولى، "مؤكد أن هذا هو الوقت الذى يتوجب عليك فيه بيع هذا المنزل، وكان ما تقوله ضمنًا لابنة زوجها الأنانية هو، "ثم بعدها يمكن لابنى أن يتوقف عن قتل نفسه بالعمل المضنى من أجلك."

تقدم دافيد بسرعة لدعم هارييت، "أنا أتفق مع هارييت، لا يجب بيع هذا المنزل بعد."

سألت مولى، "حسنًا، ما الذى تظن أنه سيتغير؟ بالتأكيد بن لن يتغير."

لكن دافيد قال شيئًا آخر بطريقة خاصة، إنه ليرغب فى بيع المنزل.

فقالت هارييت، "إنه البقاء مع بن فى منزل صغير، مجرد التفكير فى ذلك صعب."

"لا حتمًا لن يكون منزلاً صغيرًا. لكن هل يجب أن يكون بحجم فندق؟"

علم دافيد أن المنزل حتى الآن، رغم أنه ينطوى على قدر من الحماقة، إلا أنها لا يمكنها فى النهاية أن تتنازل عن أحلامها، عن استعادة حياتها القديمة.

انتهت تلك الإجازة، التى كانت ناجحة إجمالاً، لأن كل فرد حاول قدر جهده إنجاحها. باستثناء مولى . هكذا رأت هارييت الأمر. لكنها كانت حزينة على كلا الأبوين. كان عليهما الجلوس منصتين للحديث عن أناس لم يلتقيا بهم، فقط سمعا عنهم. قام لوك وهيلين بزيارة أصدقاء لهم فى المدرسة، لم يكن ممكنًا أبدًا دعوتهم للحضور إلى هنا.

فى سبتمبر من العام الذى صار فيه بن فى الحادية عشرة، ذهب إلى المدرسة الكبيرة، وكان هذا عام ١٩٦٨ .

أعدت هارييت نفسها لتلقى مكالمة تليفونية من مكتب مدير المدرسة تخبرها بأن عليها الحضور فورًا. واعتقدت، أن المكالمة ستكون قرب نهاية الفصل الدراسى الأول. ستكون المدرسة قد تلقت تقريرًا عن بن، من مديرة المدرسة التى رفضت بإصرار شديد الاعتراف بأن هناك أى شىء غير عادى بخصوصه. "بن لوفات ليس طفلاً قابلاً للتعلم، لكن..." لكن ماذا؟ إنه يحاول قدر جهده. هل هذا ليكون حقيقة الأمر؟ لكنه توقف منذ زمن طويل عن محاولة فهم ما يتم تعليمه له، ويمكنه بالكاد أن يقرأ أو يكتب، بأكثر من مجرد اسمه. ظل يحاول أن يتلاءم، وأن يقلد الآخرين.

لم تكن هناك مكالمة تليفونية، ولا خطاب. بدا بن، الذى كانت تتفحصه كل مساء لترى الكدمات على جسمه، وقد دخل العالم الخشن القاسى للمدرسة الثانوية دون صعوبة.

"هل تحب هذه المدرسة يا بن ؟"

"نعم."

"هل هى أفضل من المدرسة الأخرى؟"

"نعم."

وكما يعرف كل الناس، كل تلك المدارس لديها طبقة ما، مثل ترسيب فى القاع، من غير القابلين للتعلم، وغير القابلين للاستيعاب، الميئوس منهم، الذين يتم تصعيدهم فى المدرسة من صف إلى صف فى انتظار اللحظة السعيدة التى يستطيعون فيها مغادرتها. أكثر اعتياداً مما يتوقع يكون هؤلاء طلاب مهملين أو متهربين من أداء فروضهم، حتى أنهم يكونون مصدر راحة وتخلص من عبء ثقيل عند تركهم المدرسة. صار بن، على الفور، واحداً من أولئك الطلاب.

بعد عدة أسابيع من ذهابه للمدرسة الكبيرة أحضر للبيت شاباً أسمر ضخم الجثة وأشعث، ملؤه طبيعة طيبة متسامحة. واعتقدت هارييت أنه جون! ثم، فكرت أنه ولابد أخوه لا بد وأنه أخوه! لا، لقد استدرج بن هذا الفتى، كان هذا واضحاً، أولاً بسبب ذكرياته عن الوقت السعيد الذى قضاه مع جون. لكن كان اسمه "ديريك"، وعمره خمسة عشر عاماً، وعلى وشك ترك المدرسة. لماذا توافق مع بن الأصغر منه بسنوات؟ راقبتهما هارييت بينما يعدان لأنفسهما طعاماً من الثلاجة، وشاياً، ثم جلسا أمام التليفزيون.

وتحدثا بأكثر مما شاهدا. فى الواقع، بدا بن أكبر سنًا من ديريك. وتجاهلاها. وتمامًا كما كان الأمر، عندما كان بن جالب الحظ أو الحيوان الأليف المدلل لعصابة الشباب، عصابة جون، وبدا أن بن لا يرى إلا جون، والآن وجه اهتمامه إلى ديريك. بسرعة انتقل اهتمامه إلى "بيلى"، وإلى "الفيس"، وإلى "نيك"، الذين حضروا كعصابة بعد المدرسة، وجلسوا هنا وهناك، وأطعموا أنفسهم من الثلاجة.

لماذا أحب بن هؤلاء الفتية الكبار؟

كانت تنظر إليهم من فوق السلالم ربما، فى طريقها إلى حجرة المعيشة؛ جماعة من الشباب ضخام الجثة، أو نحيفين، أو ممتلئى الجسد على نحو جميل، سمر ذوى شعر فاتح أو أحمر. وبينهم بن مقرفص، وقوى، ذو أكتاف عريضة ثقيلة، بشعره الأصفر الكث نامٍ بذلك النسق الغريب، وبعينيه المترقبتين الغريبتين. فكرت، لكنه ليس أصغر منهم حقًا! إنه أقصر كثيرًا نعم. لكن، بدا أنه يسيطر عليهم. عندما كانوا يجلسون حول مائدة الأسرة الكبيرة متحدثين بأسلوبهم، الذى تميز بالصوت العالى، والأجش، والساخر، والهزلى كانوا دائمًا ينظرون إلى بن، رغم أنه يتحدث قليلاً جدًا. عندما كان يقول شيئًا ما، لم يكن أكثر أبدًا من نعم أو لا. خذ هذه! أو ناولنى تلك! أو إعطنى. أى ما كان، ساندويتش، أو زجاجة كوكاكولا. كان يراقبهم بعناية

طوال الوقت. كان زعيم هذه العصابة، سواء كانوا يدركون ذلك أم لا.

كانوا شلة من المراهقين، المتجمعين فى طاقم مثل عصابة، متفاوتين، وغير متيقنين؛ وهو كان شابًا بالغًا، كان عليها أن تستنتج ذلك أخيرًا رغم أنها لفترة اعتقدت أن أولئك الأطفال المساكين، الذين بقوا معًا، لأنهم اكتشفوا أنهم أغبياء، وغير بارعين أو غير قادرين على أن يكونوا صنوًا لأقرانهم، وأحبوا بن لأنه كان أقل منهم براعة، وأكثر عجزًا عن الإفصاح عن آرائه ومشاعره. لا، لقد اكتشفت أن "عصابة بن لوفات" هى الأكثر إثارة للحسد فى المدرسة، وأراد العديد من الفتية، ليس فقط الكسالى والمتخلفون دراسيًا، أن يصبحوا جزءًا منها.

راقبت بن مع أتباعه، وحاولت تخيله وسط جماعة من جنسه، مقرفصين فى فتحة كهف حول لهيب النار التى تهدر. أو فى مستوطنة من الأكواخ فى غابة كثيفة؟ لا، إن رفاق جنس بن كانوا فى منزل ما تحت الأرض، كانت متأكدة، فى كهوف سوداء مضاءة بالمصابيح. هذا أقرب لما كانوا عليه. من المحتمل أن تلك العينين الغريبتين كانتا تتكيفان مع ظروف مختلفة تمامًا من الضوء.

عادة ما كانت تجلس فى المطبخ، مع نفسها، وهم جالسون عبر الحائط الواطئ لحجرة المعيشة يشاهدون التليفزيون. ربما تمددوا هناك لساعات

طوال فترة ما بعد الظهيرة والمساء. أعدوا الشاى، وغزوا الثلاجة، أو خرجوا ليجلبوا الفطائر أو البطاطس المقلية أو البيتزا. لم يبد عليهم أنهم مهتمون بما يشاهدونه؛ أحبوا المسلسلات التى تعالج المشكلات المنزلية التى تذاع بعد الظهر، ولم يغيروا قنوات برامج الأطفال؛ لكن الأفضل لديهم على الإطلاق كان الاستمتاع بالقصص الدموية فى المساء. إطلاق نار، وقتل، وتعذيب، ومعارك: كان هذا ما اشبعهم. راقبتهم وهم يشاهدون، وكان أقرب مما لو كانوا فعليًا جزءًا من القصص التى تعرض على الشاشة. كانوا مشدودين، ويتوترون وينثنون بلا وعى، وجوههم مكشرة أو مبتهجة بالنصر أو جامدة؛ يصدرون أنينًا أو تنهدًا أو صرخات الاستثارة: "نعم هكذا، افعلها! قطعه إلى شرائح! اقتله، شرحه!" هناك أنات المشاركة المثيرة كلما اخترقت الرصاصات جسدًا، وكلما تدفقت الدماء، وكلما صرخت الضحية التى تتعرض لتعذيب.

فى تلك الأيام كانت الصحف المحلية مليئة بأخبار السفاحين، والسطو، واقتحام الممتلكات. أحيانًا لم تأت هذه العصابة، ومن بينهم بن، إلى منزل لوفات ليوم كامل أو يومين، أو ثلاثة.

"أين كنت يا بن ؟"

وكان يجيب بلا مبالاة، "كنت مع أصدقائى."

"نعم، لكن أين؟"

"بالقرب من هنا."

فى ساحة الانتظار، أو فى المقهى، أو ف
السينما، وعندما أمكنهم استعارة دراجات بخارية
ذهبوا بعيدًا إلى مدينة شاطئية ما.

فكرت فى الاتصال بمدير المدرسة، لكن بعدها
ما الهدف؟ إذا كنت مكانه، لشعرت بالارتياح لهروبهم
من المدرسة.

"الشرطة؟ هل سقط بن فى قبضة الشرطة؟"

فقد بدا دائمًا أن العصابة تملك الكثير من المال

وفى أكثر من مرة، عندما لا يرضيهم ما وجدوه
فى الثلاجة، كانوا يرسلون فى طلب وليمة من الطعام
ويمضون الليل كله فى الأكل. ديريك، وأبدًا ليس بن
كان يعرض عليها بعض الطعام.

"هل ترغبين فى شىء من الأكلات السريعة
حبيبتى؟"

قبلت عرضه، لكنها جلست بعيدة عنهم؛ لأنها
عرفت أنهم لا يرغبون فى وجودها بالقرب منهم.

كانت هناك حالات اغتصاب، أيضًا،بين تلك
النشرات الإخبارية...

تفحصت تلك الوجوه، محاولة أن تطابق بينها
وبين ما قرأته من أخبار. كانت وجوههم وجوهًا عادية
لرجال صغار؛ كلهم بدوا أكبر من خمسة أو ستة عشر
عامًا. كان لديريك مظهر أحمق: فى لحظات قبيحة
على الشاشة كثيرًا ما ضحك بطريقة مستثارة

ضعيفة. كان الفيس يملك مظهرًا هزيلاً، شاب أشقر حاد، وشديد الأدب، ولكنه كان بغيضًا، كما اعتقدت، بعيون باردة مثل عيون بن. أما بيلى كان شخصًا ضخمًا، وغبيًا، ويتمتع بنزعة عدوانية فى كل لحظة. وكان ليستغرق تمامًا فى العنف المعروض على الصندوق، حتى أنه كان يقفز على قدميه، ويبدو غريبًا وكأنه يختفى فى الشاشة - ثم بعدها سخر منه الآخرون، وعاد لطبيعته وجلس. كان يخيفها. كلهم أخافوها. لكنها فكرت، لم يكونوا جميعًا أذكياء لهذا الحد. ربما الفيس كان ذكيًا... إذا كانوا يسرقون، أو ما هو أسوأ، فمن الذى خطط لكل هذا، وتولى رعاية أفراد العصابة؟

هل كان بن ؟ إنه لا يعرف مدى قوته. تلك المعادلة اختفت معه أثناء المدرسة. كيف تحكم فى نوبات الغضب التى عرفت أنها يمكن أن تتغلب عليه؟ كانت دائمًا تراقب خفية الجروح القطعية، والكدمات، والجروح فى جسمه؟ كلهم كان لديهم آثار منها، لكن لم يكن هناك شىء خطير.

ذات صباح، نزلت السلالم لتجد بن يتناول إفطاره مع ديريك، وقتها لم تقل شيئًا، لكنها عرفت أنها يمكن أن تتوقع المزيد. وبسرعة وجدت ستة منهم على الإفطار: سمعتهم، متأخرًا جدًا، وهم يتسللون أعلى الدرج، ووجد كل منهم سريرًا لنفسه نام فيه.

وقفت إلى جوار المائدة، ونظرت ناحيتهم بشجا،ا
لتواجههم، وقالت، "غير مسموح لكم بالنوم هنا فى ا
وقت ترغبون فيه فى ذلك."

خفضوا رءوسهم واستمروا فى تناول الطعام
وألحت، "إننى أعنى ما أقول."

قال ديريك ضاحكًا ومتعمدًا أن يبدو وقحًا، "ا
آسف، آسف، أنا متأكد أنك تعنين ما تقولينه، لكنا
ظننا أنك لا تمانعين."

"إننى أمانع."

قال بيلى الأخرق والذى كان أكثر خوفًا من غيره
"إنه منزل كبير."

لم ينظر إليها، لكنه حشر الطعام فى فمه
وأصدر صوتًا وهو يأكل.

"إنه ليس منزلك."، قالت هارييت

قال الفيس ضاحكًا بصوت عالٍ، "ذات يوم سو
نستولى عليه ونأخذه منك."

"آه، ربما فعلت، نعم."

علقوا جميعًا تعليقات "ثائرة" مثل هذه عندما
تذكروا الأمر.

فلتأتى الثورة، لسوف... "سوف نقتل كل الأغنيا
الملعونين، ومن ثم... "هناك قانون واحد للأغنياء
وقانون للفقراء، الكل يعلم ذلك." سوف يقولون ذا

الأشياء بشكل ودى، بتلك النغمة من الإشباع، التى يستخدمها الناس عندما يقلدون ما يفعله الآخرون؛ عندما يكونون جزءًا من مزاج شعبى أو حركة شعبية.

كان دافيد يعود من عمله متأخرًا، فى تلك الأيام، وأحيانًا لم يكن يعود على الإطلاق. كان يقيم مع أحد الأشخاص مِمَنْ يعمل معهم.

وتصادف أن وصل مبكرًا ذات ليلة، ووجد العصابة، تسعة أو عشرة منهم، يشاهدون التليفزيون، وقد تناثرت من حولهم علب البيرة، وعلب الطعام الصينى السريع، وأوراق وضع فيها سمك وبطاطس مقلية، كلها ملقاة على الأرضية.

قال، "نظفوا هذه الفوضى." قاموا ببطء على أقدامهم ونظفوا المكان. فقد كان فى النهاية رجلاً: رجل البيت. وقام بن بالتنظيف معهم.

ثم قال، "هذا يكفى، والآن اذهبوا لبيوتكِم جميعًا."

جرجروا أقدامهم خارجين، وذهب بين معهم. ولم تقل هارييت ولا دافيد أى شىء لمنعه.

فلم يحدث لفترة أن اختلى أيهما بالآخر. وفقما اعتقدت.

أراد أن يقول شيئًا ما، لكنه كان خائفًا من قوله ـ خائفًا أن يوقظ ذلك الغضب الخطير داخله.

وأخيرًا سأل، جالسًا وفى يده طبق به مما أمكنه أن يجده فى الثلاجة، "ألا ترين ما سوف يحدث؟"

"تعنى أنهم سيجيئون إلى هنا بمعدل أكبر؟"

"نعم، هذا ما أعنيه. ألا ترين أن علينا أن نبيع هذا المكان؟"

"نعم، أعلم أنه علينا ذلك،" قالتها بهدوء لكنها أخفقت النبرة الهادئة.

"بحق الله يا هارييت، ما الذى تنتظرينه؟ إنه جنون..."

"الشىء الوحيد الذى يمكننى التفكير فيه الآن هو أن الأطفال ربما أسعدهم احتفاظنا به."

"ليس لدينا أطفال يا هارييت، أو بدقة أكثر ليس لدى أنا أطفال، لديك طفل واحد."

شعرت أنه ما كان ليقول هذا إذا كان موجودًا بالمنزل بشكل أكثر من المعتاد، وقالت، "هناك أمر لا تراه يا دافيد."

"وما هو؟"

"بن سيغادر. سوف يغادرون جميعًا، وسوف يذهب بن معهم."

نظر بعين الاعتبار لما قالت؛ بينما فكاه يتحركان ببطء وهو يأكل. بدا متعبًا للغاية، كما بدا أكبر بكثير مما هو عليه، ويمكن بسهولة اعتباره فى الستين بدلاً

من الخمسين. كان شعره رماديًا، وظهره محنيًا فى الواقع، رجل مبهم متكلف المظهر تعتريه مشاعر قلق واستشراف للأزمات، هذا ما بدا لها فى وجهه الآن.

"لماذا؟ يمكنهم أن يأتوا هنا فى أى وقت يشاءون، ويفعلون ما يريدون، ويتناولون ما شاءوا من طعام."

"لأن الأمر لم يعد مثيرًا لهم، هذا هو السبب. اعتقد أنهم سيندفعون يومًا كالتيار إلى لندن أو مدينة كبيرة ما. لقد رحلوا من قبل لخمسة أيام فى الأسبوع الماضى."

"وسيذهب بن معهم؟"

"نعم، سيذهب بن معهم."

"وأنت لن تذهبى خلفه لتعيديه؟"

لم تجب. كان هذا ظلمًا لها، ويجب عليه أن يفهم ذلك؛ وقال بعد لحظة أو اثنتين، "آسف. أنا مرهق جدًا ولا أعرف ما إذا كنت عائدًا أم ذاهبًا. عندما يذهب بن، ربما أمكننا الذهاب ونحصل على إجازة معًا فى مكان ما."

"حسنًا، ربما أمكننا." بدا ذلك كما لو كان يمكنه حتى أن يفكر فى الأمر ويأمل فيه.

بعدها رقدا جنبًا إلى جنب يتلامسان، وتحدثا عمليًا حول الترتيب لزيارة جين فى مدرستها. وهناك بول، فى مدرسته، ولديهم ، يوم لزيارات الآباء.

كانا وحدهما فى الحجرة الكبيرة، حيث ولد الأطفال كلهم باستثناء بن. وأعلاهما كان الفراغ فى الطوابق العليا، وفى العلية. أسفل الدرج حجرة المعيشة الخالية والمطبخ. أحكما إغلاق الأبواب، إذا قرر بن العودة للبيت هذه الليلة، فعليه أن يدق جرس الباب.

قالت، "بذهاب بن، يمكننا بيع هذا المنزل ونشترى منزلاً معقولاً ما فى مكان ما. ربما سيتمتع الأطفال بالحضور للزيارة إذا لم يكن موجودًا هناك."

ليس ثم من إجابة، كان دافيد نائمًا.

بعد ذلك بفترة قصيرة، رحل بن والآخرون مرة أخرى لعدة أيام. رأتهم على التليفزيون. كان هناك شغب فى شمال لندن. وأعلن أن هناك "أزمة". لك يكون بن أولئك الذين، والكتل الحديدية، والحجارة، لكنهم وقفوا فى جماعات، فى جانب ما ينظرون نظرات خبيثة، وساخرين مما يجرى، ويصيحون بالتشجيع.

عادوا فى اليوم التالى، لكنهم لم يمكثوا فى المنزل لمشاهدة التليفزيون؛ كانوا متوترين، ورحلوا مرة أخرى. فى الصباح التالى أذاعت الأخبار أن محلاً صغيرًا اقتحم، وكان به شباك لمكتب بريد، وأنه تم الاستيلاء على حوالى ٤٠٠ جنيه من الخزينة. كان حراس المحل مقيدين ومكممين، واعتدوا على مديرة المكتب، وتركوها غائبة عن الوعى

فى السابعة من مساء تلك الليلة حضروا للبيت. كانوا ممتلئين بالإثارة والشعور بالإنجاز ما عدا بن. وعندما رأوها تبادلوا نظرات سريعة، مستمتعين بالسر الذى لم تشاركهم فيه. رأتهم يخرجون لفائف من أوراق مالية، يلمسونها ويدفعون بها إلى جيوبهم. لو أنها كانت من الشرطة فإنهم سيكونون من المشتبه فيهم وبقوة على أساس قوة ابتهاجهم ووجوههم القلقة.

لم يكن بن محمومًا مثل الآخرين. كان كما كان دائمًا، يمكنك أن تفكر أنه لم يكن جزءًا من ـ مما كان اى ما كان. لكنه كان هناك فى منطقة الشغب، لقد راته.

حاولت استدراجه: "رأيتك كثيرًا على التليفزيون، كنت واقفًا فى عمارات هوايت ستونز."

تباهى بيللى قائلاً، "آه نعم، كنا هناك."

قال ديريك، "أولئك هم نحن،" معطيًا نفسه علامة الموافقة، ونظر ألفيس إليه بحدة. لم يكن بعض الفتية الآخرين معهم من المعتادين، ممن كانوا يأتون احيانًا، وبدوا سعداء.

علقت بعدها بأيام قليلة،، "أيها الجمع.. أعتقد انكم، عليكم أن تعلموا أن هذا المنزل سيباع ـ ليس فى الحال ـ لكن قريبًا جدًا."

كانت تراقب بن بشكل خاص، لكن بينما حول هو نظره نحوها ـ افترضت هى أنه تلقى الأنباء للداخل، ولم يقل شيئًا.

قال ديريك، "إذًا أنتم ستبيعونه؟ فيما بعد
شعرت بأدب فى كلامه بنفس القدر الذى شعرت به
بلا شىء.

انتظرت أن يدلى بن بشىء حول الأمر، لكنه لم
يفعل. هل كان إخباره وهو فى إطار عصابته هذه الأ
أمرًا رائعًا، حتى أنه لم يفكر فيه باعتباره منزله؟

علقت عليه، عندما كان بعيدًا عن مرمى سم
الآخرين، "بن، إذا لم تجدنى هنا لسبب ما، سو
أعطيك عنوانًا حيث يمكنك دائمًا أن تصل إلى
شعرت أثناء كلامها أن دافيد كان يراقبها بشكل
هجائى، رافضًا. قالت فى نفسها لدافيد ، غير المرئ
"حسنًا، لكنى أعرف أنك سوف تفعل ذات الشىء، إذا
لم أفعله أنا.... هذا هى الطبيعة التى نحن عليها
وليس هناك شىء يمكننا أن نفعله حيال ذلك
للأحسن أو للأسوأ."

أخذ بن الورقة التى كتبت عليها اسمها، هاريي
لوفات، عناية السيدة مولى وفريدريك بورك وعنوانهم
فى أكسفورد، وهو ما منحها نوعًا من متعة تواف
للإغاظة. لكنها وجدت الورقة ملقاة منسية أو مهملة
على أرضية غرفته، ولم تحاول مرة أخرى.

كان الوقت فى الربيع، ثم الصيف، وحضر أفراد
من العائلة بمعدل أقل من المعتاد، وأحيانًا تكون الزيارة
ليست لأيام. كان ديريك يمتلك دراجة بخارية.

الآن، كلما سمعت عن عملية اقتحام أو هجوم على أحد من الخلف لسلبه أو اغتصاب فى أى مكان، لامتهم؛ لكنها فكرت أنها ربما كانت ظالمة. لا يمكن لومهم على كل شىء! وفى الوقت نفسه كانت تتوق إلى مغادرتهم. كانت الحاجة لبدء حياة جديدة مختمرة فى عقلها. أرادت أن تكون هذه الحياة مع هذا المنزل التعيس، والأفكار التى مضت معه.

لكنهم أحيانًا كانوا يحضرون. أين كانوا؟ كما لو يكونوا غائبين لزمن طويل، لا يقولون شيئًا عن المكان، كانوا يندفعون إلى حجرة المعيشة، ويجلسون أنفسهم حول جهاز التليفزيون، أربعة أو خمسة منهم، وأحيانًا حتى عشرة أو أحد عشر. الآن لم يعودوا يغزون الثلاجة: كان فيها القليل جدًا فى تلك الأيام. وكانوا يجلبون كميات هائلة من المواد الغذائية المتنوعة التى نشأت أصلاً فى دستة من البلاد. البيتزا، والطعام الصينى، والهندى؛ وخبز البيتا[1] مملوء بالسلطة؛ والتاكو[2]؛ والتورتيلا[3]، والفطائر وقطع الحلوى والساندويتشات. كانت تلك الأكلات الإنجليزية التقليدية واللحم الإنجليزى الجاف، هل كانت طعامًا حقيقيًا؟ لم يكونوا مستعدين لأكل أى شىء لكن ما عرفه أبواهم! لم يبدو أنهم يعبئون بما أكلوا، طالما كانت هناك وفرة من الطعام، وربما ينثرون كسرات

---

(١) نبات تتخذ من أليافه الحبال (المراجع).

(٢) نوع من الساندويتشات (المراجع).

(٣) كعكة مستديرة من دقيق الذرة (المراجع).

الخبز وقشرة الرغيف أو القشرة الخارجية للفطير أ
الكعك، وعلب الكرتون هنا وهناك، دونما اضطرار
لتنظيف أى شىء.

كانت تعيد ترتيب المكان وتفكر: لن يستمر الحال
هكذا طويلاً.

كانت تجلس مع نفسها على المائدة الكبيرة بينما
هم تمددوا على الجانب الآخر من الحائط الواطئ
وضجيج التليفزيون صنع تيارًا مضادًا لأصواتهم
المرتفعة المزعجة الحقودة - أصوات قبيلة منفرة، غير
متفاهمة، وعدوانية. كان الامتداد الفسيح للمائدة
يهدئها.

كان امتداد الطاولة يهدئ من روعها. عندما
اشتروها فى البداية، كطاولة جزار مهملة، وكان لها
سطح خشن به الكثير من التجريح والقطع، لكن أعي
تسويتها، وفى تلك المرحلة من حياتها أظهرت اللو
الأبيض الكريمى النظيف للطبقة الجديدة م
الخشب. وقامت هى ودافيد بتغطيتها بطبقة م
الشمع. ومن وقتها، تلقت آلاف الأيدى، والأصابع
والأكمام، والأذرع العارية فى الصيف، ووجنا
الأطفال الذين سقطوا نائمين وهم جالسون على حج
الكبار، والأقدام الممتلئة بجمال بخطاهم، وه
موضوعة ممسوكًا بها لتمشى على الطاولة، والكا
يصفق استحسانًا: كل هذا، بالإضافة للملامسا
والملاطفات على مدى عشرين عامًا منحت الطاول

الواسعة ـ كانت كلها من قطعة قطعت من زمن **طويل** من شجرة بلوط عملاقة ـ سطحًا براقًا حريريًا، **حتى** أن الأصابع كانت تتزحلق عليه. تحت هذا **الجلد** رقدت العقد والطيات مخفية، وكان نسق تلك **العقد** والطيات معروفًا لها بشكل حميم. رغم ذلك، تشقق الجلد! هنا نصف دائرة بنية حيث وضعت دوروثى قدرًا صغيرًا ذا مقبض ساخنًا للغاية، وانتزعته فجأة لأعلى غاضبة من نفسها. كان هناك أثر للضرب على المائدة أسود ومنحنى، لكنها لم تستطع تذكر ما الذى سببه. وإذا نظرت للمائدة من زاوية بعينها تجد بها مناطق من النقر أو السنون، حيث وضعت حوامل ثلاثية القوائم لحجب حرارة الأطباق بعيدًا عن السطح الثمين.

عندما مالت للأمام أمكنها أن ترى نفسها فى بريق المائدة ـ شديدة الفتور، تكفى لجعلها تنحنى للخلف ثانية، بعيدًا عن الصورة. بدت مثل دافيد: متقدمة فى السن. لا يمكن لأحد كان أن يقول إنها فى الخامسة والأربعين، لكنه لم يكن تقدمًا عاديًا فى السن من شعر رمادى وجلد متعب: بل هناك مادة غير مرئية ترشح منها؛ أفرغت من مكون ما أخذه كل واحد كحق مكتسب، مثل طبقة من الدهن، لكنه لم يكن مكونًا ماديًا.

مع انحنائها إلى الخلف بحيث بما لا يمكنها رؤية صورتها المهتزة، تخيلت كيف كانت هذه المائدة ذات

مرة تعد للاحتفالات والمتعة من أجل -حياة عائلية.
أعادت خلق المشاهد لعشرين، وخمسة عشر، واثنى
عشر، وعشرة أعوام مضت، مراحل خشبية مسرح ال
لوفات، وأبويه، ودوروثى، وأخواتها... والمواليد
الجدد... عشرين من أفراد العائلة، ثلاثين، ازدحموا
حول هذا السطح اللامع، وانعكست صورتهم فيه
كالمرآة، وأضافوا موائد أخرى فى نهايات المائدة،
ووسعوا منها بألواح خشبية وضعت على مساند...
رأت المائدة تطول وتتسع وكتلة من الوجوه حولها، وجوه
باسمة دائمًا، لأن هذا الحلم لم يكن ليتواءم مع النقد
أو التنافر. وحديثى الولادة... والأطفال... سمعت
ضحكة طفل صغير، وأصواتهم؛ ثم اللمعان الواسع
للمائدة بدا أنه يصير قاتمًا، وكان هناك بن ؛ الغريب،
المدمر. أدارت رأسها بحذر، خائفة أن توقظ فيه
حواسًا كانت متيقنة أنه يملكها، ورأته هناك فى
مقعده. جلس منعزلاً، دائمًا بعيدًا: وكما هى العادة
كانت عيونه مسلطة على وجوه الآخرين، مراقبة.
عيون باردة؟ اعتقدت دائمًا أنها باردة؛ لكن ماذا رأت
تلك العيون؟ مستغرقة فى التفكير؟ يمكن للمرء أن
يعتقد أنه يفكر، مدخلاً المعلومات مما رأى ويرتبها.
لكن طبقًا للأنساق الداخلية، لا هى ولا أى أحد آخر
أمكنه التنبؤ بما يفكر فيه. كان كائنًا بالغًا بالمقارنة
للشباب غير الناضج، وغير مكتمل النمو. مكتملاً.
كاملاً. شعرت أنها كانت تنظر، رغم أنه هو من نظرت
له، إلى جنس بلغ قمته قبل الإنسانية بآلاف الآلاف

من السنين، أى كان ذلك يعنى، فبالتأكيد أنه أدرك هذه المرحلة. هل الناس من جنس بن عاشوا فى كهوف تحت الأرض، بينما العصر الجليدى على الأرض فوق رءوسهم، وهم يأكلون الأسماك من أنهار خفية مظلمة، أو يتسللون إلى أعلى ليصيدوا دبًا، أو طائرًا ـ أو حتى بشرًا من أسلاف هاريت؟ هل اغتصب الناس من جنسه إناثًا من أسلاف البشر؟ وبهذا صنعوا أجناسًا جديدة، والتى ازدهرت وغادرت الكهوف، لكنها ربما تركت بذورها فى المادة البشرية الواقعة بن الخلايا هنا وهناك، لتظهر ثانية، كما ظهر بين؟ (ربما كانت موروثات أو جينات بن بالفعل الآن فى جنين ما يصارع كى يولد؟)

هل شعر بعينيها المسلطتين عليه، كما يفعل البشر؟ نظر إليها أحيانًا وهى تنظر إليه ـ ليس كثيرًا، لكن حدث أن تلاقت عيونهم. وكانت لتضع فى نظرتها المحدقة تلك التنبوءات، والتساؤلات؛ حاجتها وشغفها لتعرف المزيد عنه ـ وهى التى فى النهاية أنجبته، وحملته فى رحمها لثمانية أشهر، رغم أنه كاد يقتلها – لكنه لم يشعر بالأسئلة التى كانت تراودها. نظر بلا مبالاة، وبشكل عارض للبعيد ثانية، وذهبت عيناه إلى وجوه أقرانه وأتباعه.

ورأى ـ ماذا؟

هل يذكر الآن أبدًا أنها ـ أمه، ولكن ماذا يعنى ذلك له؟ التى وجدته فى ذلك المكان (المصحة)،

وأعادته إلى لبيت؟ وجدته مخلوقًا مسكينًا، نصف ميت فى جاكيت ضيق محكم ويقيده. هل عرف أنه بسبب إعادته للبيت، أخلى هذا البيت نفسه، وذهب كل واحد بعيدًا، تاركين إياها وحيدة.

هنا، وهنا وهناك: لو كنت تركته يموت، لأصبح الجميع، معظم أفراد العائلة، سعداء، لكننى لم أستطع أن أفعلها، ولذلك....

وماذا سيحدث لبن الآن؟ إنه يعرف بالفعل عن البنايات شبه المهجورة، والكهوف، والكهوف الكبيرة، وملاجئ المدن الكبرى حيث يعيش الناس الذين لا يستطيعون إيجاد مكان فى بيوت عادية ومنازل: يجب عليه ذلك، فأين له، إذًا، أن يقيم خلال الأيام والأسابيع التى كان يُضطر فيها للابتعاد عن البيت؟ وقريبًا جدًا، إذا كان معتادًا بالقدر الكافى أن يكون جزءًا من تجمعات كبرى، ومن العنصر المتطلع للإثارة فى أحداث الشغب، ومعارك الشوارع فإنه، هو وأصدقاؤه سيصبحون معروفين للشرطة. لم يكن من السهل تجاهله من أحد... لكن لماذا قالت ذلك؟ فكل العاملين فى السلطات الرسمية لم يروا بن منذ ولد... وقد ارتدى، عندما شاهدته على شاشة التليفزيون، جاكيت ياقته لأعلى ووشاح، وكان مثل أخ صغير ربما لديريك. بدا كصبى مدارس جرىء. هل ارتدى هذه الملابس ليتخفى؟ وهل عنى ذلك أنه أدرك كيف يبدو؟ كيف رأى نفسه فى الواقع؟

هل رفض الناس دائمًا فهمه، وإدراك كينونته؟

لم يحدث، ولن يحدث أن استطاع أحد من المسئولين الذين يمكنهم تحمل المسئولية بعدها؛ لا معلم فى المدرسة، ولا طبيب أو أخصائى استطاع أن يقول، "هذا ما هو عليه: كما لا يمكن لأى رجل شرطة، أو طبيب، أو باحث اجتماعى. لكن لنفترض أن أحدًا ما يومًا ما كان مبتدئًا فى معرفة الحالة الإنسانية، ربما باحث أنثروبولوجى من نوع غير مألوف رأى بن بالفعل، دعونا نقول رآه واقفًا فى الشارع مع أقرانه، أو فى فناء قسم الشرطة. واعترف بالحقيقة. اعترف بالفضول... ماذا عندئذ؟ هل يمكن لبن حتى الآن أن ينتهى به الحال كضحية فى سبيل العلم؟ ما الذى سيفعلونه به؟ يسكنونه كهفًا مغلقًا؟ يفحصون عظامه التى على هيئة هراوات، وتلك العيون ليكتشفوا السبب فى بطء قدرته على الكلام وتخلفها؟

إذا لم يحدث هذا - وخبرتها معه حتى الآن تقول أنه احتمال ضعيف - عندها فإن ما تنبأت به له كان أسوأ حتى يستمر أفراد العصابة فى دعم أنفسهم بالسرقة، وعاجلاً أو آجلاً سيتم القبض عليهم. وعلى بن كذلك. ولسوف يقاوم عندما يقع فى أيدى الشرطة ويزأر ويضرب بقدميه هنا وهناك ثم يجأر خارج حدود السيطرة من الغضب، وسوف يخدرونه - لأن عليهم أن يفعلوا، وقبل مرور وقت طويل سيصبح كما كان عندما وجدته يموت فى المصحة، باديًا مثل حيوان رخوى عملاق، شاحبًا ومترهلاً فى ثيابه الممزقة.

أو ربما أمكنه الإفلات من القبض عليه؟ هل كان
ذكيًا بما يكفى لذلك؟ بالتأكيد لم يكن أقرانه من أفراد
العصابة أذكياء، كانوا مستسلمين لإثارتهم وابتهاجهم.

جلست هارييت هناك هادئة، بينما أصوات
التليفزيون وأصواتهم آتية من الباب المجاور؛ أحيانًا
كانت تختطف نظرة على بن، ثم تشرد بنظرتها بعيدًا،
وتساءلت متى، فى القريب العاجل، سيرحلون جميعًا،
ربما دون علم منهم بأنهم لن يعودوا؟ كانت تجلس
هناك، بجوار البريق الهادئ الناعم للبركة فى انتظار
عودتهم، لكنهم لن يعودوا.

ولماذا يجب عليهم البقاء فى هذا البلد؟ يمكنهم
بسهولة أن يرحلوا ويختفوا فى أى من مدن العالم
الكبرى، وينضما معًا إلى عالم القاع فيها، وأن يكسبوا
قوتهم بطرق بارعة. ربما قريبًا جدًا، فى المنزل
الجديد الذى ستعيش فيه (وحدها) مع دافيد،
ستجلس لمشاهدة التليفزيون، وهناك، فى نشرة
الأخبار فى برلين، أو مدريد، أو لوس أنجلوس، أو
بيونس أيريس سوف ترى بن واقفًا، منعزلاً عن الزحام
بالتأكيد، وهو يحدق فى الكاميرا بعينيه العفريتتين، أو
يفتش فى الوجوه بين الزحام عن كائن آخر من أبناء
جلدته.

صدر من هذه السلسلة

١ ـ «ملكة الصمت» للكاتبة الفرنسية «مارى نيمييه» ـ رواية ـ جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر» للكاتب الفرنسى «بيير بيجى» ـ رواية ـ جائزة «انتير».

٣ ـ «موال البيات والنوم» للكاتب المصرى «خيرى شلبى» ـ رواية ـ جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد عفيفى مطر» ـ سيرة ذاتية ـ جائزة «سلطان العويس».

٥ ـ «اللمس» للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله» ـ مسرح ـ جائزة «أبها».

٦ ـ «عاشوا فى حياتى» للكاتب المصرى «أنيس منصور» ـ سيرة ذاتية ـ «جائزة مبارك».

٧ ـ «قبلة الحياة» للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» ـ رواية ـ «جائزة التفوق».

٨ ـ «ليلة الحنة» للكاتبة المصرية «فتحية العسال» ـ مسرح ـ «جائزة التفوق».

٩ ـ العاشقات ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» رواية ـ «جائزة نوبل».

١٠ ـ نوّة الكرم، للكاتبة المصرية «نجوى شعبان»، رواية، «جائزة الدولة التشجيعية».

١١ـ «الفسكونت المشطور» للكاتب الإيطالى ـ «إيتالوكالڤينو» رواية ـ عدد خاص ـ جائزة «فياريچيو».

١٢ـ القلعة البيضاء ـ للكاتب التركى «أورهان باموق» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٣ ـ أين تذهب طيور المحيط ـ للكاتب المصرى «إبراهيم عبدالمجيد» ـ أدب رحلات ـ «جائزة التفوق».

١٤ ـ قرية ظالمة ـ للكاتب المصرى «محمد كامل حسين» ـ عدد خاص ـ «جائزة الدولة للأدب».

١٥ ـ الرجل البطىء ـ للكاتب الجنوب إفريقى «ج . م . كويتسى» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٦ ـ طحالب ـ للكاتبة الجنوب إفريقية «مارى واطسون» ـ متتالية قصصية ـ «جائزة كين».

١٧ ـ شوشا ـ للكاتب البولندى «إسحق باشيفيس سنجر» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٨ ـ شارع ميجل ـ للكاتب من ترينداد ـ «ف. س. نايبول» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٩ ـ الحياة الجديدة ـ للكاتب التركى «أورهان باموق» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

٢٠ ـ عشر مسرحيات مختارة ـ للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» ـ مسرح ـ «جائزة نوبل».

٢١ ـ الآخر مثلى - للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» - رواية - «جائزة نوبل».

٢٢ ـ المستبعدون ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

٢٣ ـ الأنثى كنوع ـ للكتابة الأمريكية «جويس كارول أوتس» ـ قصص ـ جائزة بن مالامود.

٢٤ ـ ثلاثة أيام عند أمى ـ للكاتب الفرنسى «فرانسوا فايرجان» ـ رواية ـ جائزة الجونكور.

٢٥ ـ اسطنبول.. الذكريات والمدينة.. للكاتب التركى «أورهان باموق».. «جائزة نوبل».

٢٦ ـ الطوف الحجرى.. للكاتب البرتغالى «جوسيه سارامارجو».. رواية.. «جائزة نوبل».

٢٧ ـ نار وريبة.. للكاتبة الألمانية «بريچيتّه كروناور» مختارات جائزة «چورچ بوشنر الكبرى».

٢٨ ـ الذكريات الصغيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو» .. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

٢٩ ـ إليزابيث كُستّلّو.. للكاتب الجنوب إفريقى ج. م. كوتسى .. رواية.. «جائزة نوبل».

٣٠ ـ السيدة ميلانى والسيدة مارتا والسيدة جيرترود.. للكاتبة الألمانية بريچيته كروناور .. قصص.. جائزة چورج بوشنر الكبرى.

٣١ ـ حين تقطعت الأوصال .. للكاتبة المكسيكية أمبارو دابيللا.. قصص.. جائزة بيربياروبيا.

٣٢- مارتش.. للكاتبة الأمريكية «جيرالدين بروكس» رواية.. جائزة البوليتزر.

٣٣ - اغتنم الفرصة.. للكاتب الكندى «سول بيللو».. رواية.. جائزة نوبل للآداب.

٣٤ - البصيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٥ - بريك لين.. للكاتبة الإنجليزية البنغالية.. «مونيكا على».. رواية.. جائزة البوكر.

٣٦- بريد بغداد.. للكاتب التشيلى «خوسيه ميجيل باراس».. رواية.. الجائزة الوطنية للآداب.

٣٧ - عن الجمال.. للكاتبة البريطانية «زادى سميث» رواية.. جائزة الأورانج.

٣٨ - العار.. للكاتب الجنوب إفريقي ج. م. كويتسى.. رواية.. جائزة نوبل.

٣٩ - قبلات سينمائية.. للكاتب الفرنسى إيريك فوتورينو.. رواية.. جائزة الفيمينا.

٤٠ ـ هكذا كانت الوحدة.. للكاتب الإسبانى خوان خوسيه مياس.. رواية.. جائزة نادال.

٤١ ـ الشلالات.. للكاتبة الأمريكية چويس كارول أوتس.. رواية.. جائزة الفيمينا.

٤٢ ـ العشب يغنى.. للكاتبة الإنجليزية درويس ليسنج.. رواية.. جائزة نوبل.

٤٣ ـ العالم.. للكاتب الإسبانى خوان خوسيه مياس.. رواية.. جائزة بلانيتا.

٤٤ ـ ميراث الخسارة.. للكاتبة الهندية كيران ديساى.. ر واية.. جائزة البوكر.

يصدر قريباً من هذه السلسلة

١ - بن يجوب العالم.. درويس ليسنج.. جائزة نوبل ٢٠٠٧.

٢ - ثورة الأرض.. جوزيه ساراماجو.. جائزة نوبل ١٩٩٨.

٣ - ملك أفغانستان لم يزوجنا.. انجريد توبوا.. جائزة الرواية الفرنسية الأولى ٢٠٠٧.



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس

www. egyptianbook org.eg

E - mail : info@egyptian.org.eg

الرواية

كتبوا عن "الطفل الخامس" أنها رواية لديها قوة الكابوس. كُتبت بتلك البساطة اللاذعة التى هى قوام الكوابيس..

أربعة أطفال ورعاية الأقارب والأصدقاء ومنزل قديم جميل تؤسسه قصة حب رائعة بين هارييت ودافيد لوفات ثم يولد لهما "الطفل الخامس" فيسقط كظل مظلم لا سبيل إلى تغييره.. ظل ضخم وقبيح وعنيف لا يمكن التحكم فيه.. رضيع تملؤه كراهية باردة تصارع أمه لرعايته فتجابه بظلام لم تعرف له مثيلاً من قبل وتنزوى فى خوف دائم منه.. من إبنها.. مما جلبته هى للعًالم..!

الكاتبة: دوريس ليسنج كاتبة إنجليزية
الجائزة: جائزة نوبل فى الآداب عام ٢٠٠٧.



ISBN# 9789774207886



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٧,٥٠ جنيه